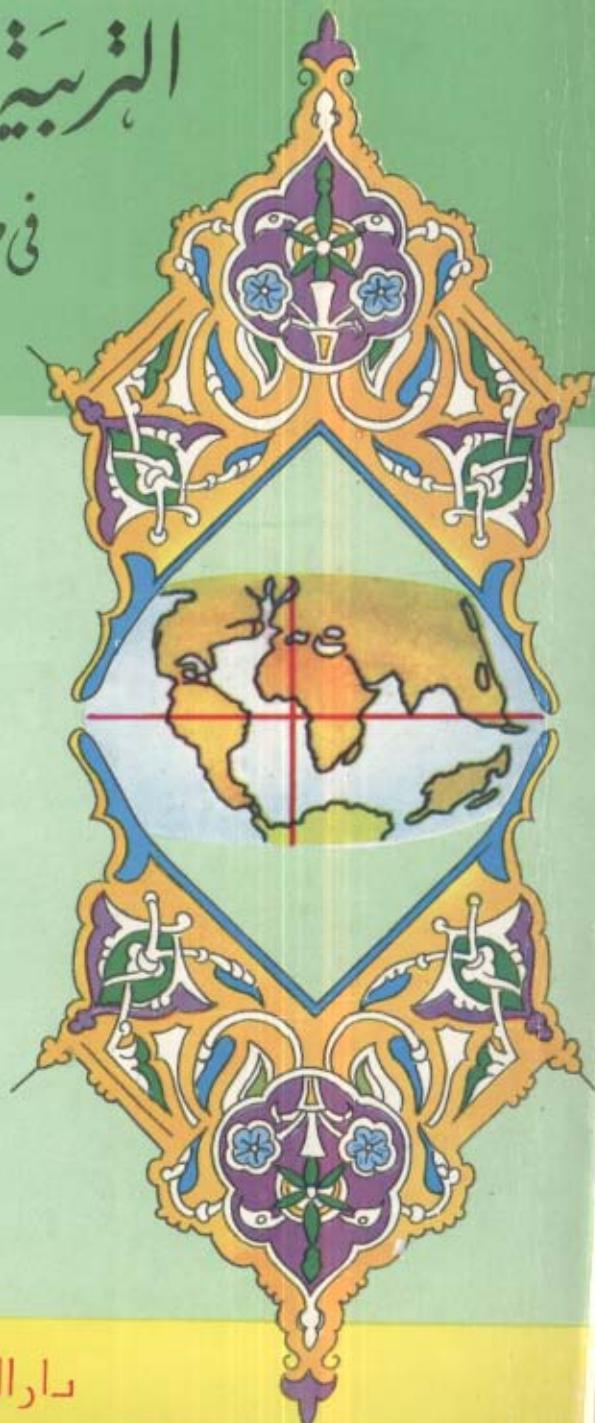


# الهُرْبَيَّةُ وَبَنَاؤُ الْأَجَيَالِ

فِي ضَوْدِ الْإِسْلَامِ

بِتَمِيمٍ  
أنوراً جندي





Jindī, Anwar.

المَوْسِعُ عَنِ الْاسْلَامِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ

(١٦)

al-Tarbiyah wa-bimā'

الْتَّرْبِيَّةُ وَبِنَا وَالْأَجْيَالُ

فِي صَوْدِ الْإِسْلَامِ

بِقَلْمَنْ  
أُنْوَرِاجْبُرِنْدِي

دار الكتاب اللبناني - بيروت

كتاب

61078633

جَمِيعُ الْحَتْرُقُ بِعِنْدَهُ لِلْأَوْيَنْ وَالْأَشِير  
دَارُ الْكِتَابِ الْبَلْتَانِيَّ  
بَرْقِيَّا : كَتَالَبَان . بَيْرُوت  
صَ - بَ : ٣١٧٦  
بَيْرُوت - لَبَّانَ

الطبعة الأولى ١٩٧٥

BP161

. 2

J541

v. 16

MAIN

## أبعاد البحث ومضامينه

### الصفحة

(اولاً) الدراسة التاريخية على المستوى الاقفي

#### مدخل

- الباب الأول : الفزو التربوي والتعليمي والثقافي  
الفصل الأول : مدارس الإرساليات  
الفصل الثاني : التعليم الوطني

(ثانياً) الدراسة الموضوعية على المستوى الرأسي

- الباب الثاني : واقع التربية الوافدة في العالم الإسلامي وآثارها  
الفصل الأول : أوجه الخلاف بين المنهاج  
الفصل الثاني : أوجه النقص في الاقتباس
- الباب الثالث : التربية والتعليم والثقافة في إطار الإسلام  
الفصل الأول : التربية الإسلامية  
الفصل الثاني : التعليم الإسلامي —  
الفصل الثالث : الثقافة الإسلامية

02948



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مدخل الى البحث

هناك سؤال يطرح نفسه في أفق العالم الإسلامي بقوة ، وتلح الأحداث المتصلة في طلب الإجابة عليه ، وهي تقدمهاليوم على كل سؤال ، هذا هو :

ما هو الحنجر الذي 'طعن به المسلمين ؟

لقد تحدث المصلحون عن مقاتل متعددة أصيّب بها المسلمون في كيانهم وركزوا على كل واحد منها على أنه هو الأساس والمصدر والهدف ، وترددت الإجابات بين سيطرة القانون الوضعي على الشريعة الإسلامية أو سيطرة الاقتصاد الغربي بشطريه على الاقتصاد الإسلامي أو سيطرة النظام السياسي الغربي على المسلمين أو سيطرة مفاهيم القومية والإقليمية والوطنية والعنصرية على مفهوم الأخاء الإسلامي .

ولكن امراً من ذلك كله لم يكن أشد خطراً من احتواء الركن الركين في بناء الأمم : احتواء التربية والتعليم ، فذلك هو الحنجر الذي 'طعن به

المسلمون في كل هذه المقاتل وهو الذي يتهم عليهم اولاً ان ينزعوه من جسمهم قبل ان يعالجوها هذه المقاتل جميعاً، ذلك لأن أي علاج يسبقه سوف لا يؤدي الى أي رجاء يرتجى بالبرء والشفاء ، ما دام قاتلها ينزف دماً ، ولن يكون لأمر ما من إصلاح أو تصحيح أو تحرير أو علاج ، أي أثر حاسم قبل ان يبدأ العمل من نقطة الصفر الأساسية : وهي نقطة الخنجر المفروس الذي ما زال ينزف بالدم .

ذلك الخنجر هو في حقيقة الأمر : التربية والتعليم التي سيطر عليها النفوذ الاستعماري واحتواها وعندما اخسر ظله لم يسلها الى أهلها مرة اخرى بل مضت قدار بإشراف اوليائه وتحت لواء اتباعه .

هذا هو الخنجر المفروس في الجسد الإسلامي والذي ما زال ينزف دماً . ولقد كان المستعمرون غاية في الدهاء والمكر والبراعة عندما بدأوا معركتهم من المدرسة وعن طريق برامج التعليم ومن خلال الإرساليات التبشيرية التي سبقت ووضعت منهاج التعليم وألزمت وزارات المعارف والتعليم بأن تنقل منهاجها وتطبّقها .

وقد استطاعت قوى الاستعمار ان تفرض هذه المناهج على المدارس الاميرية، ولم يسلم منها إلا قليل من المدارس الأهلية في مراحلها الأولى، ولكن ما لبث شبابها ان وضعوا في البوتقة عندما وصلوا الى الدراسات العليا الجامعية التي كانت في قبضة حديدة من الاستعمار والتغريب حتى لا يفلت أحد من سيوكلي اليهم أمر الصدارة والقيادة في المجتمعات الإسلامية .

وكان المناهج والقرارات والكتب قد أعدت تماماً ، وكانت المناهج والكتب القديمة قد أُعدت تماماً حتى لم يبق منها أي آثار للمراجعة التاريخية؟ ومن عجب ان داراً مثل دار الكتب المصرية وقد أنشئت قبل الاحتلال البريطاني لا تجده فيها ورقة تسجل المناهج أو القرارات التي كانت قبل الاحتلال.

هذه هي القضية كما يقولون : وإذا كنا نواجه اليوم مقاتل نازفة في موقع خطيرة من فكرنا ومجتمعنا فإنما مرد ذلك كله إلى هذا الختير المدفون في أعماق الجسم الإسلامي .

وإذا كان المسلمون قد طعنوا في شريعتهم فاقصيتم عن مجال التطبيق في مجتمعاتهم وحلّ محلّها القانون الوضعي ، فإن مرد ذلك إلى « التعليم » الذي خرج اجيالاً تحقر الشريعة وتؤمن بعظمة قانون نابليون ، وإذا كان المسلمون قد طعنوا في لغتهم وبرزت دعوى « العلاميات » في مختلف أنحاء الوطن العربي وأكّرّهت أمم إسلامية كثيرة على تغيير لهجتها فإن مرد ذلك إلى مناهج التعليم التي خدعت العرب والمسلمين بدعوى عظمّة اللغات الأجنبية ودخول « اللاتينية » إلى المتحف فلماذا تبقى « العربية » العجوز .

وإذا كان المسلمون قد طعنوا في مفهومهم الإسلامي للاقتصاد فإنما يرجع ذلك إلى أن المسلمين والعرب درسوا في مدارس الإرساليات وفي المدارس الوطنية أيضاً ، وفي الجامعات درسوا أنظمة الاقتصاد الرأسمالي والماركسي على أنها هي وحدها الأنظمة الموجودة في العالم ، وان الربا هو القاسم الأعظم على كل الأنظمة والمشروعات .

وإذا كان المسلمون قد طعنوا في مفهومهم السياسي الإسلامي فإنما يرجع ذلك إلى تلك الصور البراقة التي قدمت لهم في مدارسهم وجامعاتهم عن الديقراطية والليبرالية والجماعية وغيرها من أنظمة الغرب فخدّعهم .

وإذا كان المسلمون قد طعنوا في مفهومهم للعلم فإنما يرجع ذلك إلى تلك المقررات المدرسية والجامعية التي ترد العلوم الحديثة من كيمياء وفيزياء وفلك وطبيعة وتكنولوجيا إلى علماء الغرب وحدهم متّجاهلة ذلك الدور الخطير الذي قام به المسلمون والعرب في بناء الطابق الأساسي الأول من مؤسسة العلم العالمية وأنهم هم الذين قدموا المنهج العلمي التجريبي إلى البشرية كلها .

وإذا كان المسلمون قد طعنوا في مفاهيمهم الاجتماعية فإنما مرد ذلك إلى مناهج التعليم التي تدرس المجتمعات الغربية ومنهج مدرسة العلوم الاجتماعية الذي يقوم على إنسكار فطرية الأسرة وأصلة الدين وثبات الأخلاق ، وتدعى إلى التطور المطلق والجبرية الاجتماعية ؟ كل ذلك يدرسه أبناء المسلمين في مدارسهم ومعاهدهم وجامعاتهم على أنه حقائق مقررة لا على أنها نظريات مؤقتة مرتبطة بيئتها وعصورها ، قابلة للخطأ والصواب ، لأنها من نتاج عقليات بشرية تخطيء وتصيب .

هذا هو الخطر الواضح من وراء الخنجر الذي طعن به المسلمون ؟

ومفهوم هذا الخطر هو ان النفس الإسلامية في العالم الإسلامي كله من حيث إنها اخسرت في بيئتها مفاهيم الثقافة الإسلامية القائمة على القرآن والسنة وضعفت فيها القدوة التي تبني الشباب فإنها قسم إلى المدرسة شباباً غضباً ، يحس بالفراغ في مجال وجوداته وعاقفته وفكره ، فلا يجد إلى مفاهيم الإسلام سبيلاً ، ثم إذا به يلتقي بتلك المناهج التي تصور له فكر الغرب على صورة العقيدة ، وتملا نفسه بحب تاريخ الغرب وترفع في نظره شأن الغرب ، وتقديم له العلم والاقتصاد والقانون والمجتمع ، من نتاج المجتمعات أخرى على أنه هو الفكر الإنساني ، والثقافة البشرية .

وأين الفكر الإسلامي في ذلك كله والمسلمون لهم منهج حياة كامل ، و لهم مفهوم جامع للحياة والمجتمع ، والسياسة والاقتصاد والتربية ؟  
هذا كله مما لا يزال ضائعاً ، ولا يزال ناقصاً ، ولا يزال مهملاً .

ومن هنا فإن هذه النفس المسلمة التي عجزت عن ان تملأ فراغها الروحي والفكري بقدراتها وقيمها لا بد ان تملأ بآي شيء ، وما يقدم اليها زاهياً براقاً في كتب ملونة مزخرفة ، بينما هي تعجز عن ان تجد من فكرها ما يرد عنها الخطر أو يصحح لها الشبهات أو يزيح عنها ظل التغريب والاحتواء .

تلك هي القضية الأولى في التحدي الخطير الذي يواجهه المسلمون اليوم في كل مكان ، ومن خلال هذه النقطة نصل الى كل قضية والى كل أزمة والى كل موقف .

فنـ خلال الطريق الطويل استطاعت قوى الصهيونية والاستعمار ان تتحقق ما وصلت اليه لأنها استطاعت ان تثبت فكرها في النفس الإسلامية وان تحتوتها وان تنقلها من دائرة الإسلام المرنة الجامحة المتكاملة الوسطية الى دائرة الغرب المغلقة القاتلة .

ومن هذه النقطة بالذات نستطيع ان نصل الى كل ما نظم فيه من وحدة وقادم وقيام أمة الإسلام في أرضها بدورها الريادي الإنساني العالمي الذي هو فريضة محتومة والذي هو حق في أنعاقنا جميعاً ، والذي يجب ان نلتقي عليه صادقين وإلا فنحن آثرون مقصرون مأخوذون بحريرة الذنب .

( ۲ )

يرد بعض الباحثين أزمة التربية والتعليم الإسلامية إلى وصول الحملة الفرنسية أو الاحتلال البريطاني لمصر أو الفرنسي للجزائر أو إلى محاولات محمد علي في الجري وراء التبعية الفرنسية تجاوزاً للأزهر وحجبها له ، ملتقياً في ذلك مع الفرنسيين الذين عرّفوا مقاومة الأزهر ، وما عرفه محمد علي من معارضة علماء الأزهر وعلى رأسهم عمر مكرم لاستبداده وأهوائه . ولكن الأمر أبعد من ذلك كثيراً وأشد عمقاً .

ونحن نعرف ان معركة حاسمة دارت بين الإسلام والغرب في مواطن مختلفة ، جاءت باسم الحروب الصليبية في قلب عالم الإسلام ، عايشها المسلمين بالمقاومة والجهاد فرذين كاملين وانتهوا منها بالنصر المؤزر كانتهى عدوهم بالهزيمة الساحقة ، ولم يكن هذا نهاية الشوط بالنسبة للغرب ولم يتوقف طموحه في السيطرة على ارض الإسلام وبلاد الإسلام .

ومن قلب الحروب الصليبية وهزائم الغرب نبت جذور تلك المؤامرة على أيدي المهزومين ؟ لقد نتجت عن الهزيمة فكرة خطيرة قالت هذه الفكره : إذا لم يكن السيف قادرآ على السيطرة على المسلمين فليكن ذلك عن طريق الكلمة ... كان المعروف ان المسلمين قد غلبوا الغرب ودحروه لأنهم متقدمون حضارياً وعسكرياً، ومن خلال هذه المعارك انقض الغرب على ميراث المسلمين

ومناهجهم وعلمهم فاستوعبه ثم دك المعاقل وأخرج منها أهلها واستولى على الجامعات والمعاهد والوثائق ؟ وقطع طريق العدوة بين المسلمين وأوربا .

ومع محاولات الغرب الى ترجمة الفكر الإسلامي والسيطرة على ارض هذا الفكر في الأندلس وإخراج المسلمين منها كانت وصية لويس التاسع هي الضوء الكاشف أمام الغرب حين قرر ان تكون الحرب الموجهة الى عالم الإسلام هي حرب الكلمة وحرب الفكر ، ذلك ان الغرب كان يعلم ان المسلمين لن يهزموا ولن يستوعبوا ولن يوضعوا في قبضة الغرب إلا إذا سقطت تلك المنارات العالمية من مفاهيم الجهاد والمقاومة والحرية والتميز بالتوحيد والقرآن ، هذه العقيدة الراسخة كانت هي القوة الضخمة التي كونت عالم الإسلام ، وكانت ولا تزال وستظل القوة القادرة على دحر كل من يتصدى لها .

إذن فلا بد ان تبدأ المعركة من هذه النقطة الخطيرة :

من نقطة تزييف العقيدة وامتصاص حيوية الدعوة ، وتفريغها من مضامين القوة والإيان والجهاد حتى يفقد المسلمون هذا السر الخطير وحق يصبحوا قطبيعاً من السائفة التي يمكن ان تطوى وتتهرّب .

هكذا كانت وصية لويس التاسع بعد هزيمته في المنصورة تكشف عن هذا التحول في الحروب الصليبية من السيف الى الكلمة ؟ وهو ما يمثل الموجة الاستعمارية المصرية . لقد كانت نهاية الحروب الصليبية بداية حرب الفكر والكلمة ، ومنطلق الخطط الجديدة للفزو الفكري والثقافي ومحاولة دحر الإسلام (كفكر) بعد العجز عن القضاء عليه كقوة سياسية وامة فائمة .

وتعدّ وصية لويس التاسع أخطر وثيقة في هذا الاتجاه فهي التي فتحت الباب واسعاً أمام معركة قوامها [التبشير والاستشراق والغزو الثقافي والتغيير] وقد قامت على أثرها مباشرة حركة أوربا المعروفة الى ترجمة القرآن والتعرف على الإسلام ومن ثم أخذت تتشكل تلك النواة في المعاهد الغربية وفي الكنائس

تعمي الى دراسة اللغة العربية والإسلام والقرآن للكشف عن الجوانب التي يمكن الوثوب منها والبحث عن النقاط موضع الخلاف بين الفقهاء والمفسرين والروايات الضعيفة والشبهات وتجديد ما أثاره الشعوبية والباطنية والقوى المعادية للإسلام وتنسيقه من جديد وإذاعته على أنه علم عصري يقوم على الدليل والبرهان .

وقد ظاهر هذه الحركة - لكي تتم محاصرة الفكر الإسلامي - عملية نقل التراث الإسلامي من البلاد العربية والإسلامية بواسطة القناصل والتجار ، وهي عملية استيلاء مكملة لما تم في الأندلس من سيطرة على الجامعات والمعاهد وإخراج المسلمين منها ، على الرغم من قاعدة المسلمين الأساسية الواضحة التي كانت تؤمن بأن العلم للجميع ، حق العلم التجربى ، وليس من أسرار الأمم كما تصنف الدول الحديثة لتحول دون المسلمين خلال قرن ونصف قرن من الحصول على أصوله ومعادلاته مع أنهم هم الذين وضعوا أسسه وقواعد وساهموا في بناء ركائزه ومقوماته .

لقد كان المسلمون في جامعات الأندلس وصقلية يفتحون كل الأبواب للعلم ولا يردون غريباً عنه ، إيماناً بوصية دينهم ، غير ان الغرب في قناعي حقده وتعصبه لم يقف عند حد التوصل الى مفاتيح العلوم ، بل إنه صادر الموقع الإسلامي كله وأخرج منه أهل إخراجاً ، وسيطر على كل المقدرات العلمية ثم ادعها لنفسه وأعلن تبعجاً وأؤماً وخسأ بأن المسلمين لم يكن لهم أي دور في بناء العلوم . وقد صادر كل ما كانت في أيدي المسلمين حين أخرجوا من بلادهم إلى الحد الذي أعجزهم عن ان يستأنفوا تجاربهم في الأرض العربية التي هاجروا إليها .

ولقد كانت نصيحة لويس التاسع ووثيقته التاريخية تدعو الى هذا الاتجاه وترسم خطواته .

لقد بلغ لويس التاسع درجة القداسة في نظر الغرب لأنَّه حارب من أجل إخضاع المسلمين فهزَم في مصر وقتل في تونس ، وإذا كانت الحملات الصليبية قد توقفت منذ استعاد المسلمين ( عكا ) بقيادة الأشرف خليل عام ( ٦٩٠ هجرية ١٢٩١ ميلادية ) وعلى أثر ذلك قامت الدولة العثمانية الكبرى بعد تسع سنوات من سقوط الحروب الصليبية وهزيمة أوربا والخسائرها عن بلاد الإسلام ، هذه الدولة التي استمرت قائمة تحمي لواء الإسلام وتندوَّد عن كيانه حق عام ١٢٣٧ هجرية الموازية لعام ١٩١٨ الميلادي أي أنها استمرت تحمل لواء الإسلام خمسة قرون ونصف القرن .

نقول : إذا كانت الحملات الصليبية قد توقفت منذ عام ٦٩٠ هجرية فإنَّ أوربا لم تتوقف ، فقد بدأت حركتها كرَّة أخرى بعد وقت قصير حين قد ادَّافَت بعد سقوط الأندلس على الطريق الإسلامي الإفريقي من ناحية الغرب دون توقف : الإسبان والبرتغال ومن ورائهم الإنجليز والفرنسيون والهولنديون .

أما في أفقِّ البلاد العربية فقد كان عام ١٧٩٨ هو علامة الخطر حين بدأت فرنسا في غزو مصر ولم ترَ غير سنوات قليلة حتى كانت الحملة على الجزائر ، ومنها امتدَّت إلى تونس فصرَّ السودان ، ومنذ ذلك اليوم أخذت طلائع التبشير تظهر ، وطفقت حركة الاستشراق تزدهر ، وكانت بؤرة العمل هي ساحل البحر الأبيض الشرقي والجنوبي في مواجهة الشام من ناحية واستانبول من ناحية ومصر والجزائر من كل ناحية ونقلت المطبع وببدأ الإرساليات ، وتصارعت قوى البروتستانت الأمريكية وقوى الكاثوليك الفرنسية وتناقشت على استيعاب أبناء المسلمين ، ثم جاءت حُكومات الاستعمار في كلِّ البلاد العربية فأخذت مناهج مدارس الإرساليات ونفذتها توًّا .

وفي عَدَيد من مصادر تاريخ اللقاء بين الإسلام والغرب نجد إشارة إلى وصيَّة لويس التاسع الذي كان أول من أشار إلى تجنييد المبشرين في معركة

الكلمة لمحاربة تعاليم الإسلام ووقف انتشاره ثم القضاء عليه معنويًا واعتبار هؤلاء المبشرين في تلك المعركة جنوداً للغرب .

ومنذ ذلك الوقت اختيرت قاعدة العمل في قلب البلاد العربية والمخذلة نقطة ارتكاز ومعقلًا لمعركة العقائدية والفكرية التي تستهدف حصار الإسلام والثوب عليه، وقد اختيرت هذه الأراضي المتعددة على شاطئه البحار الأربع. الشرقي مسرحاً لهذا العمل منذ ذلك الوقت وتحركت أطراف العمل بين بيروت والقاهرة والقدسية ؟ وفي نفس الوقت كان هناك عمل مماثل يتحرك في تونس والجزائر ومراكش وأعمال أخرى في مختلف أجزاء العالم الإسلامي وفي جاوه وأندونيسيا والفيليبين .

ولقد سجل أحد الباحثين المشتغلين بالتبشير في أكبر مؤسساته هذه الظاهرة تسجيلاً صريحاً لا يدع معه مجالاً للشك الذي قد يراود بعض حسني الظن في صحة هذا المخطط وصدق الإرادة في العمل له .

ويصور (نبيل أمين فارس) خطة لويس التاسع ومداها في عبارات واضحة صريحة ؟ يقول :

« بينما كان الشرق الأدنى مطمحًا لأفكار بناء الامبراطوريات كان أيضًا مطمح انتشار جماعة أخرى من الناس تنشد أن تنجز عن طريق الكلمة ما عجز أجدادها الصليبيون عن تحقيقه عن طريق السيف . وبعبارة أخرى، تنشد احتلال مهد المسيحية وإخضاع العالم كله للمسيح. إن هذا الحلم المسيحي، قديم قدم المسيحية ذاتها ، وهو يستمد وحيه الدائم من الوصية التي سجلها أول المبشرين : (القديس لويس) ولعل سبب سيطرة هذه الوصية كرامة أخرى على عقول المسيحيين يعود إلى اليقظة الدينية التي عممت انكلترا في أواخر القرن الثامن عشر واليقظة الدينية المقابلة لها في الولايات المتحدة التي تمثلت فيها بروح انكلترا الجديدة . وعلى ذلك فقد شهدت السنوات الأخيرة من

القرن الثامن عشر والسنوات الأولى من القرن التاسع عشر ظهور كثير من الجميات التبشيرية التي كرست نفسها لحمل الإنجيل إلى جميع البشر ، ويمكن ان يضاف إلى هذين العاملين عامل آخر هو ازدياد المطامع السياسية والاقتصادية في ممتلكات رجل أوربا المريض (يقصد الدولة العثمانية الإسلامية). ومن المحتمل ان يكون لهذا العامل الأخير علاقة باختيار الشرق الأدنى ميداناً مفضلاً للنشاط التبشيري .

وهكذا نجد نصاً صريحاً واضحاً يكشف عن آثار وصية لويس التاسع التي دعت إلى استعمال الكلمة بدلاً من السيف في السيطرة على عالم الإسلام وقد كان ذلك عام ٦٤٧ هجرية تقريباً. وقد أشار كثيرون إلى وصية لويس: يقول رينيه جروسيـه مؤرخ الحروب الصليبية « إن الملك لويس التاسع هو في مقدمة ساسة الغرب الذين وضعوا للغرب الخطوط الرئيسية لسياسة جديدة » وان هذه السياسة تتمثل في تحويل الحملات الصليبية العسكرية إلى حملات صليبية سلمية تستهدف الغرض نفسه وان يكون أحد أسلحة الحملات الجديدة هو الدس بين العرب وإثارة الخلافات والعمل علىبقاء ثارها مستعرة بين الأمراء المسلمين . ومن أهم أسلحة الحملة الجديدة تجنيد المبشرين الغربيين في معركة سلمية لمحاربة تعاليم الإسلام ووقف انتشاره والقضاء عليه معنوياً واعتبار هؤلاء المبشرين في تلك المعارك جنوداً للغرب ، كما دعا إلى استخدام من يمكن إغراؤهم من مسلمي الشرق في تنفيذ سياسة الغرب ، وإنشاء قاعدة للغرب في قلب الشرق العربي تكون بمثابة نقطة ارتكاز له ولدعوته السياسية والدينية ؟ ومنها يمكن حصار الإسلام والوثوب عليه .<sup>(١)</sup>

(١) راجع محمد علي الفتى : كتاب الشرق والغرب من الحروب الصليبية إلى حرب السويس (المراحل الأولى) .



# الباب الأول

## الغزو التربوي والعلمي والثقافي

وَالْمُؤْمِنُونَ  
يَأْتُونَكُم مُّهَاجِرِينَ

## الفصل الأول

### مدارس الإرساليات

بدأ الفزو التربوي والتعليمي والثقافي للعالم الإسلامي من نقطة واحدة هي «مدرسة الإرساليات» وامتد منها إلى الجامعة، ثم امتد من الجامعة إلى الصحافة وبجالات الثقافة المختلفة.

لقد تحدثت الإرساليات التبشيرية ببناء على وصية لويس التاسع خطواتها في أوربا للعمل في مواجهة الإسلام عن طريق الكلمة ثم اختارت الموقع الذي جعلته نقطة ارتكاز وانطلاق لدعوتها في بيروت التي أعدت لذلك إعداداً سياسياً واجتماعياً واضحاً.

ثم تقدمت الإرساليات على خطين: خط الإرساليات البروتستانتية الأمريكية، وخط الإرساليات الكاثوليكية الفرنسية، ومن ثم وضعت فلسفة تربوية غربية قطراوح بين مذهبين مختلفين: هما في الأصل يستمدان أساسهما من المسيحية الغربية ولكنها يختلفان في الطريقة و يصلان في الغاية إلى هدف واحد هو استيعاب الشباب العربي والمسلم واحتواه وتعلمه على نحو يجعله يبدأ من أيدي القوة الغربية وعيناً من عيونها.

ومن الناحية التاريخية يمكن القول إن بداية الغزو الفرنسي في مجال التربية والتعليم والثقافة بدأ في مصر بمد الهمة الفرنسية مباشرة وفي خلال حكم محمد علي وعن طريق الخبراء الذين استقدمهم هذا الوالي ، وكانوا من رجال الثورة الفرنسية وهم مفاهيمهم التي صاغتها هذه الثورة وفرضتها على فرنسا مقدمة تفرضها على أوروبا جائعاً وعلى الفكر العربي كله .

ومن انطلاقه محمد علي إلى سوريا والخساره عنها كانت القوى الراسدة قد أعدت نفسها للعمل ، ووضعت لبنان في الظروف التي هيأته للانفصال عن الدولة العثمانية ١٨٦٠ واستقلاله ومن قبل ذلك كانت بعثات التبشير قد ارتادته وأعدت خططها ، وفي الجزائر كانت بعثات التبشير قد بدأت مع الاحتلال ١٨٤٨ تقريباً، أما في مصر فقد جاءت في عصر اسماعيل واستطاعت أن تحصل على الأراضي والمعوقات وتركز نفسها كمقدمة لدورها بعد الاحتلال ١٨٨٢ . وهكذا انتشرت الخطة في رواق العالم الإسلامي كله وتأهلت للعمل الذي تركز أولاً وأخيراً في السيطرة على التربية والتعلم ثم الثقافة من أجل احتواء الأجيال وإعدادها .

وعندما سيطر الاحتلال كانت مناهج مدارس الإرساليات سواء في استانبول أو بيروت أو القاهرة هي الخطط الأساسية التي نقلت إلى المدارس الوطنية مع تمهيدات يسيرة .

وعندما خرجت جامعات الإرساليات في بيروت أول افواجها بعثت هذه الأفواج إلى مصر وإلى شمال إفريقيا كله لتحمل لواء الصحافة . وليس بمحب أن تكون الصحافة العربية كلها من إخراج المارونيين خريجي الجامعة الأمريكية وجامعة القديس يوسف .

وحق نقف على ارض صلبة في مجال البحث نشير إلى ما أورده (نبيه أمين فارس ) في وثيقته التاريخية<sup>(١)</sup> التي كشف فيها عن خطة لويس التاسع

(١) بجمع الأبحاث : ايلول ١٩٥٨ م ١١ ص ٣٨٣ .

التي اتجهت اليها القوى الاستعمارية واتخذتها اسلوباً للعمل ؟ يقول :

من أهم الجمعيات التبشيرية التي ظهرت في هذه الفترة الجمعية التبشيرية الكنيسية التي أُسست في لندن ١٧٩٩ والمجلس الأمريكي المندوب إلى البعثات التبشيرية، وقد أرسل المجلس الأمريكي بعد تسع سنين من تأسيسه أول مبشريه إلى الشرق الأدنى . وكانت المشكلة الأولى التي واجهت أولئك المبشرين هي اختيار مرکز ملائم لهم . وقدم سوريا عام ١٨٢٣ مبشران آخران وانتقلوا إلى بيروت ، وكان غرض البروتستانتيين أن يتمكنوا بالاشتراك مع كنائس الشرق الناهضة من كسب الكفار إلى دين المسيح ، غير أنهم سرعان ما وجدوا أن الإسلام لم يكن قد فقد سيطرته على قلوب المؤمنين . وصمّ المبشرون منذ البداية على استعمال الكلمة حيث فشل استعمال السيف . وفي سبيل هذه الفكرة أسسوا المطبعة الأمريكية أولًا في مالطة ١٨٢٢ ثم في بيروت ١٨٣٤ ، وأخذوا يفتحون مدارس للبنين والبنات بصورة منتظمة حتى بلغ عدد هذه المدارس ثلاثاً وثلاثين في أقل من هذا العدد من السنين ، وعكفوا على إنجاز تلك المهمة العظيمة : مهمة إعداد ترجمة عربية صالحة مقروءة للتوراة ، وعدوا فوق ذلك حمل لواء الحرية الدينية بصورة خاصة والمطلقة بصورة عامة .

ذلك هو المدخل إلى مخطط غزو المعلم العربي الإسلامي والنفس العربية الإسلامية عن طريق الكلمة وهو مدخل إن بدا يسيراً في هذه الفترة فإنه قد اتسع من بعد حتى سيطر على مختلف أجهزة التعليم والتربية والثقافة واحتوى الجامعات العربية والمدارس بأنواعها وتحول بجرى الأمة كلها إلى تبعية خطيرة..

(٢)

بعد عام ١٨٦٥ علامة على بدء تنفيذ الخطة في بيروت بإنشاء أول مؤسسة خصخصة في قلب الوطن العربي يبدأ منها تاريخ الإرساليات :

يقول برهان الدجاني في بحثه المطول<sup>(١)</sup> : الجامعة الأمريكية في بيروت كانت تحمل اسم الكلية السورية الإنجيلية ، وكانت تعتبر عملها رسالة تبشيرية غايتها نشر المسيحية بالذهب البروتستانتي ، ثم يقول الباحث : علمت المدرسة بالتجربة أن تأكيد الناحية التبشيرية من عملها قد ضيق حقل هذا العمل بحيث أصبحت لا تجتذب سوى قسم من أبناء المجتمع العربي وأصبحت علاقاتها بالأقسام الأخرى تقسم بشيء من التوتر ، فالعلم يفرض أن يطلب لذاته لما في جوهره من حقيقة لا تفرض غير العلم نفسه (ومن ثم) غيرت الجامعة اسمها التبشيري وتنازلت عن مهمتها التبشيرية الخاصة مع احتفاظها ببعض الأشكال الموروثة عن ذلك العهد التبشيري ( وهي بذلك ) تتميز عن الجامعة الغربية الثانية في الوطن العربي [ جامعة القديس يوسف ] ب أنها بروتستانتية الذهب انكلو سكسونية الاتجاه الفكري ، بينما تملك كاثوليكية الذهب لاتينية الفكر ، أصبحت تختلف عنها أيضاً من حيث التكوين فاتجاهت الجامعة الأمريكية إلى المجتمع العربي كله ( ومن ثم ) حل التعليم الحر محل الرسالة التبشيرية .

(١) البحث نشر في صحيفـة الجامعة الرسمـية ( الابحـاث ) ١٩٥٤ .

«فجامعة الأمريكية مؤسسة خاصة وهذا سر تفوتها على المؤسسات الحكومية وقد أخذت عنها الجامعات الوطنية تراثها وأيضاً مناهجها» .

ويشير نبيه أمين فارس إلى تاريخ الجامعة الأمريكية فيقول : لقد رافقت الجامعة المتابع السياسي خلال الاستبداد العثماني وعصبية رجال تركيا الفتاة هذا بالإضافة إلى (المنافسة التي تواجهها الجامعة من قبل اختها الصغرى : جامعة القديس يوسف الجزوية في بيروت ومن قبل سبع جامعات وطنية في مختلف البلاد العربية منذ الحرب الأولى ) . ويقول «لقد ظلت الجامعة الأمريكية في بيروت حتى نهاية الحرب العالمية الأولى هي المثلية الوحيدة في العالم العربي للثقافة الجامعية الغربية عامة والأنكلو سكسونية خاصة وكانت منافستها الوحيدة هي جامعة القديس يوسف » .

فمنذ عام ١٨٦٥ إلى ١٩١٨ وهي نهاية الحرب العالمية الأولى كانت الإرساليتان الفرنسية والأمريكية تعملان في بيروت أي خلال فترة لا تقل عن خمسين عاماً وما تقتضيان الشباب المتعلّم وتتوزعانه قبل أن تكون هناك جامعة عربية .

وقد أكدت الجامعة الأمريكية خطتها عام ١٨٧١ على لسان راعيها (Daniels بلس) حين قال : [ إن هذه الكلية مفتوحة الأبواب لكل الناس على اختلاف ظروفهم وطبقاتهم دون أي اعتبار للون أو لتابعية أو جنس أو لدين ، وبإمكان كل إنسان سواء كان أبيض أم أسود أم أصفر ، سواء كان مسيحيأً أم يهودياً أم مهدياً أم وثنياً أن يدخل هذه الكلية ويتمتع بكل ما تقدمه هذه المؤسسة من خدمات مدة ثلاثة أو أربع أو ثمان من السنين ، ويخرج منها مؤمناً بـ الله واحداً أو بالله علييدين أو غير مؤمن بأي إله ، ولكن يستحيل على أي إنسان أن يعيش بيننا مدة متطاولة من الزمن دون أن يعرف ما هي الحقيقة التي نؤمن بها وما هي أدلةنا وحججنا التي ثبّني على أساسها إيماننا هذا ] .

ثم يصل نبيه أمين فارس من إيراد هذا النص الى القول : بأن الجامعة الأمريكية هي في وقت واحد : مسيحية وأمريكية وعربية .

فهي (مسيحية) من حيث إنها كانت ولا تزال تعبرأ حيًّا عن الخدمة والتضحية المسيحية ومن حيث سعيها خدمة الله عن طريق خدمة عباده .

وهي (أمريكية) من حيث كون معظم ماليتها تعتمد على المساعدات الأمريكية بل لكونها التعبير الحي عن خير ما في التراث الأمريكي من مثل علينا أساساً خدمة المجتمع وإشراك البشرية في الخبرات التي ينعم بها الأمريكي .

وهي (عربية) ليس من حيث وجودها في بلد عربي بل لأنها كرست حياتها لكيما يكون للعرب حياة ولكي تكون حياتهم أفضل <sup>(١)</sup> .

ويشير الاستاذ نبيه أمين فارس الى ان مدارس الإرساليات التي بدأت في لبنان كانت فرصة للمنافسة الضخمة بين البروتستانت والجزوئيت وان إحدى ثمرات هذا العمل (الجمعية العلمية السورية) التي نشأت في احضان الجامعة الأمريكية وفيها دوت الصرخة الاولى للقومية العربية ، وسرعان ما انبرى الجزوئيت الى تقليل البروتستانت في ميدان الجمعيات العلمية كما قلدوم في إنشاء المدارس فأسسوا الجمعية الشرقية وهناك كذلك ترجمة التوراة الى اللغة العربية التي بدأها الأمريكيان ١٨٣٧ ونشروها كاملاً عام ١٨٦٥ .

وأشار الكاتب الى ان الجامعة الأمريكية منذ ١٨٧٠ حتى ١٩٥٨ خرجت ٧٥٠٠ خريج منهم ١٤٠٠ طبيب ومنهم رؤساء وزارات واساتذة وقضاة وأطباء وسياسيون وصحفيون في جميع ارجاء البلاد العربية .

وان بها عام ١٩٥٨ ٣٦٠٠ طالب يمثلون خمسين جنسية مختلفة كما يمثلون أربعين طائفه دينية وعدد الطالبات نحو عشر عدد الطلاب جمعاً .

---

(١) مجلة الابحاث الصادرة عن الجامعة الامريكية ١٩٥٨ .

ويشير الاستاذ حسن فروخ في محاضرة له عن أثر لبنان في ميدان التربية والتعليم الى أثر إنشاء المدرسة المارونية في روما عام ١٥٨٤ وقد تخرج فيها عدد كبير من اللبنانيين الذين كان لهم أثرهم في بناء النهضة العامة وأشار الى ان عدد المرسلين تكاثر في لبنان بعد عام ١٨٤٠ حيث هبط بيروت عدد من الأدباء ، وقد حدث هذا في ثلاثين سنة قبل ان يصبح لبنان متصرفية عام ١٨٦١ أما بعد ذلك والى ان أصبحت بيروت ولاية عام ١٨٨٥ فقد تطورت النهضة وبقي فضل السبق لبيروت ، وكان الفضل في النهضة للمرسلين او لا لطائفه من الوطنين اتصلوا بالمرسلين .

وأشار الاستاذ فروخ الى ان عدد المدارس التي انشأها المرسلون في لبنان بلغ مائة مدرسة ما بين أمريكية وفرنسية وانكليزية وروسية ومانية وإيطالية وأقدم المدارس عمرأ : مدرسة عينطورة وأشار الى أهم مدرستين وهما : مدرسة القديس يوسف التي تعرف الان بالجامعة اليسوعية وقد انشأها المرسلون اليسوعيون في غزير عام ١٧٤٨ ثم نقلوها الى بيروت ١٨٧٤ والمدرسة السورية الإنجيلية والتي تعرف الان بالجامعة الأمريكية وقد انشأها المرسلون الأمريكيون في بيروت عام ١٨٦٦ .

(٣)

انتشرت مدارس الإرساليات في مختلف أجزاء العالم الإسلامي بحججة أنها مدارس للنشر الأجنبي من أبناء الحاليات الوافدة ، فأصبح في كل قطر عديد من المدارس الفرنسية والإنجليزية والألمانية والهولندية والإيطالية . تحت اسماء الجزوئية والفرير واللايك والأمريكان واليسوعيين .

وفي لبنان مدارس أمريكية وآخر فرنسية ، وفي مصر مدارس كاثوليكية وآخر بروتستانتية ، وقد بدأت هذه المدارس دينية صرفة ثم تحولت إلى عالمانية نتيجة تحول التعليم الغربي نفسه بعد الثورة الفرنسية من ديني إلى علاني ، ولقد كانت هذه المدارس تدرس تاريخ بلادها ولغاتها فلا يعرف التلميذ في المدرسة الإنجلizية إلا إنجلترا وجغرافيتها واقتصادياتها ، وقد قدر جرت هذه المدارس من الأصغر إلى الأكبر حتى أصبح لها جامعات ومدارس عليا ، وفي مصر كانت مدارس الفرير والراهبات والجزوئية والليسيه ؟ وكلها قابعة لفرنسا . وقد بلقت الإرساليات في فترة ما بين عام ١٨٤٤ وعام ١٩٤٣ [٢٣ إرسالية ] باسم الراهبات و٣٥ مدرسة للفرير ، بالإضافة إلى كلية سانت كاترين وكلية سان مارك .

وقد ساعدهم الواليان سعيد وإسماعيل بمال والأرض وأباحا لهم الاستيراد من الخارج دون أي ضرائب جمركية .

وكان ملوك فرنسا يتدخلون شخصياً من أجل دعم هذه المدارس كاحتياجها لائشة مدلول من الجزوiet عام ١٨٧٩ بنفوذ الملك لويس الرابع عشر فضلاً عن مساعدة تابليون الثالث إلى مدارس هناك بموازية دور

ولما غيرت فرنسا نظام التعليم عام ١٩٠٤، وأبعد عنه رجال الدين سعى هؤلاء بالسفر إلى الشرق للتبيشير، فوصل عددهم كبيراً منهم إلى مصر والشام ودعموا مدارس الليسيه والفرير والجزويت ثم أنشأوا المعهد الفرنسي للأفار الشرقية عام ١٩٠٨.

توقع أحد حضيـث مدارس الإرساليـات الإنجيلـيزـية فوجـدت ٢٤ مدرـسة تابـعة للبروتستانت والكاثـولـيك بالإضاـفة إلى كلـيـة فكتورـيا (المعـادي) وفكتورـيا (الاسـكنـدرـية) وكلـيـة البنـات الإـنجـيلـيزـية بالإـسكنـدرـية والـكـلـيـة الأـسـقـفـية.

وبـدأ النـشـاط الـأمـريـكي عام ١٨٥٥ بهـدـف نـشـر المـذـهـب البرـوتـسـtantـي، وـقد بلـغـت عام ١٩٥٨ ٨٤٧١ مـدـرـسـة وبـهـا ٢٠٩ آـلـاف تـلـيمـيد بالإضاـفة إلى مـدـرـسـة البنـات الـأمـريـكـية (١٨٦٠) وكلـيـة البنـات (١٩٠٩) والـجـامـعـة الـأمـريـكـية (١٩١٩) وكلـيـة أـسيـوط ١٨٦٥ ومـدـرـسـة البنـات بـأـسيـوط ١٨٧٩.

وهـكـذا تـجـمـعـت خـيوـط التـعـلـيم الـاجـنبـي في مصر قـبـل الـاحـتـالـل الـبـرـيطـانـي عن طـرـيق الإـرسـالـيـات مستـهـدـفة تـحـقـيق اـنـفـس الـغاـيـة، بما

يـقـول الاستـاذ جـرجـس سـلامـة في مـكـتـابـة تاريخ التـعـلـيم الـاجـنبـي في مصر: «إن الباحث في تاريخ التعليم الأجنبي في مصر منذ بدايته في القرن السابع عشر يجد أن هذا النوع بدأ لأغراض دينية بحتة»، حيث كانت البابوية تستهدف نشر نفوذها في الشرق وفي مصر خاصة وإخضاع الأقلية القبطية الأرثوذكسيـة في مصر لـرئـاستـها، وقد قـوـيلـت هـذـه الإـرسـالـيـات جـمـيعـاً من المسلمين بالإـعراضـالـنـامـ، ثم نـشـطـت الإـرسـالـيـات للـقـيـام بـأـعـالـم اـجـتـاعـيـة وـصـحـيـة لـتـجـذـبـ النـاسـ وـتـسـمـيـلـهـم إـلـيـهـا فـأـنـشـأتـ المـسـتـشـفيـاتـ وـالمـصـحـاتـ وـقـامـتـ

بالخدمة - مستشفى هرمل والسبع بنات - .. وكانت الظروف العامة قاسعة على تكين التعليم الأجنبي في مصر ورسوخ أقدامه إذ إنه وفد إلى مصر في وقت كانت فيه الدولة العثمانية فيه ضعيفة بوجه عام، وكانت إنجلترا وفرنسا تتعان بالامتيازات الأجنبية وعقدت أمريكا هي الأخرى معاهدة التجارة والمالحة مع الدولة العثمانية في بداية القرن التاسع عشر وانشأت لها فنصلية في مصر .

ومنذ الحملة الفرنسية على مصر في نهاية القرن الثامن عشر خرجت مصر من عزلتها وبدأت انتظار العالم تتوجه إليها ، وببدأت الدول الغربية تطمع في زيادة نفوذها بها ، وساعد على ذلك أن حكام مصر كانوا يسترضون الدول الأوروبية ورعاياها بشق الطرق ، وظهرت هذه الحقيقة بشكل واضح بعد معاهدة لندن ١٨٤٠ التي فرقت على مصر وصاية دولية .

وقد بذل سعيد وإسماعيل جهداً كبيراً في إرضاء الدول الأوروبية وتشجيع رعاياها ( من أجل مركز البашوية المصرية ) الذي لا يمكن حدوثه إلا بموافقة الدول الغربية وكان من مظاهر هذا تشجيع المدارس الأجنبية ومنحها المنح والهبات .

وبدأ المسلمون يلتحقون بهذه المدارس بالتدريج ، خاصة الطبقة العليا التي كانت ترغب في أن ترسل ابناءها للتعلم في مدارس غير المدارس الحكومية التي يتعلم بها عامة الشعب ووجدوا في المدارس الأجنبية المجال الذي يمكنهم من تحقيق ذلك .

(٤)

ولقد زادت هذه الإرساليات عقاً وقوه بعد الاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢ ، فقد زادت الوفوود الأجنبية واتسع نطاقها حق انه بينما وفدى مصر قبل الاحتلال خمس ارساليات كاثوليكية نسائية في الفترة ما بين ١٨٤٤ - ١٨٨١ فإنه قد وفدى الى مصر بعد الاحتلال ثانى عشرة إرسالية نسائية بين عامي ١٨٨٢-١٩٤٣ ، كذلك تم إنشاء ٣٠ مدرسة للفريير بعد الاحتلال . وقد ساعد على هذا ان الاتفاقية التي وقعتها بريطانيا وفرنسا عام ١٩٠٤ والتي عرفت بالاتفاق الودي نصت على ان تتمتع المدارس الفرنسية في مصر بنفس الحرية التي كانت تتمتع بها في الماضي<sup>(١)</sup> وقد ظل التعليم الفرنسي أكثر انواع التعليم الأجنبي انتشاراً حقاً بعد الاحتلال البريطاني كانت الإرساليات التي مثل التعليم الأجنبي وتعلم الجاليات في وقت واحد مستقلة ومنعزلة عن رقابة الدولة حتى أصبحت دولة داخل الدولة<sup>(٢)</sup> وظل ذلك التعليم يوجه النشء الوجهة التي يراها ويصيغهم بالصيغة التي يريدها دون إشراف فعلى من الدولة عليه ، واستقطب هذا التعليم وهذه المدارس الطبقية الفنية الأرستقراطية في البلاد<sup>(٣)</sup> التي

(١) تاريخ التعليم الاجنبي في مصر .

(٢) تاريخ التعليم الاجنبي في مصر .

(٣) تاريخ التعليم الاجنبي في مصر .

تستطيع ان تدفع المصاريف ؟ بما خلق طبقة ارستقراطية ثقافية تعاملت بهذه المدارس وكانت تسير امور هذا البلد بما زاد في نفوذ هذا النوع من التعليم الى حد كبير .

وقد سهل تحرر الإرساليات من رقابة الدولة أو إشراف الحكومة على القائمين بهذا النوع من التعليم ان يستخدموا مدارسهم للدعابة لبلادهم وتوجيهه النشء ووجهة خاصة دون ما رقابة من الدولة . ولذلك كانت الكتب المستعملة في هذه المدارس مليئة بالإشارات الى عظمة هذه الدولة التي تتبعها المدرسة ، بل بلغ الأمر الى حد ان اشتغلت بعض الكتب المستعملة على معلومات خاطئة مضللة عن مصر والعرب والإسلام .

ومن هنا فقد ساهمت هذه المدارس في تخلق جيل من أجيال الأمة له ولاء خاص لتبعية هذه المدرسة أو تلك ، وكانت أبرز الأخطار المتصلة بمدارس الإرساليات هي :

أولاً : إغفال اللغة العربية وهي لغة البلاد القومية ، وكان من الضروري اتقان لغة أجنبية على حساب اللغة العربية ، هذا بالإضافة الى ما كانت توصر فيه هذه اللغة من نقص وضعف ، بينما لا توجد أي دولة في العالم ترك ابناءها يتعلمون لغة أجنبية منذ سن الرابعة قبل ان يتعلموا لغة البلاد الأصلية .

ثانياً : أسممت هذه المدارس في تلقين ابناءنا تاريخ أوربا والدول الأجنبية المختلفة وحرمتهم في نفس الوقت من تاريختهم القومي والعربي والإسلامي .

ثالثاً : كانت هذه المدارس تتباين مع رغبات وتوجيهات سفاراتها ودولها بل إن مجالس إدارة أغلب هذه المدارس كان يرأسها السفراء والقناصل ، وكان مجلس إدارة كلية فيكتوريا الإنجليزية يرأسه السفير البريطاني .

رابعاً : خلا هذا التعليم من رعاية دين وأخلاق ابناءبلاده ، بل كان له

الاتجاه العكسي المؤدي الى الشعور بالتحلل ، كما انه خلق نوعاً من الطبقة المستعملية على طبقات المسلمين في المدارس الوطنية ، وكانت نظرتهم الى اللغة والى الأمة نفس النظرة « لا يختلطون بالشعب ولا يحسون بمحاسن البلاد لأنهم لم يدرسوا مشاكلها ولم يتمرسوا على مشاركة الوطن مشاعره وأحاسيسه »<sup>(١)</sup>.

خامساً : كان له أثره البعيد في تفكك الأسرة حيث تجد العائلة الواحدة مقسمة بين ثقافات متعددة : أمريكية وفرنسية وإنجليزية ، ووطنية ؟ ومن هنا فقد كان لكل فرد تفكيره الخاص وفلسفته الخاصة ونظرته المختلفة الى الأمور .

وما يتصل بتعليم مدارس الإرساليات نذكر ان هذه المدارس قد شكلت في ثقافة الطالب العربي المسلم مفاهيم خاطئة بما يتناسب مع اتجاهاتها واهوائها سواء أكانت دينية أم سياسية . وقد كانت الكتب المدرسية المقررة موضوعة بطريقة استعمارية ، وكان قوام هذه المعلومات : مصر بلد زراعي ، مصر بلد مستعمر على مدى التاريخ ، لا علاقة بين المصريين والعرب ، الغرب هو مصدر النور وهو صاحب الجنس الأبيض ، التعليم الإسلامي متاخر ، العرب بدؤ ورحل والاسلام دين صحراوي وهو سر تأخر المصريين .

الى غير ذلك من الشبهات والأكاذيب .

وقد كان التركيز في مدارس الإرساليات على ابناء الطبقة الراقية وبناتها وكانت مدرسة البنات العليا الانجليزية ويون باستور والفرنسيسكان تحفل ببنات الأعيان والوزراء وكان يتعتمد على ابناء وبنات المسلمين الاشتراك في الصلة ، وقد اشارت المدرسة أنا مليحان الى هذا المعنى حين قالت :

في صحف كلية البنات في القاهرة بنات آباءهن باشوات وبكونات وليس

---

(١) المصدر السابق بتصرف .

ثمة مكان آخر يمكن أن يجتمع فيه مثل هذا العدد من للبنات المسلمات تحت النفوذ المسيحي وليس ثمة طريق إلى حصن الإسلام أقصر مسافة من مدرسة البنات .

ومن يستهون الأطفال بالحلوى والكبار بشرائط الفانوس السحري ، وان أول هم المدرس المبشر في مدارس الإرساليات ( كما يقول الاستاذ حسين محمود ) هو هدم الاعتقاد في تلميذه فيصبح الطالب مستخفًا بالمعتقدات ، أما خطوطه الثانية فهي محاولة غرس تعاليم جديدة في ارض لم تعد تصلح للاعتقاد ؟ إن أشد النتائج فظاعة هو حض المبشرين للطلبة على المرأة ، فالأخلاق المسيحية كما يسمى بها المبشرون هي مقياس الاستقامة التي يتوقف عليها تمييز الطريق أمام الشباب الراغب في النجاح المدرسي . إن قوله ذات مرة أنا لا أافق على الأخلاق المسيحية في مناقشة مع مدير المدرسة وكان يعني على التمسك بها كاد يدخلني مستشفى المجاذيب لشدة الاضطراب الذي واجهته في وقت كنت فيه تحت رحمة المدرسة <sup>(١)</sup> .

وأصعب من هذا وأشد إذا حاول التلميذ المسلم ان يحجب إجابة فيها كرامة الدين أو امته فإن ذلك يقضى عليه بالرسوب عاماً بعد عام حيث يوضع في قائمة سوداء .

وقد أشار الى هذا المعنى مؤتمر التبشير عام ١٩٢٤ حيث قال :

« في كل حقل من حقوق العمل يجب ان يكون العمل موجهًا نحو النساء الصغير من المسلمين وموزعًا فيما بينهم ليحيط بهم وليكونوا منه على صلة مباشرة ، ويجب ان يقدم هذا على كل عمل سواه في الأقطار الإسلامية فإن تنور روح الإسلام في الناشيء الحديث يتبدىء باكراً من عمره فيجب وال حالة

(١) الرابطة الشرقية : ١٥ يونيو ١٩٢٩

هذه ان يؤتى بالنساء الصغير من المسلمين قبل ان يتکامل نمو عقليتهم واخلاقهم  
حيثند وتستعصي على البشر .

وهكذا تتركز سياسة الإرساليات في توجيه العناية الى النساء الصغير  
التشكيله قبل ان يشكله أهلها في إطار الإسلام ، والى بذلك أقصى الجهد في  
إدخال البنات المسلمات في الأقسام الداخلية حتى ينعزلن عن محيطهن الإسلامي  
ويشكلن في اطار الصلاة المسيحية والأدعية ولا يخرجن من المدرسة إلا بعد  
ان يكن قد انطبعن بطابع الحياة الغربية وروح العقيدة المسيحية . هذه  
اللفتاة هي التي ستكون زوجة مسلمة من بعد وستربى الجيل الجديد .

(٥)

استطاعت الإرساليات في مصر في الثلاثينيات ان تقوم بحركة ضخمة للتبشير بين المسلمين في مصر ، وأجبر عدد كبير من الشباب على ترك دينه ، وجرت تحقيقات قضائية حول وقائع متعددة وحوادث متصلة وصدرت احكام قضائية لم تنفذ ، وأشارت الصحف المصرية الى ذلك في حينه ، واحتج وزير أمريكا المفوض في مصر على موقف الصحف المصرية إزاء حوادث التبشير ، وأشارت الصحف الى ان معاهد الإرساليات تفلت دائماً من العقوبة لأنهم أجانب لا ينتمي اليهم سلطان القوانين المحلية ولأن سلطاتهم القنصلية تواليهم عطفها وحمايتها وأن معاهد التعليم الأجنبية - وكر هذه المحاولات - تتمتع في ظل الامتيازات الأجنبية بمحصانة قوية<sup>(١)</sup> .

كما وأشارت الصحف أكثر من مرة ، الى كتب مقررة في مدارس الإرساليات تحوى طعناً في الإسلام وفي رسول الإسلام ومنها ما نشر عن كتاب الأجرامية الذي يدرس بمدارس الفرير عام ١٩٢٩ .

وأشارت الى كتاب ( Histoire Sainte ) أي التاريخ المقدس الذي يوزع على الفتيات المسلمات وفيه وصف شائن للنبي وان عقيدته هي مزيف

(١) الصحف ١٩٣٢/٢٨ .

بعض أو وحشى من اليهودية والنصرانية والوثنية وان هذه العقيدة ممثلة في القرآن الذي هو مجموعة إيحاءات مزعومة للنبي ، وقد كانت الصحيحات تتواتى باثر كل حادث من هذه الأحداث ثم تنطفئ وتظل هذه الكتب تترك آثارها في الطلاب المسلمين والمسلمات .

وقد أشار تقرير مطول عن التعليم في الإرساليات الى ان المؤسسات التبشيرية ( إنجلزية وإيرلندية والمانية وسويدية ودنماركية وأمريكية ) متفرقة على وضع التوراة بين أيدي الطلاب على أنها كتاب قديم أساسي وإجبار المسلمين على دخول كنيسة المدرسة مرة كل يوم .

وان العمل يجب ان يتم في مراحله المختلفة :

رياحين الأطفال هامة جداً والمدارس الداخلية تفصل المسلمين عن بيشائهم الإسلامية وتعلم البنات له أثره الكبير . وفي المراحل الأولى يمكن التأثير على عقول الأطفال الغضة .

والتعليم العالي يمكن من الوصول الى الطبقات المثقفة من سيكونون قادة الرأي في البلاد .

وهكذا يستخدم التعليم في تغيير تكوين النفس المسلمة والعقل المسلم وإنفاس مفهوم الإسلام والعروبة والقرآن و محمد وإقامة مفاهيم اخرى تعلو فيها قيم ليست هي قيم المسلمين والعرب ، وهكذا يتخذ التعليم وسيلة الى استبعاد الأفراد والامم ثم سوّقهم الى التسلیم بـل والإعجاب والحب للعدو الدخيل .

يقول هنري جب : إن التعليم في مدارس الإرساليات المسيحية إنما هو واسطة الى غاية، هذه الغاية هي قيادة الناس الى المسيح وتعليمهم حق يصبحوا بفراداً مسيحيين ، وإن المدرسة شرط أساسى لنجاح التبشير ، وإن المدرسة

قوة بجعل الناشئين تحت تأثير التعليم المسيحي أكثر من كل قوة أخرى ، ثم ان هذا التأثير يستمر حتى يشمل أولئك الذين سيصبحون يوماً قادة في وطنهم .

ويقول مستر بنروز رئيس جامعة بيروت : لقد أدى البرهان الى ان التعليم هو أشن وسيلة استغلها المبشرون الأمريكيون في سعيهم لتنصير سوريا ولبنان .

ونشر لدفيك بنهايرد عام ١٩٠٥ مقالاً صور فيه الكلية السورية الانجليزية على أنها محاولة مدروسة لتمهيد الطريق أمام المصالح الأمريكية التجارية منها خاصة .

وقد احتضنت هذه الإرساليات الدعوة الى اللغة العالمية مكتوبة بالمحروف اللاتيني بالإضافة الى الأحلاف .

ويقول جون موت : إن مدارس الإرساليات لها رسالة وغاية قصوى ، هي ان تجعل الشعوب كلها في المستقبل تابعة للغرب وأوربا والكنيسة ، وإن المقصود الأول بالتبشير من طريق التعليم هم المسلمون .

وإنه يتهم عزف الأديان ان يعرض الإسلام عرض عداء وخصوصاً واتهام للرسول والقرآن ، ولا نقف عند هذا ، بل نحاول ان نوقع الخصومة بين المسلمين والمسيحيين في الشرق باثار حديث الحروب الصليبية وموقف كارل مارتن ، وينتهي بالإشارة الى ان قوة الملل تقهقرت أمام راية الصليبيين وانتصار الإنجليل على القرآن .

وأن يشار دائماً الى ان الإرساليات هي سبب النهضة الحديثة .

وقد وجه كثير من خريجي هذه الإرساليات الى ترجمة هذه الكتب المليئة بالأخطاء والأحقاد والشبهات لإذاعتها في عالم الإسلام ووضعها بين أيدي

الطلاب في مدارس الإرساليات والمدارس الأجنبية ثم سمح بها في الجامعات .  
ولطالما أذاعت الصحف أنباء عن كتب صودرت ثم اكتشف أنها كانت بتوصية  
من قابعي معاهد الإرساليات وخرميها .

ويتصل هذا بن توفدهم الإرساليات إلى بلاد الغرب ، وقد أوصى لويس  
ماسنيون على هؤلاء الطلاب حين قال : إن الطلاب الشرقيين الذين يأتون إلى  
فرنسا يجب أن يلونوا بالمدنية المسيحية .

(٦)

في عام ١٩٠٦ عقد المؤتمر التبشيري في بيت احمد عرابي في القاهرة تحدى  
وصلفاً و كان من ابرز قرارات المؤتمر : إنشاء مدرسة جامعة نصرانية تتولى  
كل الكنائس المسيحية الإنفاق عليها لتمكن من مواجهة الأزهر ، وأشارت  
الوصية إلى ما يأتي :

«ربما كانت العزة الإلهية قد دعتنا الى اختيار مصر مرکز عمل لنا  
لنسرع بإنشاء هذا المعهد المسيحي لتنصير الممالك الإسلامية » .

يقول الاستاذ جرجس سلامة في كتابه تاريخ التعليم الأجنبي في مصر :  
« تكونت الجامعة الأمريكية في القاهرة على أساس الاتصال بالإرسالية  
وليس على أساس مستقل ، وذلك أنه لأسباب فنية أدخلت هيئة الإرساليات  
الأجنبية الجامعة الأمريكية بالقاهرة في ميزانية [ Now World Movement  
Budget ] لتمكن من إنجاز المشروع ، وبذلك أخذ مرکز الدراسات  
للتدريب رجال الإرسالية بالجامعة الأمريكية ، وأصبح يسمى ( مدرسة  
الدراسات الشرقية ) حيث كان اثنان من رجال الإرسالية يدرسان بها .

وفي عام ١٩٢٢ رؤي أن تكون الجامعة مستقلة عن الإرسالية وأصبح  
لها كيانها الخاص . وقد تخرج من الجامعة ثلاثة حصلوا على الليسانس عام  
١٩٢٨ والتحقت أول طالبة حصلت على الليسانس ١٩٣١ وبدأ التعليم المختلط  
بالمجامعة » .

وقد أشار التقرير العالمي الذي تقرر بناء عليه إنشاء الجامعة الأمريكية في القاهرة إلى أهمية وجود هذه الجامعة في مواجهة الأزهر الشريف ، كما أشار إلى ذلك جرجس سلامة في كتابه حين قال : إن مجموعة من الرجال الخبراء قد طافوا العالم عام ١٩١٦ للدراسة واستقر رأيهم على أن القاهرة مركز استراتيجي هام لإنشاء هذه الجامعة ، ( ويدرك وطسون لماذا كانت القاهرة مركزاً لهذه الحضارة فيبين كيف أن الأزهر له القيادة الفكرية والاسلامية في العالم العربي ) ، ويقول إن شهادة من الأزهر بين العرب توافي شهادة الدكتوراه في أكسفورد أو باريس أو هارفارد في العالم الغربي ( ثم يقول ) إن القاهرة هي مركز الصحافة العربية ، وإن أكثر من مائة مليون نسخة من الجرائد والجرائد تصدر سنوياً في القاهرة ، وإن مصر هي مركز اللغة العربية الفصحى التي تعد لغة جميع الدول العربية ، وعلى هذا الأساس استقر الرأي على إنشاء الجامعة الأمريكية بالقاهرة .

أما الدكتور وطسون فقد كانت له آراء خطيرة في مواجهة الاسلام ، وله كتاب كان مقرراً في الدراسة على الطلاب المسلمين تحت عنوان :

### ( حروب صليبية مسيحية في مصر )

ويعني بهذه الحروب الحملة التبشيرية ، وقد كتب في صدره :

أهديه لأمي وأبي اللذين قضيا حياتهما مبشرين في مصر .

ومن آرائه الخطيرة قوله : إننا نراقب سير القرآن في المدارس الاسلامية ونجد فيه الخطر الداهم . إن القرآن وتاريخ الاسلام هما الخطران العظيمان اللذان تخشاها سياسة التبشير .

وكانت له دعوته الى هدم القيم الاسلامية في نفوس الطلاب ، وقد سجل له محاولة الى ازدراء المبادئ الاسلامية والمعتقدات والقيم الاخلاقية ، وقد

أشار الى أنها آخذة في الأخلاق والتفكير ، ودعا الأجيال الناشئة الى تجاهلها  
وعدم الاهتمام بها ؛ ولقد كان يصور وجهته وعمله حين قال :

« إن الجيل الناشئ الذي تتصل به نراه مهمـاً كل الاهتمام لا بالاسلام  
ولكن بالمسائل المادية والإلحاد » .

ثم يقول : « ونحن نسر حين نستطيع أن نجعل فتى مسلماً يقبل مبادئ  
المسيحية ونبي المسيح » .

هكذا كانت مشاعر الارساليات واضحة صريحة تصدر في الصحف  
وتقال علنًا .

وقد كشف عنها الطلاب المسلمين مرات ومرات .

في الجامعة الامريكية في بيروت عام ١٩٠٩ عندما اصدرت منشوراً  
ردأً على احتجاج الطلاب المسلمين لاجبارهم على الدخول يومياً الى الكنيسة ،  
قال المنشور :

« إن هذه كلية مسيحية أسست بأموال شعب مسيحي . هم اشتروا  
الأرض وأقاموا الأبنية وهم انشأوا المستشفى وجمزوه ولا يمكن المؤسسة أن  
تستمر إذا لم يسندها هؤلاء . وكل هذا قد فعله هؤلاء ليوجدوا تعليمـاً  
يكون الانجيل من مواده فتعرض منافعه الحقيقة المسيحية على كل تلميذ ،  
وكل طالب يدخل مؤسستنا يجب ان يعرف سابقاً ماذا يطلب منه . إن  
الكلية لم تؤسس للتعليم العلمـاني ولا لبث الاخلاق الحميدة ولكن من أولى  
غاياتها أن تعلم الحقائق الكبرى التي في التوراة ، وأن تكون مرکزاً للنور  
المسيحي وللتأثير المسيحي ، وأن تخرج بذلك على الناس وتوصيهم به » .

ومثل هذا حدث عام ١٩٣٢ عندما وقف ( عبد القادر الحسيني ) بعد  
تخرجه من الجامعة الأمريكية في القاهرة فأعلن أن الطلاب يلزمون بالصلة  
في الكنيسة وتقرر كتابتهم الاسلام ورسوله والقرآن بتهم خطيرة . ولما

تصدى له رجال الجامعة وآخر جوه نشر ذلك في الصحف ( وفي جريدة البلاغ ) التي نقلت صفحات بالزنكوغراف عما تحتويه هذه الكتب المقررة على التلاميذ المسلمين .

وإذا كان المسلمون قد كشفوا أخطار الارساليات والتعلم فيها فإن المسيحيين أيضاً قد تنبهوا لهذا الخطر وفي ما يصوّره جبران خليل جبران مثل واضح لذلك . يقول :

« في سوريا كان التعليم يأتيانا من الغرب بشكل الصدقة ، وقد كنا ولم نزل نلتهم ( خبز الصدقة ) لأننا جميعاً متضورون ولقد أحيانا ذلك الخبز ولما أحيانا أمانتنا ، أحياها لأنه يقظ ( بعض ) مداركنا ونبه عقولنا ( قليلاً ) وأماتنا لأنه فرق كلمتنا وأضعف وحدتنا وقطع روابطنا وأبعد ما بين طوائفنا حق أصبحت بلادنا بمجموعة معسكرات صغيرة مختلفة الأذواق متضاربة المشارب ، كل مستعمرة منها تشد في حبل إحدى الأمم الغربية وترفع لواءها وتترنم بمحاسنها وأمجادها ، فالشاب الذي تناول لقمة العلم من مدرسة أمريكية قد تحول بالطبع إلى معتمد أمريكي ، والشاب الذي يحرع رشة من العلم من مدرسة يسوعية صار سفيراً فرنسيّاً ، والشاب الذي ليس قيقاً من نسج مدرسة روسية أصبح بمثابة روسيّا إلى آخر ما هنالك من المدارس وما تخرجه كل عام من الممثلين والمعتمدين والسفراء وأعظم دليل على ما تقدم اختلاف الآراء وتبان المنازع ، فالذين درسوا بعض العلوم باللغة الإنجليزية يريدون أمريكا أو إنجلترا وصية على بلادهم والذين درسوها بالفرنسية يطلبون فرنسا لتتولى أمرهم . وقد يكون ميلها إلى الأمة التي تتعلم على نفقتها دليلاً على عاطفة الجميل في نفوس الشرقيين ولكن ما هذه العاطفة التي تبني حجرأً في جهة واحدة وتهدم جداراً من الجهة الأخرى ؟ ما هذه العاطفة التي تستنبط زهرة وتقتلع غابة ؟ ما هذه العاطفة التي تخيننا يوماً وتحيتها دهرأً ؟ »

ويصور ميخائيل نعيمة خطط الإرساليات فيقول :

« لقد عرفت سوريا غزاة كثيرين فلم يكن من شئار عليها وهي الضعفية أن ترخص لقوة فوق قوتها ، إلا أنها منذ أواسط القرن الماضي أخذت مهدأً الغزاة ما ألفت من قبلهم غزاة جاؤوا لا ليملكون أجسامها بل ليقبضوا روحها فقد شنوا عليها الفارة بالتوراة والإنجيل والريالات والعقاقير ، فكانوا أشد ضربة عليها من كل ما سبقوهم ، افتتح هؤلاء سوريا باسم الدين ، كان على المبشرين أن يزيّنوا مدنيتهم للسوريين كما لو أنها صفة الكمال فحملوهم على احتقار مدنيتهم واحتقار أنفسهم ، ومن ثم فقد صوروهم لغرباء الذين أرسلوهم في حالة تقارب المموجية فسلمتهم جاهل ونصرانيهم وثنى وكلهم كذبة ضد الديانة » .

وهكذا نجد ان الإرساليات كانت خطراً شديداً في نظر المسلمين والعرب والاسلام والمسيحية على السواء .

وقد صور بعض الباحثين نتائج جهود المبشرين في مدارس الإرساليات فقال : « إن (١) هذه المدارس والمعاهد التبشيرية استطاعت أن تحدث في قلب المجتمع الإسلامي آثاراً خطيرة من حيث توجيهها الأخلاق تلاميذها من المسلمين وكذلك لعاداتهم وتفكيرهم إلى أنواع عديدة منها طابع أجنبي خاص إذا لم تكن روحه نصرانية واضحة فلا ريب أنه تمهد لبث هذه الروح لأن إضعاف الروح الأصلية وتحطيم التعاليم والتقاليد القومية هو دائمًا أول خطوة في سبيل إدخال روح وتعاليم جديدة » .

---

(١) بجمع الرابطة الشرقية - ١٥ يونيو ١٩٢٩ .

(٧)

كشف (شاتليه) عن مهمة الإرساليات في البلاد المحتلة فركز على أنها تستهدف نزع الاعتقادات الإسلامية وتشييد الأفكار الأوربية ، وأنها تعمل على هدم اللغة العربية وجعل اللغات الأوروبية في المقدمة حتى يمكن بث الأفكار التي تتسرب مع سيطرة اللغات الأجنبية .

وإن نظرة إلى الآفاق المختلفة تكشف عن أبعاد هذا الخطر الساري في كل مكان في بلاد الإسلام ، وفي قلب أفريقيا تبدو الصورة شديدة الخطير ، يقول أحمد سيكوتوري :

« لقد تعلمنا نحن المثقفين الأفريقيين في مدارس الاستعمار تاريخ فرنسا وحروب الفال وحياة جان دارك . لقد قدم لنا الاستعمار من العلم والثقافة القدر الذي يرى أنه يخلق منها آلات ترتبط مصالحها بمجلة الاستعمار . لقد أراد المستعمرون للمثقفين الأفريقيين ان يفكروا بديكارت وبرغسون ولم يسمح لهم بالتفكير في قيمهم وثقافتهم وتراثهم الأفريقي . لهذا لا يعرف كثير من شبابنا فلسفة المفكرين الأفريقيين أمثال الحاج عمر بن سعد قال وأحمد ساموري توري » .

● ● ●

وفي السودان يقول الدكتور عون الشريف قاسم :

السودان كثيرون من ثغور العروبة والاسلام في افريقيا يعيش تحدياً له اهميته، فالوثنية لا تزال ضارة في بعض اجزائه وكثير من المسلمين في اسقاعه النائية لا يجدون العناية الالزامية . ونحن في سباق مع الزمن فإن خططيط اعدائنا يضع للسودان مكانة مميزة في استراتيجية كبرى من اجل السيطرة على القارة الافريقية وقد قسموا السودان الى ثلاث مناطق :

(الحزام الشمالي) : وسيكون من الشمال المسلم وخطهم في ذلك ان يشكلوا المسلمين في دينهم والتأثير عليهم عن طريق المدارس والمستشفيات وما اليها .

(حزام الوسط) : حيث تعيش اقليات غير عربية خاصة في جنوب شرق السودان وبعض مناطق الغرب . وال فكرة هنا ان يشروا هذه الاقليات عن طريق النعرات العنصرية وبث ارسالياتهم في جميع هذه المنطقة لتعطيل حركة الوعي الاسلامي من الانتقال من شمال القاهرة الى وسطها وجنوبيها .

(الحزام الجنوبي) وخطهم هذا ان يوقفوا كل تيار عربي إسلامي وفي جنوب السودان اربعة ملايين أغلبهم وثنيون لا دين لهم .

وفي إحصاء رسمي حدّيث ان عدد معاهد اللاهوت التي تعداد المبشرين والقسسين والرهبان في افريقيا الآن ٤٨٩ معمداً وان في افريقيا ٥ ملايين طالب تحت سيطرة الارساليات ورجالها من المبشرين والرهبان .

ويقول الباحث : إن التعليم وهو أخطر وسائل التبشير وأعمقها أثراً هو مهمة الارساليات التبشيرية التي تقوم بدورها في افريقيا أكمل قيام وتنشر اجهزتها الدقيقة ابتداء من دور الحضانة ورياحين الاطفال والمدارس الابتدائية والمتوسطة بالإضافة الى الجامعات والكليات ومعاهد تخریج المبشرين وانتهاء بالمستشفيات وملاجئ الایتمام والمكتوفين والجمعيات الخيرية .

وإن أخطر وسائل التبشير هي دور التعليم حيث يتيح لأعضاء الإرساليات من مدرسين ومدرسات تلقين الناشئة الإسلامية من بنين وبنات تعاليم دين المسيح وتراث فكره وتقاليد حضارته مشوياً ذلك كلياً بصورة من الكيد والدس والتشويه لعقائد الإسلام مثل ما يقال من أن الإسلام دين الوثنية أو أداة في يد الشيطان وإن نبيه الكريم رجل مجهول النسب لأنه محمد (ابن عبد الله) وقد جرت عادة العرب على إطلاق اسم (عبد الله) على كل من لا يعرف له نسب إلى آخر هذه المزاعم والإ باطيل، وما تزال كتبهم ونشراتهم وأبحاثهم تسم عقول الفتية والفتيات الأغوار، وتعمق شقة الخلاف بينهم وبين أهليهم وتحول دون إنساء صلات المودة والإخاء . وهي تهدف جملة إلى طمس كل تصور إسلامي في ذاكرة الشباب وقطع كل صلة متينة لهم بالله سبحانه وتعالى .

وإن ذلك يحيى تحقيقاً لوصايا مؤتمر المبشرين في القدس ١٩٢٤ حين أشار (صموئيل زويير) إلى مهمة الإرساليات التي تستهدف إخراج المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله ، وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها ؛ وبذلك تكون هذه الإرساليات ورجالها « طليعة الفتاح الاستعماري » في المالك الإسلامية .

يقول زويير : لقد قبضنا منذ ثلث القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا على جميع برامج التعليم في المالك الإسلامية ، ونشرنا في تلك الرباع مكامن التبشير والكنائس والجمعيات والمدارس المسيحية الكثيرة التي تهيمن عليها الدول الأوروبية والأمريكية .

وطبقاً لذلك جاء النشء الإسلامي طبقاً لما أراده الاستعمار المسيحي لا يهتم بالمعظائم ويحب الراحة والكسل ولا يعرف في دنياه نهمة إلا الشهوات ؟

فإذا تعلم فالشهوات ، وإذا جمع فالشهوات ، وإذا تبأ أسمى المراكز ففي  
سبيل المال يجود بكل شيء .

• • •

وحين يراجع الباحث كتاب تاريخ الارساليات التبشيرية الذي صدر عام ١٩٦٤ في ٦٠٠ صفحة مؤلفه (ستيفن نيل) وهو مبشر مارس العمل في آسيا عشرين عاماً وحصل على الدكتوراه الفخرية وعين استاذآ للتبشير في كلية اللاهوت بجامعته هامبورج بألمانيا ، عندما تتصفح هذا الكتاب تجد مؤلفه يعترف بالدور الخطير الذي لعبته الارساليات في استعمار العالم الآسيوي الأفريقي ، ويحاول أن يبرر المخازي المعيبة التي اقترفها المبشرون ومنها عمليات إفساد الضمائر وشراء الأطفال .

كما يكشف البحث عن مدى تدخل المبشرين في السودان في الحركات السياسية والانفصالية في الجنوب وتحريضهم لبناء الجنوب من الوثنين على الثورة وقتل ابناء الشمال ، وكذلك في موقفهم من إسرائيل وتعاونهم معها .

كذلك فهم يرون ان انحدار الدولة العثمانية أرخ لنهاية الحكم الإسلامي بالسيطرة على العالم ، وان الحقيقة الكبرى الحديثة في العالم الإسلامي هي وجود إسرائيل ( وهذا وكثير مثله يكشف عن مدى صلة الارساليات وجامعاتها الكبرى بأهداف الصهيونية العالمية ) .

كذلك أشار الباحث الى ما ابتدعته مؤسسات التبشير في السنوات الأخيرة بما اسمته فكرة الحوار التي دعا اليها ( لويس جارديه ) بدليلاً عن فكرة التبشير في بعض المناطق وهي تقوم على أساس ما يراه المبشرون من ان هناك أموراً مشتركة يمكن ان تكون اساساً للحوار بين المسلمين والمسيحيين كوجود الإله والوحي وواجبات الإنسان وذلك مما عمد لقيام مناقشة مفتوحة حرة .

ويشير البحث الى ان الارساليات في جنوب السودان استطاعت تدريب عدد من ابناء الجنوب المتصرين للقيام بأعمال التبشير في خلال ستين عاماً حيث استطاعت الكنيسة الانجليكانية تعليم ٣٢ قسيساً ومبشراً افريقياً ، وقد حلّ هؤلاء محل المبشرين المائة الذين طردتهم حكومة السودان .

● ● ●

ولا ريب ان هذه الواقع الحديثة كلها تعطي نذر الخطر المستمر المتصل وخاصة بالنسبة المستقبل . فإذا راجعنا موقف الارساليات في السنوات الاخيرة في اندونيسيا وجدنا ان تحدينا خطيراً يقع هناك ، كذلك بالنسبة لدولة صغيرة كالأردن ، وقد أشار الاستاذ يوسف العظم الى هذه الظاهرة بالنسبة لبلد صغير كالأردن توجد فيه مائتا مدرسة من مدارس الارساليات وتلتقي في هدف واحد وعنده غاية مشتركة » ان تخريج الجيل الجديد الذي لا يحترم عقيدته ولا يؤمن بتراوئه او يحس بوجوده ، وإذا علمنا ان عدد سكان الأردن لم يبلغ المليونين بعد أدركنا أيّ اثر يتركه هذا الحشد من القلاع الفكرية التي يخبط لها فتنفذ اشنع جريمة ضحيتها جيل بريء غافل ، ومن هذه المدارس : الفريير والتراستطا والمطران والسلكية الأهلية وهانوميارات بوزباستيان والارمن الأرثوذكس والсалزيان وراهبات الوردية ، وراهبات صهيون والبيilar والاذفنتست الخ .. الخ .

كذلك فإن اندونيسيا في السنوات الاخيرة تعرضت لهملات تبشيرية ضخمة قوامها مدارس الارساليات . وتشير التقارير الى ان حملة التنصير اليوم أشد وأقوى في اندونيسيا مما كانت عليه أيام الحكم الهولندي .

وتشير التقارير الى ان الفاتيكان قد عين كاردينالاً و ٢١ اسقفاً للابقاء على حرفة الارساليات التبشيرية ونشاطها وقد استطاعت الكنيسة الكاثوليكية

ان تشن حملة مدعومة بقوى هائلة من السند والعون الماديين في البلدان الغربية  
تستمر عشر سنوات كاملة على النحو الذي فصله كتاب ( واجبنا في اندونيسيا  
اليوم ) الذي صدر يحمل مخططات الفزو الموجه الى اندونيسيا عن طريق  
الإرساليات .

وتقدير الاستاذ علال الفاسي : ان هذا النشاط لا يقتصر على اندونيسيا  
وحدها وإنما هو جزء من خطة تشمل العالم الاسلامي كله .

(٨)

وقد سجلت الصحافة العربية الدور الذي تقوم به الارساليات على أنه مشروع مرتبط بالنفوذ الأجنبي ، ففي مقال نشرته جريدة المقطم في ( ١ - مارس ١٩٢٤ ) تحت عنوان (المدارس الأجنبية في الشرق) يتكشف للباحث مدى الخطأ الكامن وراء الارساليات واعمالها يقول :

المدارس الأجنبية المسيرة في أقطار الشرق الأدنى والمنبسطة في مدنه وقراءه يد كبيرة على النهضة الشرقية الحاضرة لا ينكرها منصف ولا يحتجد فضلها جاحد ، وغنى عن البيان ان كلية المدارس الأجنبية تشمل جميع المدارس والمعاهد العلمية التي أنشأتها في ربع الشرق الأدنى الجماعات الدينية أو بعثات التبشير أو حكومات أجنبية أو شركات أخرى بقصد الربح .

هذه المدارس صبغات وجنسيات مختلفة منها الفرنسي والأمريكي والإنجليزي والإيطالي والألماني والروسي ، وبين المدارس الفرنسية ما هو ديني وما هو علماني ، ولئن كانت خدمة العلم ونشر التهذيب هي المخور الذي تدور عليه أعمال المدارس كلها والغاية التي تنشرها فإن لكل بعثة منها غرضاً خاصاً ينطوي عليه برامجها وتسير نحوه وهو نشر لغة قومها بين ظهري الشقيقين وتلقينهم تاريخها وسير أبوطاحها وتحبيبها اليهم بقدر الامكان ، وربما كان بينها من يعمل عمداً وبغير عمد لتنفيذ الشرقيين من لفتهم وقاربهم وطبعهم بطبع الأمة التي تمت إليها المدرسة بصلة النسب .

وقد كانت البعثات الفرنسية أكثرهذه البعثات نشاطاً وحركة، فكثرت مدارسها وازدادت معاهدها زيادة تستوقف الأنذار ولا سيما في سوريا ولبنان والقطر المصري فلا تكاد تخلو مدينة أو بندر من مدرسة أو مدرستين لهذه البعثات التي وقفت نفسها بشهادة جميع العارفين على خدمة النفوذ الفرنسي ونشر الآداب واللغة الفرنسية .

وهناك من يعتقد ان الاحتلال الفرنسي الحاضر لسوريا ولبنان هو نتيجة من نتائج عمل البعثات إذ توسل الفرنسيون لصيانته مصالحهم في سوريا ولبنان بهذا الاحتلال بالمعنى الصحيح . ونظن ان هذه المصالح لا تتعدى دائرة هذه المدارس التي تعد بالبعثات علاوة على ما أعددته هذه المدارس من الأنصار لفرنسا من خريجيها وتلاميذها السابقين وذوي قرباه . ولليسوعيين ايضاً مدارس عديدة في منطقة كيكيلية التركية ولهن مدارس في الاستانة وضاحيتها وفي إزمير وغيرها من المدن التركية ، وقد نافس الأمريكيون الفرنسيين في لبنان وسوريا في اواسط القرن الماضي منافسة مثيرة ، وإذا كان الأمريكيان قد نافسوا اليسوعيين فبزورهم في لبنان وتفوقوا عليهم بذلك الصرح العلمي (جامعة بيروت) الذي أخرج للشرق العربي طائفة من علمائه وزعماء نهضته فإن رجال البعثات الفرنسية عملوا بنشاط في مصر والأضصول والاستانة نفسها حيث المزاحة شديدة .

ونشط الإيطاليون في السنين الأخيرة لإنشاء المدارس في معظم أنحاء تركيا وهم يرمون بذلك الى نشر لغتهم وتقديم آدابهم ومزاحة البعثات الفرنسية . وبين الفرنسيين والإيطاليين من التنافس على سواحل البحر الأبيض لأن كلًا منها تطمع في للسيادة عليه .

وكانت هذه المدارس تستخدم أدوار الضعف التي تتعرض لها الامبراطورية العثمانية وسيلة لتوطيد نفوذها وتوسيع دائرة اختصاصها » .

وهذا في مجموعه اعتراف كامل بالدور السياسي الخطير الذي قامت و تقوم به الارساليات .

وقد أشار كتاب الغارة على العالم الاسلامي الذي ألفه شاتليه و مجموعه من المبشرين بأن الفرصة الكبرى التي أتيحت للارساليات إنما جاءت بعد سقوط السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٨ حيث أمكن منذ ذلك الوقت تفسيخ الدولة العثمانية و توسيع بعثات التبشير على النحو الذي حقق تنفيذ منهاج التعليم على النحو الذي رسمته خططات الفزو حيث يسجل الدكتور زويير زعيم المبشرين وكثيرهم في الشرق في هذه المرحلة ما يأتي :

إن السياسة الاستعمارية لما قضت منذ نصف قرن - أي منذ عام ١٨٨٢ - تقريباً على برامج التعليم في المدارس الابتدائية أخرجت منها القرآن ثم تاريخ الإسلام ؟ وبذلك أخرجت ناشئة لا هي مسلمة ولا هي مسيحية ولا هي يهودية . ناشئة مضطربة مادياً الأغراض ، لا تؤمن بعقيدة ولا تعرف حقاً ، فلا للدين كرامة ولا للوطن حرمة .

ومن ذلك قوله الذي صار حكمة ومنطلقاً للعمل التبشيري كله في معاهد الارساليات وعلى ضوئه يمكن النظر بوضوح الى المناهج والأهداف والاتجاهات يقول : «إن مهمة التبشير الذي ندبتم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية وإنما مهمتكم أن تخرجوها المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة لا بالله وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الامم في حياتها » .

وليس بهذه الوثائق صراحة ولا وضوح في الكشف عن غاية الارساليات وأهدافها .

(٩)

والآن نستطيع ان نتساءل ما هو الهدف الحقيقي للارساليات التعليمية في العالم الاسلامي ؟

وأن نجيب بأن الهدف في الحقيقة هو السيطرة على الجيل المسلم الجديد من مطالعه لاعداده على النحو الذي يكفل له عندما يصبح في مقام العمل السياسي والاجتماعي والثقافي في وطنه ان يكون صاحب ولاء فطري وثقافي قوامه الحب والاعجاب والتقدير للذين علموه ونشأوا .

ومن هنا اهتمت الدول المستعمرة خلال فترة ما بين الحربين بتنقييف أبناء العظاء وكتاب رجال السياسة ونقلهم الى المعاهد الاجنبية ، وذلك خلق هذه الطبقة واعدادها . وقد كان إغراؤهم عجيباً لكثير من أصحاب المراكز العالمية حتى بعض كتاب المسؤولين في مجال الاسلام على تعلم ابنائهم في معاهدهم وقد أشارت تقاريرهم الى ذلك بما أسمته :

« نزوع أهل الطبقة الراقية الى المدارس الاجنبية » .

وقد أكد المراقبون النتائج الخطيرة التي حققها تعلم المسلمين في الارساليات من تقويب المسافة بين الاستعمار وأهل الأوطان الاسلامية وما حقيقة من حل كثير من القضايا الجوهرية بما يوافق رغبات المستعمرین . وأهم هذه القضايا

المسألة الشرقية وقيام إسرائيل في قلب الوطن العربي ، وليس أدلّ على أهمية ذلك من أن الذين حملوا لواء التشمير بالدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد وعملوا على تزويق الرابطة بين العرب والترك وتمكين الدول الأوروبية من تقسيم القناعة فيما بينهم كانوا من الذين تعلموا في معاهد الارساليات التبشيرية وهؤلاء الذين خدموا النفوذ الاجنبي في مصر وكأنوا مخلصين لكرور وغيرة من قادة الاستعمار وأصحاب الصحف ومحرروها كانوا جميعاً من خريجي معاهد الارساليات وخاصة في بيروت ومنهم من دعا عام ١٩٣٥ إلى إنشاء دولة يهودية في فلسطين ودولة مسيحية في لبنان ، ومنهم من أعادوا الدعوة عام ١٩٤٥ إلى أن يكون لبنان وطناً قومياً للنصارى في الشرق الأدنى ومنهم حملة لواء الدعوة إلى العاممية والخروف اللاتينية وهم قادة كل الدعوات التي عملت وت تعمل على تعزيز الأقلية وبث روح الشعوبية وتعزيز وحدة العرب والمسلمين الفكرية وإيقاع الخلاف بين العرب وبين العرب والمسلمين .

وتراجع خطورة مدارس الارساليات التبشيرية الى أنها لا تدرس الاسلام ولا اللغة العربية كلية ولكنها تدرس اللغات الأجنبية المختلفة والثقافة المسيحية المستمدّة من التوراة والانجيل في أبواب الأخلاق ، وببعضها علماني محض ينظر إلى الأخلاق والأديان والعروبة والاسلام والتاريخ الاسلامي نظرة تشكيكية وازدراء ويتناوله تناول النقد المشوب بروح الازدراء .

وقد راجع كثير من الباحثين أخطار الارساليات على الشباب المسلم فأشاروا الى ان أول هم المبشر هو هدم الاعتقاد في تلميذه فيصبح الطالب مستخفًا بالمعتقدات ، أما الخطوة الثانية فهي محاولة غرس تعاليم جديدة في ارض لم تعم صالحة للاعتقاد ، وذلك يؤدي الى أخطر النتائج ، وهو حض الطلبة على النفاق والمراءة .

وقد أشار الدكتور عمر فروخ الى ان هذه المُسلّمات تدرس في معاهد

الا رسالات منها ان نصارى لبنان هم الذين بعثوا النهضة العربية الحديثة ،  
وهو غير صحيح وان الفلسفة العربية ليست إلا الفلسفة اليونانية مكتوبة  
بمحروف عربية ، وهو من أقوال المتعصبين أمثال رينان . ذلك ان هناك  
فلسفة عربية إسلامية تختلف عن الفلسفة اليونانية والغربية جملة .

وما قاله عمر فروخ ان مثل هذا السؤال عندما يوجه في الامتحانات  
العامة للتلميذ المسلم يكون الاجابة عليه علامة ودليلًا على مدى استسلام  
الطالب للأهداف ، فإذا انتصر للفلسفة العربية انتصاراً ظاهراً فإنه سوف  
يمحرب حظه في دورة تالية ، أي أنه لا يعطى درجة تمكنه من النجاح .

## الفَصْلُ الثَّانِي

### التعليم الوطني

إذا كانت صورة التعليم في معاهد الارساليات قد كشفت عن هذه المخاذير الخطيرة فإن التعليم الوطني في البلاد المستعمرة قد من بتجربة أشد خطورة وأبعد أثراً في هدم شخصية الطالب المسلم وتدميره وجعله أداة طيعة للنفوذ الغربي ، وموالياً مستسلماً للأجنبي المحتل . ولا ريب ان التعليم الوطني قد جاء صورة من التبعية والولاء في برامجه وأعماله واتجاهاته لما خططه الاستعمار في معاهد الارساليات التي سبقت الاحتلال وتمرسه سنوات طويلة بالعمل قبل السيطرة الثقافية التي فرضها النفوذ الاستعماري .

ففي مصر منذ عام ١٨٤٤ بدأت الارساليات ممهدة للاحتلال الذي وقع عام ١٨٨٢ حيث كانت تجربة ستين عاماً كفيلة بأن تمد النظم التعليمية التي وضعها المحتل خبرة في العمل وبمجموعة كافية من المناهج والدراسات التطبيقية.

والأمر كذلك بالنسبة للاحتلال الفرنسي لسوريا ولبنان والجزائر وتونس والمغرب وبالنسبة للاحتلال الغربي بصفة عامة ، وفيما يتعلق بتركيا فقد سبقت

معاهد الارساليات في العمل جميع المخططات التي فرضتها حكومة الاتحاديين بعد عام ١٩٠٨ وما رسمته حكومة الجمهورية التركية بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى .

وقد أكد دكتور زوير رئيس المبشرين في البلاد العربية في الثلاثينيات ما هدفت اليه السياسة الاستعمارية وما حققته حين أعملن تصريحه الذي قال فيه :

« إن السياسة الاستعمارية لما قبضت من نصف قرن على برامج التعليم في المدارس الابتدائية أخرجت منها القرآن ثم تاريخ الإسلام وبذلك أخرجت ناشئة لا هي مسلمة ولا هي مسيحية ولا يهودية . ناشئة مضطربة مادية الأغراض لا تؤمن بعقيدة ولا تعرف حقاً فلا للدين كرامة ولا للوطن حرمة » .

وأكد هامليون جب هدف خطة التعليم في المدارس الوطنية واعتذر عما وصلت اليه من نتائج خطيرة حين قال :

نفذت خطة إلغاء التعليم العلماني بإشراف الإنجليز في مصر والهند ، ولعل هناك بصيراً من الحق في التهمة التي ترمي بها هذه المدارس من أنها مفسدة لقومية التلاميذ ، والذي فعلته لا ريب فيه أنها ربت في التلاميذ خروجاً على الأنظمة الاجتماعية وعلى السياسة إلى حد ما في أوطانهم الأصلية بغضاعها من هذه الوجوه لسلطان النزعة الإسلامية القديمة على التلاميذ وأدخلت في بناء المجتمع الإسلامي آراء هدمته وقطعت بعض الأواصر التي كانت تحفظ تمسكه » .

ولم يكن مثل هؤلاء يصرحون بما صرحو به إلا بعد ان تم تنفيذ الخطة وآتت ثمارها ، هذه الخطة ذات الشقين المتالدين : مدارس الارساليات ترسم الطريق والمناهج ثم يحيي الاستعمار فيفرض هذه المناهج على المدارس الوطنية مع تغييرات طفيفة .

يقول ليوبولد فابس ( محمد أسد : المستشرق المسلم ) :

إن الإيمان والإلحاد في الأغلب ينتقلان إلى الإنسان من بيئته الثقافية .

إن النشأة الغربية لأحداث المسلمين ستفضي حتماً إلى زعزعة إرادتهم .  
يجب علينا أن لا نتردد في درس العلوم الرياضية والطبيعية حسب الأسس الغربية ، ولكن يجب أن لا نتنازل للفلسفة الغربية عن أي دور من أدوار تنشئة أحداث المسلمين ، ولا ريب في أن بعضهم قد يستطيع ان يقول إنه من الصعب في كثير من الأحيان ان نجمل فاصلاً بين العلم التجريبي والفلسفة النظرية ، وذلك حق ولكن من الناحية الثانية : تلك هي النقطة التي يجب على الثقافة الإسلامية ان تثبت نفوذها عندها ، وسيكون من واجب علماء المسلمين ومن الفرسان السانحة لهم ايضاً إذا وصلوا الى حدود البحث العلمي ، ان يستخدموا نظرهم العلمي مستقلين فيه عن النظريات الفلسفية الغربية ، وانهم من طريق اتجاههم العقلي الخاص الإسلامي قد يصلون على الأرجح الى نتائج في المقولات تختلف كل الاختلاف عن تلك التي وصل اليها العلماء الغربيون المحدثون .

ثم قال : إن تعلم الأدب الوري على الشكل الذي يسود اليوم الكثير من المؤسسات الإسلامية يقود الى جعل الإسلام غريباً في عيون الناشئة المسلمة ومثل هذا - ولكن الى حد بعيد - يصدق على التعامل الوري للتاريخ العام إذ لا يزال الموقف القديم « رومانيون وبرابرة » يظهر بجلاء ، ثم إن براهينهم تقوم على الزعم ايضاً بأن قطور العالم لا يمكن ان ينظر إلا على أساس تجارب الثقافة الوربة .

ويشير الكاتب الى ان المدارس الرسمية كالمدارس التبشيرية لا تعنى بتدریس الدين الإسلامي للناشئة بل تتركه حرّاً فينشأ المتعلمون كارهين لدينهم أو غير مهنيين لتقبل التعاليم الدينية مطلقاً بحسب تربيتهم .

(٢)

عندما سيطر الاحتلال في مصر ١٨٨٢ كانت هناك مدارس الارساليات وكان هناك التعليم الوطني الحر القائم على مناهج عربية إسلامية شاملة . فكانت خطة الاحتلال مزدوجة ، قوامها القضاء على التعليم الوطني وخلق تعليم بديل له يستمد مناهجه من نظم مدارس الارساليات ، ودفع مدارس الارساليات الى استيعاب أبناء الطبقة الراقية . ولم تمض سنوات قليلة حتى اختفت معالم التعليم الوطني الأصيل وحلت بدلاً منه نظم معاهد الارساليات ، وفي نفس الوقت توسع التعليم في مدارس الارساليات وتضاعف وفتحت له الأبواب على نحو أكثر قوة وأشد عمقاً مما كان في أيام سعيد وإسماعيل .

ويعد تقرير اللورد دوفريين هو نقطة البدء في هذا التحول الخطير وقد وصفه بعض الساسة الاجانب وصفاً صحيحاً حين قال : إن تقرير اللورد دوفريين عن التعليم يرمي الى ان يكون المصريون أحسن الاصدقاء والنصحاء لبريطانيا والغرب دون ان تفرضوا عليهم آرائهم أو تجعلوهم تحت وصاية تستثير حفاظهم .

وقد أشار تقرير اللورد دوفريين الى حالة التعليم القائمة في مصر وفي مقدمتها الأزهر الشريف : وقد وصفه بأنه مدرسة جامعة يدرس فيها علم الكلام والفقه والنحو والمنطق وأداب اللغة العربية وبه من الطلبة نحو ٨

آلاف طالب على ثلاثة أستاذ .

أما مدارس الحكومة فقد وصفها بأنها مدارس بسيطة عددها ٥٣٧٠ تتحتوي على ١٣٧٥٥٣ طالباً وتعلم فيها القراءة وحفظ القرآن غالباً .

ومدارس أولية عالية ويوجد بها نحو ٢٧ تتحتوي على ٤٦٦٤ طالباً(وال الأولى هي المدارس المخانية والأخيرة هي المدارس ذات المعرفات) وقال إنها تعلم القرآن الشريف ولللغة العربية وعلم الحساب ومبادئ الجغرافيا والتاريخ ومبادئ لغة أجنبية ويترقى الطالب في هذه المدارس إلى المدرسة العليا التجهيزية في القاهرة ومن هذه يتدرج إلى مدرسة الصنائع والفنون ، وأشار إلى المدرسة العليا وقال إنها تحوي ٢٩٢ طالباً .

أما مدارس الصنائع والفنون : ف منها الطب ١٧٦ طالباً وسائر الفنون ٥٠ طالباً والمساحة ٣٩ طالباً والفنون والصنائع ٥١ طالباً والشرع ٣٧ طالباً ومدرسة اللغات ٢٣ طالباً ومدرسة الأساتذة ٦٠ طالباً والفعلة ٧٩ طالباً ومدرسة العميان والخرس ٧٥ طالباً والبنات ٣٠٠ طالبة والمدرسة العسكرية .

وأشار إلى أنه يوجد في أوروبا ٤٩ شاباً مصرياً مرسلاً .

وأشار إلى المدارس التي انشأها المرسلون الأجانب ونحوهم ويبلغ عددها ١٥٣ مدرسة تحتوي ١٣٣٤٧ طالباً منهم ٥٣ في المائة من المصريين .

وأشار التقرير إلى أن طريقة التعليم في الجامع الأزهر جافة ودورسها في العقيدة عقيمة لا تثمر فائدة ولا نتاجاً .

وأشار دوفرين في توصياته إلى ما يلي :

« أخال أن أعمل التقدم ضعيف طالما أن العامة تتعلم اللغة الفصيحة العربية لغة القرآن كما في الوقت الحاضر حالة كونها لا تتعلم اللغة العربية الدارجة لأن نسبة اللغة المصرية الدارجة إلى لغة القرآن كنسبة الإيطالياني إلى اللاتيني

والاغريقي القديم ، وعربية الفلاح لغة قائمة بنفسها وقواعدها خاصة بها ، وإذا لم توجد هذه الاحتياطات الضرورية للحصول على النتائج الفعلية في المدارس العديدة التمهيدية التي اشرت اليها يستمر الجيل الجديد كسابقه غير صالح لخدمة وطنه سواء كان للقيادة العسكرية أو في الصنائع أو في الخدمات ، وتظل عبارة مصر للمصريين كما كانت اسمًا بلا مسمى » <sup>(١)</sup> .

وهكذا وضع دوفرين الجرس في رأس القط . وجاء كرومر ودنلوب منفذين إقصاء القرآن واللغة العربية ، وهذا ما أشار إليه « زوير » وكشف عن أنه لم يلبث أن تتحقق ، وفرغت مناهج التعليم من أقوى دعائم بناء أبناء المسلمين وأقصي الأزهر مرة أخرى بعد أن أقصاه محمد علي بإنشاء وزارة المعارف .

وقد دفع هذه الحقيقة كل من أرخ لمصر وهي لم تقت اللورد لويد في كتابه ( مصر منذ أيام كرومر ) حيث قال :

إن التعليم الوطني عندما قدم الإنجليز كان في قبضة الجامعة الأزهرية الشديدة التمسك بالدين والتي كانت أساليبها الجافة تقف حاجزاً في طريق أي إصلاح تعليمي ، وكان الطلبة الذين يتخرجون من هذه الجامعة يحملون معمهم قدرأً كبيراً من غرور التعصب الديني . فلو أن تطوير الأزهر لكان بهذه خطوة جليلة الخطأ فليس من العسير ان يتصور لنا أي تقدم طالما ظل الأزهر متمسكاً بأساليبه هذه ولكن إذا بدا ان مثل هذه الخطوة غير متيسر تحقيقها فعندها يصبح الأمل محصوراً في إيجاد التعليم اللاديني الذي ينافس الأزهر حتى يباح له الانتشار والنجاح » .

ونحن نعرف ان مناهج الأزهر كانت جامدة ولكنها لم تكون بالصورة التي

تعمارض بناء المسلمين على أساس من قوة العقيدة وسلامة العقل ، ولكن الاستعمار لم يكن يريد بقاء مثل هذه الشخصية القادرة على مقاومته ومعارضته ، فلا بد من تحطيم وجودها بالتعليم اللاديني . كذلك فإن الدعوة إلى تطوير الازهر كانت خطوة أخرى على الطريق جاءت نتائجها من بعد حين أذعنوا الأمة لطلب الانجليز ومزقت الازهر إلى تحصصات ثم دمرت أسلوبه العلمي القديم ، فلم يعدمن شيء يستطيع أن يقف أمام شبهات الاستشراق ومخالفاته دعاء التغريب .

( ٣ )

ويستطيع هذا النموذج الحي أن يعطينا صورة التعليم الوطني في مصر وكيف تطور بعد الاحتلال تنفيذاً لخطة دوفرين ومنهج كروم وأسلوب دنلوب بما يحقق هدف الاستهمار من تخريب العقول والآفوس .

يقول الاستاذ محمد لطفي جمعة :

إننا تعلمنا في المدرسة الثانوية ( وكانت الخديوية التجاهيزية بتدريب الجماميز ) في أوائل هذا القرن ( ١٩٠١ - ١٩٠٢ ) وكان استاذنا في التاريخ المستر هيل وبعلمنا باللغة الانجليزية أن اثنين من رجال أوروبا أنقذا المدينة الغربية من السقوط على أيدي البرابرة المتوجهين : أولهما تسمى كليس اليوناني الذي هزم قورش أو ( زاجزيز ) الفارسي في موقعة سلاميس الشهيرة والرجل الثاني ( شارل مارتل ) الذي هزم العرب في موقعة بواتيه : الأولى حصلت في ٤٨٠ قبل المسيح والثانية حصلت ٧٣٢ بعد المسيح أي أن بينها ألف ومائتين واثنتي عشرة سنة ، وقد كتبنا هذا بأنفسنا وبأيدينا بإملاه استاذنا الانجليزي ، الذي مثل لنا أمم العرب التي أنجبت مئات الألوف من رجال العلوم والفنون والأداب والذين علموا أوروبا وهذبوا ، في وحشية وقسوة تعادل وحشية الفرس الوثنيين قبل الميلاد بخمسة قرون فصدقنا هذا وآمنا به وتعلمناه وحفظناه وأدينا فيه امتحانات عشرة .

ثم قال الكاتب في موضع آخر :

إن دنلوب العظيم العبقري أعظم من أنجبيته الجملتا لقتل مصر والشرق

تمكن في عشرين عاماً من تخريب العقول والذفوس والضيائـر والعواطف مما لو جندت بريطانيا مليون جندي على مصر فإنـا لما دخلنا المدارس التحضيرية في أوائل هذا القرن وجدنا أستاذـة التاريخ من الانجليـز أمـثال مـستر هـيل ومـستر فـرنـسـكـروـفت فأـخذـوا يـملـون عـلـيـنـا مـقـطـعـات بالـإنـجـليـزـية عن تاريخ الـدـوـلـةـ الـرـوـمـانـيـةـ والـقـرـونـ الـوـسـطـىـ وـحـرـوبـ الـأـدـيـانـ وـالـنزـاعـ بـيـنـ السـكـاثـولـيـكـ وـالـبـرـوـتـسـتـانـتـ وـسـلـطـةـ الـبـابـاـ وـفـرـدـيـكـ الـأـكـبـرـ وـكـاتـرـينـ الـعـظـمـيـ ، كلـ ذـلـكـ في فـصـولـ مـخـتـصـرـةـ مـخـتـلـلـةـ سـقـيمـةـ الـأـسـلـوبـ عـقـيمـةـ الـعـنـيـ . وـكـانـ اـمـتـحـانـاـ يـدـورـ حـوـلـ هـذـهـ مـسـائـلـ ، وـلـمـ نـعـطـ كـتـابـاـ مـلـماـ يـهـنـهـ الـمـوـضـوعـاتـ لـاـ جـيدـاـ وـلـاـ رـديـئـاـ أـمـاـ تـارـيـخـ الـشـرـقـ وـالـعـرـبـ وـمـصـرـ فـلـمـ نـأـخـذـ مـنـهـ كـلـمـةـ وـاحـدـةـ إـلـاـ سـطـرـاـ وـاحـدـاـ كـأنـاـ نـشـأـنـاـ مـنـ الـعـدـمـ وـإـلـىـ الـعـدـمـ نـعـودـ ، وـدـائـماـ إـذـ ذـكـرـ الـشـرـقـ كـانـ يـذـكـرـ فـيـ بـجـالـ الـانـخـطـاطـ وـالـسـقـوطـ وـالـفـشـلـ وـالـحـرـوبـ الـقـيـ فـازـ عـلـيـهـ الـغـربـ فـيهـاـ مـثـلـ صـدـ الـيـوـنـانـ لـلـفـرـسـ وـالـفـرـنـسـيـنـ لـلـعـرـبـ وـالـنـمـسـوـيـنـ لـلـسـتـرـكـ وـسـقـوطـ الـعـرـبـ فـيـ الـأـنـدـلـسـ وـالـخـلـالـ الـدـوـلـةـ الـعـثـانـيـةـ بـعـدـ تـفـلـبـ روـسـياـ عـلـيـهـاـ .

أـمـاـ مـصـرـ الـقـدـيـةـ وـمـجـدـهـاـ وـحـضـارـتـهاـ فـدـاخـلـةـ فـيـ مـنـطـقـةـ الـصـمـتـ وـكـذـلـكـ الـحـرـوبـ الـصـلـيـيـةـ لـمـ يـعـرـفـ مـنـهـاـ إـلـاـ مـاـ كـانـ مـاسـاـ بـقـمـرـنـاـ .  
وـإـنـ الـانـصـافـ يـحـدـوـنـيـ أـنـ ذـكـرـ رـجـلـاـ وـاحـدـاـ هـوـ مـسـترـ جـوـنـزـ مـنـ بـلـادـ وـيـلـسـ عـيـنـ اـسـتـاذـاـ لـلـتـارـيـخـ (ـ١٩٠٤ـ -ـ ١٩٠٥ـ)ـ فـيـ الـمـدـرـسـةـ الـخـدـيـوـيـةـ بـدـرـبـ الـجـامـيـزـ ، وـكـانـ لـهـ اـسـلـوبـ وـفـكـرـ وـضـمـيرـ ، وـأـمـلـىـ عـلـيـنـاـ بـضـعـةـ دـرـوـسـ فـيـ تـارـيـخـ مـصـرـ وـالـعـرـبـ فـعـلـ فـيـ آـخـرـ الـعـامـ الـدـرـاـسـيـ وـلـمـ يـعـدـ إـلـىـ وـادـيـ النـيـلـ .

وـهـذـهـ الـخـطـةـ الـقـيـ أـرـادـ الـانـجـليـزـ أـنـ يـحـرـمـونـاـ بـهـاـ مـنـ ضـمـائـرـنـاـ وـيـسـرـقـوـاـ وـجـدـانـنـاـ الـقـومـيـ وـيـقـطـعـوـاـ الـحـلـقـةـ الـقـيـ تـرـبـطـنـاـ بـالـمـاضـيـ هـيـ نـفـسـمـاـ الـخـطـةـ الـقـيـ اـتـبعـوـهـاـ وـنـفـذـوـهـاـ فـيـ الـهـنـدـ ، وـهـيـ نـفـسـهـاـ الـقـيـ اـقـبـعـتـهـاـ وـنـفـذـتـهـاـ فـرـنـسـاـ فـيـ تـونـسـ وـالـجـازـائـرـ وـمـرـاكـشـ ، وـهـيـ الـقـيـ يـتـبعـهـاـ كـلـ مـسـتـعـمـرـ وـكـلـ مـتـغـلـبـ وـفـاتـحـ (١)ـ .

(١) الـبـلـاغـ الـأـسـبـوـعـيـ ٢٧/٢/١٩٣٢ـ .

تلك هي صورة التخطيط الذي رسمه الاحتلال في مصر وطبقه الاستعمار في مختلف أجزاء العالم الإسلامي. وكان كرومر هو الرائد الذي سار عليه كل من جاء بعده ، فالمارشال ليفي والكردينا لافيجيري في المغرب هما كرومر ودنلوب في مصر تماماً .

جاء كرومر الى مصر بعد الاحتلال بعام أو عامين ١٨٨٤ تقريباً ، وعين دنلوب سكرتيراً عاماً لوزارة المعارف عام ١٨٩٧ ثم مستشاراً عاماً لها عام ١٩٠٦ وكان في أول أمره قسًا مبشرًا عمل في وظيفة مدرس للغة الإنجليزية والخط الأفرينجي في مدرسة رأس التين الثانوية ثم لفت نظر كرومر فدفعه الى العمل في فظارة المعارف وما زال يتلقى حتى أصبح مسيطرًا سليمة كاملة على شؤون التربية والتعليم .

ويعد ( دنلوب ) واضع الخطط الأساسي لتغيير التعليم والتربية وإقصاء الإسلام وتاريخه واللغة العربية عن برامج التعليم في المدرسة المصرية ، وهو أيضاً منفذ هذا الخطط والشرف عليه سنوات طويلة حتى بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى . وقد عمل دنلوب على محاربة اللغة العربية والإسلام والازهر واضطهاد معلمي القرآن واللغة العربية من الأزهريين ونشر لواء اللغة الإنجليزية وأهلها للسيطرة الكلامية على كل شؤون التعليم وقضى على نفوذ اللغة العربية .

كما أنشأ جيشاً ضخماً من الإنجليز حملة الشهادات الأهلية للعمل بالمدارس المصرية وفق خطة ماكرة خلق شعور عام بكراهية تاريخ المسلمين ولغتهم وإثارة الشكوك حولها وطعن روح الوطنية في الشباب المصري والقضاء على جماسهم ، وقد داسوا على كل عاطفة وطنية واضطهدوا كل شاب ظهر ميلاً أو عاطفة نحو دين او وطن ، وأنشأوا نظاماً للتجسس في المدارس يطاردون به الشباب الوطني، وحرموا على كل مدرس مصري ان يتحدث عن تاريخ مصر او تاريخ العرب او تاريخ الإسلام بما يبرز عظمة أمتنا ، وكان ألم ما يقال

إن مصر بلد زراعي ، وإنها ظلت محتلة طوال تاريخها بالفرس والرومان والأراك ، وإنها لن تحكم نفسها أبداً ، وإن جيشه قد هزم في التل الكبير ، وإن الجنود المصريين ذبحوا ليلة ١٤ سبتمبر ١٨٨٢ التي كانت قرية ذبح الخراف وكان محروماً على أي طالب مصرى أن يقرأ جريدة وطنية .

وقد قاوم كرومرو وذنوب نشر التعليم العالى في مصر وسجل ذلك كرومرو في تقريره حين قال عام ١٩٠٧ :

إن الجلالة لا ترى نشر التعليم العالى في مصر وإنها لا ترى إلا إعداد جهور من طبقة الأفندية ليشغلوا الوظائف الثانوية في الحكومة ، وإن المصريين لا يصلحون للعلوم العالية ، وإن زيادة التعليم تصرف عن فلاح الأرض وتعمد على مصر بالإفلاس .

وقد حرص ذنوب بتوجيهه كرومرو وبريطانيا على تنفيذ خطة واضحة المعالم للعمل على وقف انتشار التعليم أو ترقيته وسبيلهم إلى ذلك تقليل اهتمامات المعارف وصرف الغلب المبالغ على بناء القصور المشيدة واقتضاء الآثار الفاخرة للمدارس ، وكان ذنوب يعمل على قلب المدارس الابتدائية إلى أولية راقية اكتفاء بالمدارس الأميرية في كل مديرية كما شجع انتشار المدارس الأجنبية وفق غايات سياسية تسير في نفس الاتجاه الاستعماري وهو تحطيم كيان الأمة وإفساد معنوتها .

وحرص ذنوب على معاملة الطلبة الوطنيين بمنتهى القسوة فعدل عام ١٩١٠ المادتين ٨٨ و ١٠٠ من قانون نظام المدارس بفرض عقوبات على التلاميذ وفصل كل تلميذ لا يحصل على ٢٠ درجة في السلوك واتخذ من ذلك سبيلاً إلى خنق الشعور بالحرية .

وقد سجل مسيو ( ادوار لامبير ) ناظر مدرسة الحقوق في تقريره الذي نشره في جريدة الطان ١٩٠٧ بعد أن أبعده كرومرو وذنوب لأنه فرنسي ،

سجل صورة الصراع بين الفرنسيين والإنجليز على المناصب الكبرى في التربية والتعليم وكشف عن الخطأة التي رسمها كرومرو ونفذها دنلوب في إقصاء الفرنسيين عن المناصب الكبرى في المدارس العالمية وتعيين أساتذة إنجليز بدلاً منهم ، دون أن يكونوا في مستوى من الناحية الفنية وانه قد أخرج الأساتذة الفرنسيين من القضاة من مدرسة الحقوق واستبدل بهم شيئاً من الإنجليز عينوا بمجرد تخرجهم من الكليات البريطانية دون أن يكون لهم أي قدر من الكفاءة التي تمكنتهم من دراسة القانون . كما أشار إلى الأنظمة الاستبدادية التي اتخذها بالنسبة للطلبة وكيف عاملتهم بقسوة متناهية واضطهدتهم وجرب كرامتهم مما أحال مدرسة الحقوق معقلًا للوطنية المصرية بحيث أصبح كل طلابها الأربعينات تابعين للحزب الوطني .

وإن كرومرو قد اضطر تحت ضغط الرأي العام إلى تعيين ( سعد زغلول ) ناظرًا للمعارف وعمل على سلب سلطته الفعلية ، وأشار إلى الخطأة التي كان دنلوب يدبرها مع نظار المدارس وكبار الموظفين للاتصال به شخصياً وتلقى أوامره وتعلمهاته قبل أن يكتبوا تقاريرهم الرسمية ، وقال لأمير في تقريره :

إن الموظف القـاـبض على الإدارة الحقيقة لوزارة المعارف هو دوجلاس دنلوب وفي الفترة الطويلة التي قضتها دنلوب في وزارة المعارف وقد تبعه خليفة له سار على نفس الخط تحقق تنفيذ خطـة التـغيرـةـ الشـكـلـةـ لـلـتـعـلـيمـ على النحو الذي استمر يشق طريقه من بعدـهـ وـالـوقـتـ قـرـيبـ وـمـاـ تـزالـ آـثـارـهـ باقـيـةـ .

وكان هدف هذا الخطأة أساساً هو تغيير الثقافة العربية وتدمير الذاتية الإسلامية وإحالتها إلى مزيج مضطرب من ثقافات المختلفة ومحاولة التشكيك في كل مقومات فكرنا وأمجادنا وتاريخنا الحافل بالموافق الحاسمة والواقع الحالـةـ في الدفاع عن الحرية والحق ومقاومة الغالـبـ والـمـشـارـكـةـ فيـ الحـضـارـةـ البـشـرـيـةـ وـحـمـاـيـةـ آـثـارـهـ .

ولقد أبطأ دنلوب عديداً من الكتب التربوية التي كانت تبني الذاتية الإسلامية في الشباب ، وقد كشفت جريدة المؤيد ( ٢٥ يوليو ١٨٩٩ ) عن نماذج من هذا العمل وقالت إن هذه الكتب كانت معارضة لهدفه من الوجهتين الدينية والسياسية وذلك بإيرادها قواعد الإسلام وأركانه مصحوبة بالحكم والأيات والقرآن والأحاديث التي تحدث على حب الوطن والتعاون وإصلاح ذات البين ، وفي سبيل إعدام هذه الكتب أعلن دنلوب أن مثل هذه الكتب غير وافية بحاجات التعليم وأوزع إلى بعض المدرسين الموالين له بأن يضعوا كتاباً بديلة لها تضم خرافات لا فونتين وقصص مترجمة لا تمثل الروح العربي وتتعارض مع الذوق الإسلامي ، وقد قدمت هذه الكتب في اسلوب نازل وعبارة سقيمة . وأشارت المؤيد إلى أن الشيخ حمزة فتح الله ناضل في سبيل إحباط رأي دنلوب فأعلن الأخير أن كل كتب المطالعة يجب أن تخلي تماماً من كل ما له صلة بالدين .

ومثل هذا حدث مع الشيخ عبد العزيز جاويش الذي عاد من بريطانيا بعد أن تعلم في كبردرج وقد كانت له الجرأة في مناقشة دنلوب في منهج مدرسة المعلمين إذ كان يرى أن يكون المنهج عاماً واحداً ، فاعتراض جاويش وقال إن في مدرسة المعلمين ببريطانيا برنامجاً في أربع سنوات فأشار دنلوب إلى أن مدرسة المعلمين في مصر إنما تهدف إلى تخريج مدرسين يؤدون واجباً محدوداً لا يزيد عن إعداد الموظفين ، وكان ذلك متتمشياً مع خطة كرومرو المعروفة : « عقل بريطاني ويد مصرية » وقد واجهت مؤلفات عبد العزيز جاويش نفس مصير مؤلفات علي مبارك وعبد الله فكري وقد اقصيت جميعاً وألقت بدلاً منها كتب أخرى تحقق هدف دنلوب وهدف التغريب أساساً .

ولقد حاولت أن أحصل على بعض نماذج هذه الكتب بما أودع في دار الكتب الخديوية ومع الأسف لم أجده شيئاً إذ يبدو أنها انقرعت أيضاً من هناك ، وقد قرأت في حديث الأستاذ ابراهيم ابراهيم يوسف نشره في إحدى

المجلات أن دنلوب أقام حرائق كبيرة لهذه الكتب وباع كثيراً منها في المزاد وأخلي منها مخازن وزارة المعارف حتى تنعدم نهائياً .

ولقد كانت لدنلوب سلطة ضخمة ونفوذ عجيب حق ان ناظر المعارف لم يكن يحرب على ان يتخطاه في أمر فإذا فعل ألغاه دنلوب ، وكان رؤساء المدارس ومعلموها في مختلف أنحاء القطر المصري يعرفون أنه هو المسؤول الحقيقي وينشونه .

وقد بلغ من عسفه انه كان يرسل احياناً خادمه الخاص ( الجاويش محمد علي ) الى إحدىعواصم الأقاليم في صباح أيّ يوم يحمل معه عليه طربوش الذي كان يلبسه عندما يدخل أي مدرسة ثم يخلعه بعد ذلك ، فلا يكاد يظهر طربوش دنلوب على باب أيّ مدرسة حتى تهتز المدرسة كلها والمدارس المجاورة وبسرى الخبر سريان النار في الهشيم فتجرى حركة تنظيف وتوضيب واستعداد لأن جناب المستشار قادم للتفتيش . والكل يرتمى فرقاً ويتنلقى الجاويش محمد على الأمر بالانتقال من طنطا الى الزقازيق الى نبها وفيها تتكرر الرواية عينها ، ومن الغريب ان دنلوب كان في الأغلب لا يحضر ويجري عملية تفتيش بواسطة جاويشه وطربوشة .

ولكن ذلك كله لم يكن ليوقف حملات الصحافة الوطنية على دنلوب ونقد تصرفاته ولم تتوقف صحف الحزب الوطني عن التصدي له ومهاجنته .

قالت اللواء في ٩ اكتوبر ١٩٠٧ إنّ المصريين يعلمون ان دنلوب هو أقوى آللة وضعها اللورد كرومر لتعطيل التعليم في مصر وأكبر مقاوم لرقي البلاد من باب المعارف ومحاولة سد الطريق التي يرقى بها وأنه يستعمل كل ما أوتي من سلطة وقوة لمحاربة المصريين حق بالسطو على ذمم الموظفين معه لتتجدد من ضعفها قوة ومن التلاعب بها السلاح الفاصل للأمة .

ويجمع المؤرخون والباحثون على ان القسيس دنلوب هو مؤسس الاستعمار التربوي والعقلي والتعليمي في مصر .

ولذلك فقد عمد الحزب الوطني إلى إنشاء المدارس الأهلية وقامت الجمعية الخيرية الإسلامية بإشراف الشيخ محمد عبده على فتح المدارس لتعليم أبناء المسلمين وتحرييرهم من هذه الأنظمة التي تحطم معنوياتهم .

وعقد مصطفى باشا كامل زعيم الحزب الوطني وصاحب اللواء مؤتمراً للتربية كان له دويٌ شديد في ١٥ مايو ١٩٠٧ عرض العديد من المسائل الخطيرة والهامة في هذا الصدد منها جعل التعليم في المدارس باللغة العربية وكيفية إزالة الصعاب التي تقول بها نظارة المعارف عن طريق إحلال اللغة العربية محل اللغة الإنجليزية، وتأمين مصلحة الأمة بأن يقوم التعليم في المدارس الأهلية على خطة من شأنها تخريج رجال يستطيعون البروز في معرك الحياة أقوى من غيرهم (أي تلاميذ المدارس الوطنية الذين يشكلهم النفوذ الاستعماري) وكذلك وضع قواعد ثابتة لترقية التأليف ونقل العلوم الحديثة إلى اللغة العربية وتسهيل المسبيل على القراء بتنقليل أثاث الكتب ودراسة نظام التعليم في الجامعة وما إذا كان التعليم الديني هو أساس لتعاليمها .

ولا ريب أن هذه القضايا كلها كانت تمثل حاجة الأمة في مواجهة خطر دنلوب، بالإضافة إلى الخطر الذي تصاعف بتعمين سعد زغلول ناظراً للمعارف فكان أول وأخطر مقرراته اعتماد مادة اللغة الإنجليزية للتعليم في جميع المواد ومعارضة قرار أعضاء مجلس الشورى باتخاذ اللغة العربية أساساً للتعليم .

(٤)

أما في الإرساليات فإن الأمر كان أشد خطراً فقد أغري الاحتلال البريطاني وفود الإرساليات إلى مصر بالتوسيع فزادت مدارسهم زيادة كبيرة إذ تضاعف عدد الإرساليات وخاصة النسوية .

وكان لاتفاقية ١٩٠٤ بين إنجلترا وفرنسا أثرها فقد نصت على أن تتمتع المدارس الفرنسية في مصر بنفس الحرية التي كانت تتمتع بها في الماضي .

« كذلك عمل الاحتلال على إحلال اللغة الإنجليزية محل اللغة العربية في المدارس المصرية وجعلها لغة التدريس في المرحلتين الابتدائية والثانوية وجعل التعليم في المرحلتين بمصروفات لا يحتمل دفعها إلا الموسرون القادرون» وقد ساعد ذلك على تكوين صنفين متميزين في الثقافة والاتجاهات لا تقاد إحداهما بغير الأخرى أو تقوم بالتفاهم الجدي » .

وقد أدى هذا العمل في مجال التعليم العام إلى تشجيع المدارس الأجنبية على دعم اتجاهاتها الخطيرة وخلق طبقة تتسم بالاستقرائية في ثقافتها الأجنبية .

وقد زاد استقلال المدارس الأجنبية خلال الاحتلال واتسع أمامها مجال

العمل بغير أي إشراف أو مراجعة مما مكنته من توجيهه تلاميذها الوجهة التي  
قصدوا إليها .

وقد كان خطاب المندوب السامي البريطاني في كلية فيكتوريا بالاسكندرية  
كل يوم يمثل اتجاه بريطانيا نحو الارساليات ودعم الفانية التي يتطلع اليها  
الاستعمار .

ويكفي هذا النموذج للتدليل على أهداف بريطانيا في تعليم الارساليات  
وهو من خطاب اللورد لويد في مايو ١٩٢٦ قال :

قد يهمكم ان تعلموا ان أبناء الكلية السابقين من ثمانية أجناس أو تسع  
أجنس مختلف وان من الطلبة الآن ٣٠ في المائة مصريون و ٢٠ في المائة  
انكلوسكسون ومنهم يونان ويهود وإيطاليون وأرمن وسوريون وأحباش  
وغيرهم .

كل هؤلاء لا يضي عليهم وقت طويل حتى يتسبعوا بوجه النظر البريطانية  
بفضل العشرة الوثيقة بين المعلمين والتلاميذ فيكونوا قادرين على ان يفهموا  
أساليبنا ويعطفوا علينا .

وأود كثيراً انأشعر بأن كلية فيكتوريا تنجذب نفراً من نخبة الموظفين  
والمعلمين والتجار ، هذه الكلية تعمي فيهم من الشعور الانجليزي ما يكون  
كافياً لجعلهم صلة للتفاهم بين الشرقي والغربي .

هذه المشاكل ( التي بين بريطانيا ومصر ) تحمل إذا تعلم كل من الانجليز  
ومصرى ان ينظر الى رأي الفريق الآخر نظراً مقرورناً بالفهم والمعطف<sup>(١)</sup> .

وقد أشارت الصحف الى ان كلية فيكتوريا قد أنشأها الانجليز لمقاومة  
نفوذ الثقافة الفرنسية في مصر وأن ( جورج لويد ) المندوب البريطاني عندما

(١) الصحف ١٢/٢١/١٩٣١

ضاق صدره بتفوق المدارس الفرنسية في مصر ذهب واستئنف المالية الأنجلizية بالاسكندرية وجمع منها مائة ألف جنيه في جلسة واحدة ليقوى كلية فيكتوريا وذلك مع وزير مصرى مسؤول فخطب بالإنجليزية لتعضيد ذلك المشروع<sup>(١)</sup>.

وإذا كانت بريطانيا قد وافقت فرنسا عام ١٩٩٤ على حرية عملها في مجال الارساليات فإن بريطانيا تعهدت بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦ وفي مؤتمر مونترو ١٩٣٧ بأن تحمي معاهد الارساليات لا فرنسا وحدها ولكن بمسمى الدول . وكانت فرنسا قد طلبت في مؤتمر مونترو بلسان مسيو لا جارد حماية الكاثوليك والهيئات الدينية اللاتينية في مصر وتسجّيل ان فرنسا امتيازات في هذه الحماية .

وقال ساطع الحصري : إن النظم العديدة التي وضعت في سوريا في عهد الانتداب الفرنسي إنما كانت قد وضعت تنفيذًا لسياسة مرسومة بوضوح واتفاق ، غاية هذه السياسة تأمين سيطرة الثقافة الفرنسية والنظم الفرنسية على معارف البلاد سيطرة مطلقة من غير التفات إلى ما تتطلبها أصول التربية السليمة » .

ولا ريب أنه كان من أهم الأحداث التي يؤرخ بها في مجال احتضان الاستعمار للإرساليات وحمايتها : أحـدـاث ٢٥ يـنـاـير ١٩٣٢ عـنـدـمـا توـسـلـ المـبـشـرونـ إـلـىـ تـنصـيـرـ يـوسـفـ عـزـ الدـيـنـ عـبـدـ الصـمـدـ الطـالـبـ بالـجـامـعـةـ الـأـمـرـيـكـيـةـ بـالـقـاهـرـةـ عنـ طـرـيقـ التـنـوـيـمـ الـمـغـناـطـيـسـيـ وـأـنـ طـبـيـبـاـ قـسـاـ كانـ يـعـدـ إـلـىـ تـنـوـيـهـ وـالـعـبـثـ بـإـرـادـةـ وـأـنـهـمـ أـخـيـرـاـ اـقـتـادـوـهـ إـلـىـ مـنـزـلـ بـضـاحـيـةـ الـمـعـادـيـ وـاعـتـقـلـوـهـ هـنـاكـ فـاـقـدـ الإـرـادـةـ وـالـرـشـدـ تـحـتـ تـأـيـرـ هـذـهـ الـوـسـيـلـةـ الـمـجـرـمـةـ .

وعلى الدكتور هيكل في جريدة السياسة على هذا الموقف الخطير فقال :

---

(١) الصحف ١٢/٢١ ١٩٣١.

إننا لم نطمئن في وقت من الأوقات إلى قيام هذه المعاهد والى غايياتها المربيّة وما زلنا على يقين من أنها ليست تعمل لغاية بريئة، وإن بث العلم والثقافة إن هو إلا ستار لجهود وأعمال تأباهَا مبادئ التربية الصحيحة وتنكرها قواعد الأخلاق والمدنية .

وان اكتشاف هذه المعاهد وتعريفها قد جاءا نذيرًا للآباء ونذيرًا للطلبة الذين تجذبهم دعواتها الخادعة باسم الثقافة والرياضية والتعليم الحر فيدخلونها آمنين وهم لا يعلمون أنهم ينتظرون في سلك معترك من الدسائس والمؤامرات البشرية الدنيئة ويترعرعون لأنواع التأثير والغواية الشائنة .

(٥)

سيطر التعليم الاستعماري الوطني في مصر وسوريا والعراق والسودان ولibia وتونس وفلسطين والجزائر ومراكش من الأقطار العربية .  
كما سيطر تعليم الإرساليات الأجنبية في هذه الأقطار أيضاً وسيطر بصفة واضحة في تركيا وإيران والهند واندونيسيا والملائكة وكانت أبرز مراكزه في بيروت واستانبول والقاهرة .

وقد حقق الاستعمار أهدافه في السيطرة على العالم الإسلامي عن طريق التعليم عندما لم تمر سنوات قليلة حتى خرج ثماره من تلوا أمور البلاد وقيادتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

وقد أشار الباحثون في شؤون التعليم <sup>(١)</sup> في المستعمرات إلى النظم التي تستخدمها الدولة المحتلة لتعليم أولاد الأهلين فيها ، وأقدم هذه النظم هي عدم تعليم أحد من أبناء الأهلين ، ولكن المستعمرات وجدوا أنفسهم في حاجة شديدة إلى الاستعانة بأهالي البلاد لاستغلال المرافق الاقتصادية والثروة الطبيعية وكان العامل الأساسي لتأسيس هذه المعاهد تخريج طائفة من أهالي المستعمرات يخدمون المستعمر .

---

(١) ساطع المصري : فصول عن الاستعمار والتعليم ( الرسالة ١٩٣٦ ) .

وفكـر بعض المستعمرـين بأنـه يجـب أنـ يرافق الفـتح السـياسي فـتح معـنوي بـحيـث يتـقـرب أـهـالي المستـعـمرـات من المستـعـمرـين إـلـى أنـ يـنـدـجـوا فـيهـا اـندـماـجاـ، وـقد فـكـروا في سـبـيل تـحـقـيق هـذـا الفـرض اوـلـاً بـنشر لـغـة المستـعـمرـ، فـيتـعلم أـهـالي المستـعـمرـات تـعلـيمـاً يـنـشـيـءـ في نـفـوسـهـم حـبـ المستـعـمرـ فـيـسـتـسـلـمـونـ لهـ طـوـاعـيـةـ .

وقد بـرـزـ النـوـعـ الـأـولـ من سيـاسـةـ الاستـعـمارـ اـكـثـرـ وـضـوـحـاـ فيـ الـهـنـدـ فيـ ظـلـ الاستـعـمارـ الـأـجـلـمـيـزـيـ كـاـ تـجـلـيـ النـوـعـ الثـانـيـ فيـ الـجـزاـئـرـ باـلـاستـعـمارـ الـفـرـنـسـيـ . وـكانـ الـفـرـنـسـيـوـنـ يـأـمـلـوـنـ فيـ سـيـاسـتـهـمـ تـقـرـيـبـ المـسـتـعـمرـيـنـ إـلـيـهـمـ ، وـظـنـوـاـ أـنـهـمـ بـنـشـرـ لـغـتـهـمـ بـيـنـهـمـ وـإـشـراـبـهـمـ ثـقـافـتـهـمـ يـغـرـسـونـ حـبـهـمـ فيـ قـلـوبـ الـأـهـلـيـنـ، وـلـذـلـكـ جـعـلـوـاـ الـلـغـةـ الـفـرـنـسـيـةـ حـوـرـاـ لـكـلـ دـرـسـ فيـ مـنـاهـجـهـمـ، وـقـالـوـاـ بـصـرـاحـةـ : إـنـ الـمـدـرـسـةـ يـحـبـ أـنـ تـكـوـنـ قـبـلـ كـلـ شـيـءـ مـعـهـدـاـ لـتـعـلـيمـ الـلـغـةـ الـفـرـنـسـيـةـ ، كـاـ اـهـتـمـوـاـ بـنـاهـجـ الـأـخـلـاقـ فيـ الـمـدـارـسـ لـتـعـلـيمـ أـلـاـدـ الـمـسـتـعـمرـاتـ ماـ يـحـبـ الـأـهـلـيـنـ بـالـفـرـنـسـيـنـ فـنـجـدـ مـنـ مـنـاهـجـ الـأـخـلـاقـ فيـ مـدـارـسـ الـجـزاـئـرـ قـسـمـاـ خـاصـاـ فيـ وـاجـبـاتـ الـأـهـلـيـنـ نـحـوـ فـرـنـساـ .

وـمـاـ جـاءـ فيـ هـذـاـ المـنـهـجـ : مـاـ يـتـرـقـبـ عـلـىـ اـهـلـ الـجـزاـئـرـ مـنـ الـوـاجـبـاتـ نـحـوـ فـرـنـساـ مـقـاـبـلـ الـحـمـاـيـةـ لـتـيـ تـسـدـيـهـاـ يـلـيـهـمـ وـالـعـدـلـ الـذـيـ أـدـخـلـتـهـ فيـ بـلـادـهـمـ وـالـأـمـنـ الـذـيـ نـشـرـتـهـ فيـ رـبـوـعـهـمـ وـنـعـمـ الـتـعـلـيمـ وـالـخـضـارـةـ الـذـيـ اـغـدـقـتـهـاـ عـلـيـهـمـ ، الـاحـتـرامـ الـذـيـ يـحـبـ اـنـ يـشـعـرـوـاـ بـهـ نـحـوـ مـنـ يـدـيرـ الـبـلـادـ باـسـمـ فـرـنـساـ وـالـاحـتـرامـ الـذـيـ يـحـبـ اـنـ يـظـهـرـوـهـ نـحـوـ الـعـلـمـ الـفـرـنـسـيـ .

وـهـذـاـ هوـ مـاـ سـمـيـ «ـ التـعـلـيمـ لـتـسـهـيلـ عـلـمـ الـاستـعـمارـ »ـ .

وـقـدـ اـسـفـرـتـ تـجـارـبـ هـذـاـ النـوـعـ مـنـ التـعـلـيمـ عـنـ نـتـائـجـ سـيـئةـ إـذـ مـاـ عـنـتـ مـاـ أـحـدـثـتـ رـدـ فعلـ عـنـ أـلـاـدـ الـمـسـتـعـمرـاتـ ، فـقـدـ تـغـيـرـتـ اـحـواـلـهـمـ بـعـدـ مـدـةـ قـلـيـلةـ أوـ كـثـيـرةـ مـنـ تـخـرـجـهـمـ مـنـ الـمـدـارـسـ ، وـبـدـلـاـ مـنـ أـنـ يـكـوـنـوـنـ مـطـبـوـعـيـنـ عـلـىـ حـبـ الـمـسـتـعـمرـ يـتـفــانـوـنـ فيـ خـدـمـتـهـ أـصـبـحـوـاـ عـلـىـ نـقـيـضـ ذـلـكـ يـكـرـهـوـنـهـ

ويكافحونه ، فأسقط في أيدي المستعمرين ، وفكر علماء المستعمرين في هذه المعضلة فوجدوا أن هذه نتيجة طبيعية لأن ابن المستعمرات إذا ما قرأ تاريخ الأمة المستعمرة ودرس الثورات ووقف على مطالب الشعب من الحكومة يتحمس لهذا الحس فيشب راغباً في تطبيق ما درسه .

ومن هنا جلأوا إلى طريقة جديدة في سياسة التعليم : هي « التعليم بغير تثقيف » فاتجروا إلى تعليم أولاد المستعمرات من غير تثقيفهم ، تعليمهم تعليماً ضيقاً جداً يجعلهم آلات صماء في أيدي الاستعمار .

وقد بذلك الدول المستعمرة جهودها في وضع نظام للتعليم على هذا الأساس يجعل التعليم وسيلة ميكانيكية بحتة ، إذ تكون لغويات محدودة معينة بدون أن يدخل على هذا التعليم أي عنصر من عناصر الثقافة العامة ومضوا في ابتكار طريقة خبيثة لتدريب أبناء المستعمرات على أن يكونوا مسامير في صفحة خشبية أو عجلات في آلية ميكانيكية مجرد़ين من أي لون من ألوان الثقافة العامة .

ومن التعليم بدون تثقيف ، إلى فصل الأقطار عن بعضها بعملها مختلفة اللغة وحق لا ينتقل أبناؤها إلى الأخرى ليثروا آراء جديدة .

وأخذ الفرنسيون في المغرب يفرقون بين العرب والبربر وغيرهم بحربان البربر من تعلم اللغة العربية حق يجعلوه بعيدين عن التأثير بالمدارس التي تدرس العربية أو ما يكتب بهذه اللغة في الأقطار الأخرى .

ومن ذلك فكرة نشر اللغة العالمية وهو الوسيلة التي تباعد بين الأقطار العربية وتسهل على المستعمرات أغراضهم ، وقد بثوا هذه الفكرة دعايات خدع بها أبناء البلاد المستعمرة وروجوا لها ، وقد طلا المستعمر هذه المكيدة تحت عنوان نشر التعليم بين طبقات الشعب وما دام الجمhour في الأقطار العربية لا يعرف اللغة الفصحى غالباً فيجب تعليمه بلغته المحلية العالمية .

وهكذا نجد أن خطة الاستعمار في التعليم قد حققت كل أهداف الاستعمار في السياسة والتاريخ والمجتمع :

عزل كل قطر عن الآخر ، وعزلت جماعات مختلفة في كل قطر عن الأخرى ولقد حرصت الغايات العلمية لمناهج التعليم الوطني في ظل النفوذ الاستعماري على الفصل بين كل قطر وتعزيز اقليميته الخاصة ولهجته العامية ، وإقناع كل قطر بأنه صاحب وجود وكيان منفصل عن القطر الآخر الذي هو جزء منه عربياً وإسلامياً .

أفسد التعليم الاستعماري على الشباب عناصر رجولته وجعل أكبر همهم العناية بالزينة والمرآة وزجاجة العطر وجعل ولده بالشيء الأجنبي والغربي والعجمي والمتحمل من قيود الأخلاق .

حرص على ثانية التعليم الديني والمدني لإيجاد طبقتين متميزتين مختلفتين متصارعتين وقد ارقيبت ثانية التعليم بامتياز طائفة واحتقار الأخرى وقد عمق ذلك الفرق بين الطبقتين وأقام بينهما عوامل الصراع والاحتقار .

وانهى ذلك بقيام طبقة الأقطاعيين والأجراء واستهدف بذلك إقامة طبقة القيادة الذين يتولون أمور البلاد من أولئك الذين شكلتهم وفتح لهم الطريق .

جعل الشخصية الغربية هي المثل الأعلى ، وجعل نهضة الغرب وبنته وأبطاله هم المصدر الأصلي لما تخشى به عقول الشباب ، بل إن الاستعمار ببني مناهج دروس الدين والتاريخ على الأساس الغربي ، فالدين الإسلامي يعلم في المدارس الوطنية مادة روحية أخلاقية ويعلم على وجه بعيد جداً عن الحياة وعن حقيقة مبادئه ، فحياة الرسول عليه السلام تدرس لأنساننا منقطعة الصلة بحياتهم وببيتهم بينما تدرس حياة نابليون وبسمارك وشكسبير بأسلوب مبهج ، كذلك فإن مادة العبادات والأخلاق تعامل من وجهة النظر التفعية ، أما

التاريخ الإسلامي فإنه مجموعة من المثالب التي تصور حكام المسلمين وخلفاءهم على أنهم سياسيون محترفون يغلب عليهم سوء النية أو سوء الفهم . ونبتئت نابتة من المسلمين المثقفين تعلم التاريخ وتولف فيه وفق الأسلوب التبشيري والمنهج الاستشرافي .

« وهكذا كافة البرامج قد وضعت كلها على أساس الفلسفة الغربية ووفق مناهج الغرب . وقد أخلص هؤلاء الرواد إخلاصاً تاماً لهذه الثقافة حملهم على تقدير الاجنبي وحب حضارته ، وانطبع كثيرون بطبعه ، وصاروا يقتلون الإسلام والثقافة الإسلامية كما يقتتها الغربي ، ويحملون للإسلام والثقافة الإسلامية العداء كما يحمله الغربي ، وصاروا يعتقدون أن الإسلام والثقافة الإسلامية هي سبب تأخر المسلمين كما أوحى إليهم أن يعتقدوا ذلك ، وبهذا نجحت الإرساليات والحملات التبشيرية نجاحاً منقطع النظير من حيث ضمت إليها الفتنة المتعلمة من المسلمين وجعلتها في صفوفها تحارب الإسلام والثقافة الإسلامية » .

(٦)

ولقد قام رجال الاحتلال في الأقطار المستعمرة على مهمتهم حق استطاعوا حين انفكوا عنها أن يكونوا قد أعدوا « الركيزة » الحقيقة من أبناء البلاد أنفسهم ، وكرهوا في مصر بعد أن مضى ربع قرن وغادر مصر عام ١٩٠٧ كان قد أحسن تماماً بأنه ركز ركيزة صالحة للعمل سنوات طويلة ، وقد كان يدعو الشباب المتعلّم في المدارس الوطنية وفق منهج الغرب أن يتقدم ليتسلّم أمانة الحكم في بلده ويتصور المستقبل وقد جاء وفق ما خطط ورسم .

يقول في تقرير عام ١٩٠٣ : في مصر اليوم جيل جديد مختلف عن أجداده في أمور كثيرة ، فيمكن أن تحدثه نفسه يوماً أن يد إلى تلك الأركان القديمة يبدأ لا تعرف حرمة القديم ف تكون أشد عليها من يد حكومة تدّها اليوم طبعاً لإرشاد قوم لا شأن لهم في الأمر ( يعني الانجليز ) لأنهم لا يدينون بالدين الإسلامي ، فإذا كان لهذا الحساب نصيب من الصواب فالاجدر بأبناء اليوم ان يشرعوا في الإصلاح ويختلفوا بالأمر قبل حلوله .

وقد تحقق هدف دنلوب وجاء كثيرون مدّوا للقديم الذي هو الإسلام يداً ، وكان بعض هؤلاء ليسوا من رجال المدارس التبشيرية والإرساليات ، ولكن من معاهد التعليم الوطني الذي وضع منهاجه الاحتلال ، ومن الأزهر أيضاً .

ويقول أحد الباحثين : ظل يتخرج هذا العدد من المدارس الدنلوبيه الجيل بعد الجيل حتى صار للإسلام في مصر معنيان :

- ١ - المعنى الذي فهمه الشيخ محمد عبد من ينابيع الإسلام مباشرة وكان مؤمناً بأن الأخذ به على وجهه الصحيح يجعل الأمة من الضعف إلى القوة ومن اليأس إلى الرجاء ومن الخمول إلى النشاط .
- ٢ - والمعنى الذي فهمه تلاميذ دنلوب ولم يتلقوه عن الإسلام نفسه بل عن حالة المسلمين المنحطة المنافية للإسلام وعن أقوال فلاسفة أوروبا فيها كانت عليه الكنيسة في القرون الوسطى فظنوا أن ما قاله الأوروبيون عن غير الإسلام ينطبق على الإسلام .

وهكذا وضعت المناهج بأيدي أصحاب البرانطيط غير حاسبين للروح الإسلامي حساباً ؟ ويقول السيد محب الدين الخطيب :

إن مناهج التعليم لا تزال تلف وتدور حول المحور الذي وضعه دنلوب ، وإصلاح هذه المناهج يجب أن لا تكون بأيدي أناس عرفوا بالتعصب على الإسلام سواء أ كانت اسماؤهم إسلامية أم كانوا من الذين حضروا إلى هذه الديار للسعى في إخراج أهلها من ربقة الدين الحمدي . كان الفرض الدنلوبي تخريج طبقة من الشبان تصلح لأن تكون في دوالين الحكومة آلات ميكانيكية تديرها رؤوس انجلزية وتسير بها في خطط لم يكن معروفاً إلى أين تؤدي ، الواقع أنها تؤدي إلى جعل مصر بلداً دولياً ( إنترناشونال ) .

هذه الطريقة الدنلوبيه كانت لا تعنى بتخريج أبناء مصر العربية المسلمة تخريجاً عربياً مسلماً ، إن الطريقة الدنلوبيه علمت شباب مصر أن العروبة والإسلام شيء أجنبي طرأ على مصر واحتلما كاحتلال الفرس والبطالسة والروماني والإنجليز ، مع ان العروبة والإسلام هما روح مصر وكيان مصر بل هما مصر منذ نحو أربعة عشر قرناً إلى الآن .

إن التعليم الدنلوبي في المدارس الثانوية أهمل آداب الإسلام وتاريخ الإسلام وأمجاد الإسلام ، فخرج لنا أبناء مجردين من سلاح الفضائل الإسلامية .

وقد بحث كثيرون في سر ابتعاد الذهن المصري عن الاتصال بالشرق والبلاد العربية وعدم اهتمامه بما يجري في البلاد المجاورة ، وقال محمد علي الطاهر أن سبب كل ذلك رجل المجلزي واحد هو مستر دنلوب مستشار وزارة المعارف المصرية بعد الاحتلال البريطاني لمصر ، فقد استطاع بسيطرته على المعارف أن ينزع من برامج التعليم الدينية وروح الأدب العربي وتاريخ العرب وصلة مصر بالعرب والعربية ، ثم أدخل في برامج المدارس ان مصر مصرية فرعونية وأن أجداد المصريين هم فرعون وهامان ولا صلة لمصر بعدهما وقطنان ، فلما نبت ابناء هذا الجيل وكبروا تولوا السيطرة الآن على المدارس والصحف .

وذلك حق كله فإن مناهج الدراسة في المدارس الوطنية وضعها رجال التعليم التبشيري ورجال الإرساليات خلاصة لتجربتهم بها وهم رجال دهاء يعرفون غايتهم وكيف يسلكون السبيل إليها في صمت وأناة .

ومن خير ما يمثل ذلك ما كتبه أحد الباحثين عن دنلوب حين قال :

« إن المستر دنلوب سلك طريقاً أطول فأراد أن يكتسب أولاً قلوب الأطفال وانتظر ثلاثة عاماً يضع في رؤوس التلاميذ ما يريده وينبع عنها ما يريد إلى أن تخرج من وزارة المعارف الجيل الأول والجيل الثاني ، فلما صارت مقاعد الوزارات وكراسي النيابة والحكم ممتلئة بالذين رباه مستر دنلوب انقلب إلى وطنه واطمأن قلبه على أنه صار لأوربا في كل بيت مصرى من يكمل برنامج دنلوب » .

وهكذا دفع المفكرون المسلمون هذه الخطة في إبانها ولم يتوقفوا عن معارضتها .

ويصور السيد محمد رشيد رضا متشيء المنار أخطار مناهج التعليم الغربية بعد الاستقلال .

أما تربية المدارس فروحها تفرنج وتقتل الإسلام قتلاً بتفضيل كل ما هو أفرنجي على ما يخالفه من عقائد الإسلام وشمائره وعاداته وأخلاقه وأدابه ومشخصاته . وحسبك أن الصلاة التي هي عمود الإسلام غير واجبة على أساتذة هذه المدارس ولا على تلاميذها فلا يطالب بها أحد .

هذه المدارس قد وضع الانجليز نظمها وعينوا لها وجهتها وغايتها كما شاءوا ، ومن مقاصدها ان لا يكون من يتعلم فيها أدنى شعور بأن لقومه ملة إسلامية لها من المزايا في دينها وقشريعها وحضارتها ما قعلو به .

وقد اتفق ان جيء لمدرسة البنات السنوية في عهد القسيس الشهير دنلوب المسيطير على وزارة المعارف بناظرة إنجليزية من تربين تربية حرة عالية . فلما كتبت تقريرها آخر السنة الدراسية اقترحت على وزارة المعارف إلزام جميع من يتعلم فيها من البنات ارت يتعلمن عقائد الدين الإسلامي وأحكامه ويؤدين عبادته من صلاة وصيام وعللت ذلك بأن عاقبة هؤلاء البنات ان يكن امهات مربيات لنشء الأمة ولا يصلح لل التربية إلا الأم المتدينة الصالحة لأن تكون قدوة . ولذلك أجمعت الأمم كلها على تربية البنات تربية دينية عملية ، قالت ؟ ولما كان في هذه البلاد ثلاثة أديان كلها تأمر بعبادة الله والتحلي بالفضائل واجتناب الرذائل وهي الإسلام والنصرانية واليهودية ، ولما كان اختلاف التعليم الديني مضرأً بال التربية ومخلاً بوحدة الأمة وكان الإسلام هو دين الأكثريية الغالبة وجب جعل الدين الذي يبني على أساسه نظام التعليم والتربية في هذه المدرسة ولذلك فقد اقترحت جملة رسمياً إلزاماً فيها .

وقد عزل دنلوب هذه الناظرة عزلاً وأحفظه تقريرها فمزقه تزيقاً .

وأشار السيد رشيد رضا الى ان جميع المدارس التي تسمى إسلامية في

مصر تسير وراء وزارة المعارف في تربيتها وتعليمها حق مدارس الأوقاف الملكية ومدارس الجمعية الخيرية الإسلامية التي كان غرضها الوحيد على عهد رئيسها الأستاذ الإمام ومديرها حسن عاصم تربية أولاد الفقراء من المسلمين تربية إسلامية خالصة وتعليمهم ما لا بد لكل مسلم من عقائد دينية وأحكام.

وقد أصاب هذه المدارس من الانتكاس والارتکاس ، حسبك ان تعلم ان الجمعية أنشأت مدرسة للبنات لتمرينهن على الرقص دون تمرينهن على الصلة والثمرة ما ترى من النساء في الأسواق والشوارع والمخالف والمجامع والملاعب والمرافق والمسارح والحمامات البحرية والجمعيات النسائية ، وقد بلغن من الخلعة والرقاعة والإباحة درجة صار يستقدرها الكتاب الإباحيون الذين دعوا إليه من قبل .

وإذا كان هذا شأن من يتعلمن ويتربي في المدارس الإسلامية فماذا عن مدارس جمعيات التبشير وراهبات الكاثوليك؟ إن هؤلاء يحتقرن الإسلام وكل من ينتمي إليه ويحتقرن لفته أيضاً<sup>(١)</sup> .

---

(١) م ٣٤ سنة ١٩٣٣ المدار .

(٧)

وقد تساءل كثيرون خلال هذه المرحلة الطويلة التي سار فيها التعليم إبان الاحتلال حتى نهايته: إلى أين وإلى متى تسير مدارسنا وراء مدارس الغرب؟ وقد عرض لهذا الأستاذ الإمام حسن البنا فقال: لنا أن نأخذ من مدارس الغرب ومناهجه عنایتها بالعلوم الطبيعية والمواد العملية والمعارف الحيوية التي ترمي إلى إدراك سر الوجود ومعالجة مشاكل الحياة وعنایتها باتجاهات التربية الحديثة ومراعاة مطالبها بتربية الجسم وغرس الفضائل الوطنية.

ولكن: هل نجمل مدارسنا خلواً من الدين والاهتمام بشأنه لأن مدارس الغرب كذلك؟ كلاً والفال مرة كلاً. فان أسباب ذلك ومبرراته إن توفرت في الغرب فهي معروفة عندنا، وإن أخطأ الغربيون في شيء، فلسنا ملزمين بتقليلهم في خطأهم على ان مدارسهم أثبتت في وقت كان التزاع بين العلامة والمتدينين على أشدّه وكانت موجة الإلحاد تفتشي أورباً من أقصاها إلى أقصاها، وكانت المدارس هي السلاح الماضي للقضاء على مزاعم الكهنوتيين وأراجيفهم، ولكن الشأن الآن غيره فيما مضى.

ليس هناك وسيلة للتربية الخلق إلا الدين بل الدين وحده فالعلم والفلسفة لا يهديان في تربية النفوس وتزكية الأرواح إلا إذا استندنا إلى الوازع الديني القوي السلطان العظيم الآخر.

ومن هنا يكمن ان نفهم السر في اتجاه السياسة الانجليزية نحو جعل التعليم في مصر مجردأ من الدين والأخلاق لأن هذا هو ما تقضي به مصلحتها ويؤدي الى قسلط شعب يدين بدین آخر .

ويقول الإمام حسن البنا : منذ امتدت اليـد الأجنبيـة إلـى مناهـج التـعـليم أخذـت العـنـاـية بالـقـرـآن تـضـعـف وـتـضـاءـل . وأـخـذـ رـجـالـ التـبـرـيـة وـالتـعـليمـ - وجـلـهـمـ مـنـ الـأـورـبـيـنـ أـعـدـاءـ الـإـسـلـامـ وـكـتـابـ الـإـسـلـامـ - يـرـوـونـ شـبـحـاـ خـيـفاـ يـنـاوـيـ مـطـامـعـهـمـ وـآـمـالـهـمـ يـعـمـلـونـ عـلـىـ إـقـصـائـهـ تـدـريـجـيـاـ منـ الـمـنـاهـجـ بـجـبـجـةـ انـ الـمـدـارـسـ عـلـمـانـيـةـ وـسـاعـدـهـمـ عـلـىـ ذـلـكـ رـوـحـ الـتـعـليمـ الـأـورـبـيـ الـتـيـ عـمـتـ وـطـمـتـ فـاسـطـطـاعـواـ انـ يـحـذـفـوهـ مـنـ الـتـعـليمـ الـعـالـيـ وـالـثـانـوـيـ ثـمـ الـابـدـائـيـ تـقـرـيبـاـ وـحـصـرـوـهـ فـيـ دـائـرـةـ ضـيـقةـ هـيـ مـكـاتـبـ الـإـعـانـةـ وـمـكـاتـبـ الـأـوـلـيـةـ .

ولم يقف هذا التيار ضد القرآن عند هذا الحد بل أخذ يقوى ويشتد فإذا بـمـكـاتـبـ الـإـعـانـةـ تـطـارـدـهـاـ الـمـدـارـسـ الـاـلـزـامـيـةـ وـلـيـسـ مـنـ مـنـاهـجـهاـ حـفـظـ الـقـرـآنـ ،ـ وـلـئـنـ كـانـ هـنـاكـ قـسـمـ لـلـحـفـاظـ كـاـيـقـالـ فـإـنـ طـبـيـعـةـ نـظـامـهـاـ يـجـعـلـ الـوـصـولـ إـلـىـ هـذـهـ الغـاـيـةـ مـسـتـحـيلـاـ ،ـ وـصـارـتـ الـبـقـيـةـ الـبـاقـيـةـ مـنـ هـذـهـ الـمـكـاتـبـ قـلـقـلـتـ تـبـاعـاـ أـمـامـ دـمـ الـاقـبـالـ عـلـيـهـاـ ،ـ وـتـضـيـيقـ الـوـزـارـةـ وـحـظـرـهـاـ فـتـحـ مـكـاتـبـ جـدـيـدةـ رـغـبةـ فـيـ تـعـمـيمـ الـتـعـليمـ الـاـلـزـامـيـ .

وـالـنـتـائـجـ الـخـطـرـةـ الـمـلـوـسـةـ هـذـاـ كـلـهـ هـوـ اـسـتـحـالـةـ حـفـظـ كـتـابـ اللهـ عـلـىـ النـشـءـ الـحـدـيـثـ ،ـ وـمـعـنـىـ هـذـاـ اـنـقـراـضـ الـحـفـظـةـ بـمـوـتـ مـنـ يـحـمـلـونـ الـقـرـآنـ مـنـ الـعـلـمـاءـ وـالـمـرـتـزـقـةـ وـالـعـبـادـ الصـالـحـينـ ،ـ وـكـذـلـكـ ضـيـاعـ الـلـغـةـ الـعـرـبـيـةـ الـتـيـ مـاـ كـانـتـ الـعـنـاـيةـ بـهـاـ يـوـمـاـ مـنـ الـأـيـامـ إـلـاـ نـتـيـجـةـ مـنـ نـتـائـجـ الـعـنـاـيةـ بـالـقـرـآنـ الـكـرـيمـ ،ـ وـبـذـلـكـ يـنـسـيـ الـمـسـلـمـونـ أـصـلـ دـيـنـهـمـ وـتـنـقـطـعـ الـصـلـةـ الـحـقـيقـيـةـ بـيـنـهـمـ وـبـيـنـ كـتـابـ اللهـ وـيـنـهـدـمـ أـعـظـمـ رـكـنـ مـنـ أـرـكـانـ حـيـاتـهـمـ الـدـيـنـيـةـ وـالـعـلـمـيـةـ .

ويشير الإمام الجليل الى مصدر الخطر فيقول :

إن الفكرة التي تسود عقول رجال وزارة المعارف هي وجوب إبعاد العنصر الديني عن العقول والأذهان حتى تكون المدارس علمانية فقط ، وإن كان الكثير لا يستطيع المخاورة بهذا الرأي والدافع لهذا الرأي هو الاعجاب بتقليله أوربا ونظمها [اعجاباً] يدفعنا إلى السير وراءها .

والمتتبع لخطوات القضاء على التعليم الديني عندنا يجد لها شبيهة بالخطوات التي اتبعتها فرنسا مثل ذلك ، فقد كانت الخطوة الأولى هي إلغاء مادة الدين من المناهج والاستعاضة عنها بدرس في الأخلاق .

(٨)

ومنذ الثلاثينيات ركز رجال الحركة الاسلامية جهدهم على مصدر الخطر وحددهوه ، وقالوا إن التعليم هو الأزمة الحقيقة الحاضرة في عالم الاسلام .

وإن طريقة التعليم التي جرت عليها الحكومات الاسلامية وال المسلمين في هذا العصر ، « تمعن ان ينشأ» الحدث المسلم بدون عقيدة من الصغر تنشق في لوح صدره ، وأن لا يكون له نصيب من حفظ القرآن ولا من قواعد العربية فالمسلمون اليوم يستثنون من ثورة الأفكار وفسو المبادئ الضارة كالاخذ والاباحة ، والانصراف عن كل شيء روحي والطاعة لكل شيء مادي ، وعندما عاد ويليم مارتن الكاتب السويسري من سياحة في الشام والعراق ١٩٣٠ قال : إن الناشئة الحديثة في العراق حسبما لحظ في بغداد ليست على على شيء من الدين الاسلامي وأهل مصر يشترون من مظاهر عداوة الدين التي كانت أحياناً تصل الى مجلس النواب والتي لولاها لم تكن الجامعة المصرية نفسها بؤرة شبهات باسم حرية التفكير ، وسورية نفسها منظوية على كثير من سل اللادينية الساري بسرعة » .

ويقول الأمير شكيب أرسلان صاحب هذا العرض : ماذا تأمل من الشاب الذي أرسله أبوه الى أوروبا وهو ابن ( ١٤ سنة ) لا يعرف شيئاً من عقيدة قومه ، ولا من البراهين التي يقوم عليها الاسلام فوصل هناك « خاماً » كما يقال

وحشا دماغه في أوربا بكل ما يحقر الإسلام ويصفره ويزدريه ، وقيل له إن أمته من التأخر والجمود والضعف إنما هو بأجمعه أثر الإسلام ، أفيكون من العجب بعد هذا أن تنشأ عن هذا الفوج الجديد هذه الكراهية للدين الإسلامي وهذه النفرة من الثقافة الإسلامية . والخطأ ليس هو خطأ أوربا الق تريد أن تثبت تعاليمها مما هو طبيعي والتي لو وجد عندها الميل إلى الإنفاق لم يوجد عندها العلم بحقيقة الإسلام ، إنما الخطأ هو خطأ الحكومات الإسلامية التي كانت ترسل الناشئة للتحصيل في فرنسا وإنجلترا والمانيا وبليجيكا وسويسرا وتظن أنها ربت فيها رجالاً والحقيقة أنها أرسلتهم غير مجهزين بشيء من السلاح المعنوي الذي يمكنهم من أن يذروا به لو هوجمت عقيدتهم فكانوا معرضين لكل خطر .

إن التعليم في أوربا لازم بل ضروري ولا سيما العلوم الطبيعية والميكانيكيات والاقتصاد والزراعة والتجارة ، ولكن تلقينا هذه العلوم في أوربا لا يستلزم أن ننسلخ عن عقائدهنا وعاداتنا وأخلاقنا وأدواتنا ومشخصاتنا القومية ومقوماتنا الاجتماعية .

ولقد سبق لغيرنا من الشرقيين مثل اليابانيين أن تلقوا هذه العلوم وبرعوا فيها وضارعوا فيها الأوروبيين وسبقوهم في كثير منها ولبשו على ما كانوا عليه من عادة وعقيدة وذوق ومشرب وكتابة وأدب .

وأغرب من هذا أن الأبناء يعودون من أوربا وقد امتهلأت ادمغتهم من احتقار المدنية الشرقية والثقافة الإسلامية فيهزأون بآباءهم ويزدرؤن أهلهם ويجادلونهم في الدين وينكرون أمامهم الوحي ، ويقولون لهم إن هذه العقائد ما هي إلا خرافات واساطير . ولا أريد أن اطلق القول وأحكم على جميع الذين حصلوا العلوم في أوربا بفساد العقيدة بل هناك من الناشئة من استفاد وعاد إلى بلاده فأفاد وبقيت مبادئه طاهرة ، وإنما أريد أن أقول إن إرسال الولد إلى أوربا قبل أن يبلغ أشده معناه إرساله لينشأ تنشئة أوربية ليس

فيها شيء من الإسلام ومبادئه ، فإذا عاد إلى قومه عاد إما عدوًّا لقومه أو محقرًا لهم ونشأ هذا التنافر الذي نراه الآن . والخلاصة أننا من فوضى التعليم في خطر وإن من عدم تجانس التعليم سيكون في العالم الإسلامي فتن وشدائد بين أبنائه<sup>(١)</sup> .

• • •

وهذه هي قضية البعثات من شباب المسلمين إلى أوروبا والغرب وهي بمثابة خطر شديد كان للاستعمار في توجيهه دور وأثر حتى لقد بلغ أن ارسل من مصر بعثات من شباب في السابعة من العمر والعاشرة حتى يمكن تشكيلهم من جديد دون أن يبقى جذورهم الإسلامية العربية أثرًا ما ، ولقد كانت أخطار ابناء البعثات من أكبر الأخطار التي عرفتها بلادنا وأمتنا .

والمعروف أن اغلب المنح الدراسية المقدمة من البلاد الغربية للجامعات بما في ذلك الجامعة الأزهرية مع الأسف هي منح مقدمة من مؤسسات التبشير والاستشراق والإرساليات ، وإن الطالب يحيط به تمامًا إذا ما وصل إلى أوروبا ويفرض عليه موضوعه ووجهة النظر التي يتحرك فيها ، ولا بد أن تكون في إطار كتب استاذه الذي كثيراً ما يكون يهودياً ؛ والميود الآن يشرفون على الدراسات الإسلامية والعربية في اغلب جامعات الغرب ، ومن السخرية البالغة أن يدرس طه حسين في فرنسا تفسير القرآن بعد أن عجز عن تحصيله في الأزهر أو يدرس اللغة العربية وهي موضوعات ذات أصل عربي ولا تحتاج إلى السفر إلى الغرب والإقامة من أجل دراستها إلا من حيث ان تكون وجهة نظر الأساتذة المستشرقين .

---

(١) الفتح - ١٧ - أبريل ١٩٣٠ .

(٩)

وإذا كانت هذه هي وجهة نظرنا كمسلمين في اخطر التعليم الوطني في ظل النفوذ الاستعماري وتحدياته وهو خطير امتد في البلاد الإسلامية بعد الاستقلال وبعد الجلاء نقول إن الجانب الآخر لم يكن يحسن بأن ما قام به قد حقق تماماً كل ما يتطلع إليه في حدود رسالة القديس لويس ، وإنما كان يرى أن الأمر ما يزال يحتاجاً إلى جهود جديدة ، بل إن عدداً من المستشرقين توافقوا على دراسة الخطوات التي تمت واطلقوا عليها اسماً عجيباً هو «تغريب الشرق» ودفعه في طريق الخروج من إسلاميته وعروبتها إلى أن يكون غربياً وجاء كتاب ( وجهة الإسلام لجبل وخمسة من المستشرقين عام ١٩٣٠ ) ليصور إلى أي مدى وصل ذلك التغريب وما هي الخطوات التي تمكنه من تحقيق غايته كاملة .

وتقدير جب في هذا الصدد وثيقة خطيرة تدفع جميع العاملين في حقل التعليم الإسلامي والعربي وستظل كالسيف مشهورة في وجوههم حتى يتحرروا من نفوذ الغرب في مجال التعليم :

« التعليم أكبر العوامل الصحيحة التي تعمل على الاستغراق . . . والحق أنه العامل الوحيد إن فهمنا من كلمة التعليم ما تدل عليه ، ولا تستطيع الحكم على مدى الاستغراق في العالم الإسلامي إلا بقدار دراسته للتفكير الغربي

وللمبادئ والنظم الفريدة . ولكن هذا التعليم ذو انواع كثيرة وتقوم به جهات متعددة وبالطبع لأن هناك بالفعل قليلاً من التعليم على الأسلوب الأدبي في المدرسة وفي الكلية الفنية وفي الجامعة وعلى هذا التعليم يتوقف كل ما عداه . إن انتشار التعليم سيجذب بازدياد في الظروف الحاضرة على توسيع تيار التغريب وتعزيزه ولا سيما لاقرئانه بالعوامل التعليمية الأخرى التي تدفع الشعوب الإسلامية في نفس الطريقة .

ويقول جب: إن إدخال طرائق جديدة في الفكر - في البلاد الإسلامية - كان يتطلب نظاماً جديداً في التربية من عهد الطفولة في المدارس الابتدائية والثانوية قبل الانتقال للدراسات العالية . وإن إصلاح التعليم على هذا النحو لم يكن في ذلك الوقت يخطر على بال السلطات المدنية الإسلامية ، ولكن هذا الفراغ ملأته هيئات أخرى ، فقد انتشرت في منتصف القرن التاسع عشر شبكة واسعة من المدارس في معظم البلاد الإسلامية ولا سيما تركيا وسوريا ومصر وذلك يرجع غالباً إلى جهود جماعات تبشرية مسيحية مختلفة ، وربما كان أكثرها عددآ المدارس الفرنسية ، فقد كانت المدارس المولندية قاصرة على جزر الهند الشرقية . هذه المدارس صاحت أخلاق التلاميذ وكانت ذوقهم ، والألم أنها علمتهم اللغات الأوروبية التي جعلت التلاميذ قادرين على الاتصال المباشر بالفكر الأوروبي فصاروا في مستقبل حياتهم مستعدين للتتأثر بالمؤثرات التي فعملت فيهم فعلمها أيام الطفولة ( أي التعليم على الطرق المسيحية ) .

وفي اثناء الجزء الأخير من القرن التاسع عشر نفذت هذه الخطوة الى ابعد من ذلك بإنشاء التعليم العلماني تحت الاشراف الانجليزي في مصر والهند ، ولعل هناك نصيباً من الحق في التهمة التي ترمى بها المدارس الاجنبية من أنها مفسدة لقومية التلاميذ ، وإن كنا لا نستطيع القول بأن التطورات السياسية

التي أعقبت ذلك في البلاد الإسلامية أيدت هذه التهمة ولكن الذي فعلته بلا ريب أنها ربت في التلاميذ خروجاً على الأنظمة الاجتماعية وعلى السياسة إلى حد ما في اوطانهم الأصلية . وأضعفت من هذه الوجوه سلطان النزعة الإسلامية القديمة على التلاميذ وأدخلت في بناء المجتمع الإسلامي أدلة هادمة قطعت بعض الأواصر التي كانت تربطه وتحفظه .

ويقول جب : لقد استطاع نشاطنا التعليمي والثقافي عن طريق المدارس العصرية والصحافة أن يترك في المسلمين ولو من غير وعي منهم أثراً يحملهم في مظهرهم العام لا دينيين إلى حد بعيد ، ولا ريب ان ذلك خاصة هو اللب المثير في كل ما تركت حاولات الغرب لحمل العالم الإسلامي على حضارته من آثار .

هذه كانت الرؤيا عام ١٩٣٠ : الختير الذي طعن به المسلمون ما زال ينزع ومع ذلك فإن هناك من يدعوا إلى غرسه إلى أبعد مدى ، ويقول جب كنتيجة لهذا العمل :

« إن الإسلام كدين لم يفقد إلا قليلاً من قوته . أمّا كنظام للحياة الاجتماعية فقد نزل عن عرشه وقادت إلى جانبها أو من فوقه قوى جديدة لها من السلطات ما يتمارض في بعض الأحيان مع تقاليده وتنظيماته الاجتماعية وبذلك خفت سلطة الإسلام في الحياة الاجتماعية وتراجعت شيئاً فشيئاً » .

ويرى جب أن الهدف من هذه الخطوة في مجال التربية والصحافة كانت ترمي إلى التفرقة بين الحياة الزمنية والحياة الروحية الدينية : فليس شيء في الحياة يصح أن يسبغ عليه الطابع الديني » .

وهكذا نجد للطعنات النجلاء تضرب الإسلام في الصميم وتقضى على قاعدته الأساسية وعموده الفقري : تكامل الدنيا والدين في نظام الإسلام .

والصورة التي رآها جب وحاول ان يدعمها لتمضي الى غايتها هي الصورة التي اشار اليها بيجمن فيلي في محاضرته بالجامعة الأمريكية في ٢٠/١٠/١٩٥٧ حين قال :

« لعبت الإرساليات (في بيروت والقاهرة والقدسية) الدور الرئيسي في تنمية الفكر الشخصي عند طلابها الذين تمكنوا من قيادة الحركة القومية ، ومن المهم أن نعرف ان النفوذ التربوي الوحيد الذي تعرض له الطلاب العرب في القرن الماضي : كان النفوذ الغربي » .

وقد أشار الى هذا السيد محب الدين الخطيب معلقاً فقال :  
إنما أتينا من قبل المدرسة والصحافة ، ومن قبل الثقافة التي تثقف بها قادة الأمة ، فالمصانع التي يتمخرج منها قادتنا ليس لها غاية واحدة معينة .

فالنظريّة الصحيحة في التعليم في العالم الإسلامي أن يكون ابن الزمان وابن المكان أي ان يكون عصرياً وإسلامياً ، فإذا كان عصرياً فقط كما هي الحال في مدارسنا المدنية خرج لنا شباب يحملون أنفسهم ومحبيتهم وكينهم وكانوا سواسرة لأقطار أجنبية ومقاصد أجنبية وعقائد أجنبية ، وإذا كان التعليم ابن المكان فقط ولم يراع فيه معارف العصر خرج لنا شبان جاهلون أحوال زمانهم مجردون من الأسلحة التي يقادهم بها أعداؤهم .

والسبيل هو القضاء على التعارض في طريق التثقيف في العالم الإسلامي وإزالة هذه الهوة الواسعة بين المتعلمين تعليماً مدنياً عصرياً والمتعلمين تعليماً دينياً إسلامياً ولا يكون ذلك إلا بسلخ الصبغة الأجنبية عن التعليم المدني العصري ، وإعطائه صبغة أخرى من لون محبيه الإسلامي تكون ملائمة لتقالييد الأمة وعقائدها ويكون القسط الادنى لإعلان مفاخرها وتنوير تاريخها وإحياء ماضيها وربط الحاضر به .

كذلك تعليمينا الإسلامي يجب أن يمزج بأساليب العصر و المعارف ليكون

أئمة المسلمين من أعرف الناس بزمانهم وأدواته وأسباب معاجلتها . إن مناهج التعليم في مصر لا تزال قلقة وتدور على المحور الذي وضعه ذنوب ، وإصلاح هذه المناهج يكفي أن لا يكون بأيدي أناس عرقوا بالتعصب على الإسلام سواء أكانت اسماً لهم إسلامية أم كانوا من حضروا إلى هذه الديار للسعى للاخراج أهلها من ربقة الدين الحمدي ، بل بأيدي رجال من أهل الفضل عرفوا بالوفاء للإسلام .

ويرى الدكتور محمد حسين هيكل على نقطة الخطر الأساسية وهي وزارة المعارف ودورها ومناهجها وخصوصيتها الدليل في وجه النفوذ الأجنبي فيقول في ١٩٣٢/١ : « إن وزارة المعارف تخضع اليوم وأمس وستخضع غداً وبعد غداً إلى أن يتاح لنا النصر السياسي الذي نعمل له إلى السياسة التي كانت تخضع لها أيام كان مستر ذنوب مستشاراً لها مع فوارق في عدد المدارس . وعدد الأساتذة وعدد التلاميذ أكثر منها في أساليب التعليم وفي الغاية منه .

إن سياسة التعليم في وزارة المعارف ستظل اليوم وغداً كما كانت بالأمس . وقبل الأمس خاضعة للسياسة الغربية وللحضارة الغربية في روحها فالحضاراة . الغربية بالمعنى الذي يفهمه مفكرو الغرب ومؤسسو هذه الحضارة الحقيقيون . حضارة عالمية بالمعنى المفهوم من العلم في العصر الحاضر ، بالمعنى الذي يفهمه ساسة الغرب الذين ينشرون لواء هذه الحضارة في ربوع العالم : حضارة استعمارية عدوة للعلم على خط مستقيم ، وهي كذلك حيثما ذهبت حاربت العلم وحاولت حصره في طبقة ضيقة وفي حدود ضيقة لتتخذه من هذه الطبقة بطانة لها تروج للاستعمار أي لاستغلال البلاد التي تنزل فيها استغلالاً مادياً يذهب كل خيره لغرب صاحب هذه الحضارة الاستعمارية .

ولذلك وضعت هذه الحضارة يدها على وزارات المعارف حيثما ذهبت . وعملت دائمة على إفساد هذه المقومات النفسية والخلقية والقومية مكتفية . بطائفة من المعلومات العملية التي تحتاج إليها إدارة الحكم .

ولست بمحاجة لأضراب الأمثال على هذا فهي مما تلمسه اليد في كل ناحية من نواحي التعليم الابتدائي والثانوي أو العالي أو الجامعي ، وحضارة الغرب في هذا غير حضارات الشرق جميعاً، فقد كان لكل واحدة من حضارات الشرق كتاب تدعوه إليه وإياعان تعمل على تثبيته في النفوس ، ومبداً إنساني سام ترید غرسه في الأفئدة والقلوب ، كانت كلها حضارات إنسانية سامية القصد لا تقف عند الفرد ومتــاعه المادي الوظيفي بل تسمو فوق ذلك إلى إخاء الإنسانية كلها ، لذلك نرى في تاريخ الإسلام أدباء وعلماء من غير العرب ومن غير المسلمين بل إن أكــبر أدباء الحضارة الإسلامية وعلمائــها من غير العرب وببعضهم من غير المسلمين .

أما هذه المدينة الغربية التي نعجب بها فمدنية أذانية تتتحدث عن الإخاء حديثاً شهرياً ، ولكنها تقتله حيثاً ذهبت ، وتدعى إلى العلم حديثاً رائعاً بدليماً ولكنها تطــؤه بالأقدام عند الشعوب التي تستعمرها ، وترثــن بأحاديث الحرية ولكن على أن تكون حرية الغرب ، فاما الأمم التي يحكمها الغرب فيجب أن يعتبر أهلها السجن مثل الحرية الأعلى لأنــه وحده هو الذي ينجــو فيه الإنسان من تحكم الغريــي الحاكم أو الشرقي الذليل الذي يقوم في الحكم تحت لواء الغرب ليقتل في نفس أمته كل المعانــي السامية التي ورثــتها من حضارات الشرق القديمة مقابل ما يناله من فتات مائدة الغرب السعيد المجرم .

هذه السياسة التي يسير عليها الغرب وتقرــها حضارته هي التي تخــاربها » .

( ١٠ )

اللغة العربية هي أكبر أهداف النظام الاستعماري للتعليم : ولذلك فقد وجهت إليها حرب عوان عن طريق مدرسة الإرساليات بالانتهاص والمدرسة الوطنية بالتجاهل والثقافة بالانتقاد . وتصور هذا دكتورة نفوسه زكريا سعيد فتقول : كان هم الاستشراق ان يبحث لأوربا الناهضة عن سلاح غير أسلحة القتال ليخوض المعركة مع هذا « الكتاب » الذي سيطر على الأمم المختلفة الأجناس والألوان والألسنة ، وجعلها أمة واحدة تعدد العربية لسانها وتعدد تاريخ العرب تاریخها . وبدأ الفزو المسلح وسار الاستشراق تحت رايته ، فنـ كان له لسان غير اللسان العربي أعدت له سياسة جديدة لإغراقه في لسان الغازي الأوروبي حتى يسيطر عليه ، ومن كان لسانه عربياً اخذت له سياسة أخرى لإغراقه في تخلف مميت ، هذه الخطة لخصها ولیم حيفور في كلامه المشهورة :

« مق توارى القرآن ومدينة مکة عن بلاد العرب تمكنا حينئذ ان نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة ( يعني الحضارة المسيحية ) التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه » .

وقد تبين أن لا وسيلة الى إقصاء القرآن من الارض المفتوحة إلا بالسيطرة على وسائل التعليم شيئاً فشيئاً حتى لا تتمكن الأمة من السيطرة عليه فمقيمه

على طريق سوي يفضي الى نهضة صحيحة ، وكان من قدر الله ان منارة العالم الإسلامي كله كانت في مصر وهي الأزهر فصار من الحكم المقطوع به أن تكون سياسة الغزو الأوروبي موجهة الى مصر قبل أي مكان في العالم الإسلامي .

وهكذا كانت الدعوة منذ اللحظة الأولى الى العالمية : وكان تقرير الخبير البريطاني ( دوفرين ) يدعو الى استعمال العالمية ، ثم جاءت برامج التعليم في المدارس الوطنية هادمة للغة العربية معلية عليها اللغات الأجنبية ، ثم جاءت الدعوات الثقافية المتعددة والمتوازية والتي بدأها ويلكوكس ووليمور بالإضافة الى صيحة ( وعلم سبنا ) مدير دار الكتب الخديوية . وكلها تنصب على العالمية وعلى الحروف اللاتينية وامتدت هذه الدعوة بعد في اسماء مصرية : لطفي السيد وقاسم أمين وسلامة موسى وعبد العزيز فهمي وغيرهم . وكانت أخطر تحديات هذه الدعوة هو التعليم باللغة العربية في الجامعة .

وكان لمدرسة الطب دور في الدعوة الى دراسة الطب باللغة العربية وجدت من يعارضها ويحاول ان يعرقلها بدعوى عدم وجود المراجع او باهتمام اللغة العربية بالعجز عن الأداء .

وقد وقف كثيرون من المنصفين في الدفاع عن اللغة العربية وأعلنوا قدرتها الفائقة وإمكانياتها الضخمة في دراسة العلوم . ولقد كان لطفي السيد في الجامعة صنوأً لسعد زغلول في وزارة المعارف في مقاومة هذه الدعوة .

ولقد وقف زكي مبارك يهاجم لطفي السيد ويدافع عن اللغة العربية فيقول :

«أليس من العجيب أن يشير الأساتذة بتعليم بعض المواد باللغة الإنجليزية ليتقوى الطلبة في تلك اللغة ثم ينسى مدير الجامعة ان يقبل اللغة العربية حين يأبه أن يجعلها لغة التعليم في أكثر اللغات .

«أيغار الانجليز على لغتهم وهم أجانب فيسوقوننا سوًى الى جعلها لغة التعليم ونتفاصل نحن عن لغتنا ونحن في بلادنا فنقتضيها عن ميادين التعليم .

إن من المكابرة ان يزعم الزاعمون ان لغة التعليم في كلية الطب وكلية العلوم إنما كانت لغة الانجليز بسبب عجز اللغة العربية ، فقد كانت اللغة العربية لغة العلوم والطب أجبياً طوالاً ولم يقل أحد بعجزها إلا منذ خلق أبناؤها المجزء الذين يسترون ضعفهم بمحاربتها من غير تخرج أو استحياء . وقد كتب الله ان يفضح هذه الدسיסה على لسان رجل من أقطاب الجامعة المصرية هو الدكتور علي ابراهيم فقد قال في المؤتمر الطبي في دمشق « إنما نعلم الطب باللغة الانجليزية لأسباب سياسية » وعندها محمد الله كثير من المتحدثين الذين يسترون ضعفهم بالتعامل على اللغة العربية فقد كانوا يقولون إن لغة العرب تعوزها المصطلحات العلمية والطبيعية ولكن الدكتور علي باشا ابراهيم عجز عن التمسك بأهداب هذا الاحتياط .

إن مدير الجامعة بين اثنين : إنما ان يصدر أمره عاجلاً يجعل اللغة العربية لغة التعليم في جميع الكليات وإنما ان يستقيل .

إن قصر هذا المنصب على الأستاذ لطفي السيد كان مزاحاً ثقلياً أريد به ان يلقي في روع الشعب ان مصر لا تزال متاخرة وان هذا المنصب حين يخلو لا يجد من يشغلة عن جداره واستحقاق ، هي العوبية سياسية وليس ضرورة تعلمية ، وما هي المزايا التي ينفرد بها هذا الرجل حتى يكون وحده الصالحة لإدارة الجامعة المصرية ، وما هو الآخر الذي تذكره به الجامعة حين يستقيل ما دام عاجزاً عن إقامة القواعد التي تنظم بها الجامعات ؟

أتريدون الحق ؟ إن لهذا الرجل المفضل مزية واحدة ، ولكنها بألف وهي قدرته على الغض من قيمة اللغة العربية باسم العلم وزعمه أنها لا تصلح

الدراسات المالية وتجاهله الحقيقة الأصلية التي جهر بها الدكتور علي ابراهيم حين صرخ بأن الطب إنما يدرس في مصر باللغة الانجليزية لأسباب سياسية .

هل يوجد في العالم كله جامعة واحدة جعلت لغة التعليم فيها لغة أجنبية؟

إن التعليم بلغة أجنبية يهدى الاستقلال من الأساس ، ولم تكن مصر ولن تكون مستعمرة إنجليزية . أتحتجون بأن اللغة العربية تعجز عن التعبير العلمية ؟ إن احتججتم بذلك فأنا أسألكم : ما هي القوة السحرية التي جعلت لغات الغرب أقدر من غيرها على التعبير العلمية . وهل تخلق اللغات كاملة مكملة لا تحتاج الى زيادة ولا يعترورها نقص؟ إن المصطلحات العلمية في اللغات الأوروبية تنبسط تحتاً من اللاتينية واليونانية ومع ذلك لم يقل أحد بفقر الفرنسية أو الإنجليزية ، فما الذي يمنع ان تؤخذ المصطلحات العلمية مرة واحدة وتنتقل الى اللغة العربية ويسد هذا الباب في وجوه من يريدون ان نظل اتباعاً أبداً الدهر لبناء اللغات الأجنبية ؟

أليس من العجب العاجب ان يدرس الطب باللغة الانجليزية في بيروت ويدرس بالانجليزية في القاهرة . أليس من موجبات الأسى ان يتمكن أهل سوريا ولبنان الى وضع المصطلحات العلمية باللغة العربية ونعجز نحن ؟  
وتصدى زكي مبارك مرة اخرى الى لغة التعليم في كلية العلوم فقال :

أحب ان ألفت الغيورين من طلبة كلية العلوم الى وهن ذلك التعليم الذي يلجمـاـ اليـهـ العـجزـةـ حينـ يـصـرـونـ عـلـىـ تـدـرـيـسـ الـعـلـومـ بـالـلـغـةـ الـانـجـلـيـزـيةـ،ـ فـهـمـ يـزـعـمـونـ انـ اللـغـةـ الـعـرـبـيـةـ لـيـسـ فـيـهـ مـصـطـلـحـاتـ عـلـمـيـةـ وـهـذـهـ عـلـةـ لـاـ قـيـمـةـ هـاـ عـلـىـ الـاطـلاقـ لأنـ اللـغـاتـ الـمـشـهـورـةـ فـيـ أـورـباـ كـالـفـرـنـسـيـةـ وـالـانـجـلـيـزـيـةـ لـمـ تـكـنـ فـيـهـ اـيـضاـ مـصـطـلـحـاتـ قـبـلـ نـهـضـةـ الـعـلـمـوـنـ،ـ وـلـأـكـادـ اـصـدـقـ اـنـ كـلـيـةـ الـحـقـوقـ تـرـيدـ اـنـ تـعـوـدـ مـنـ جـدـيدـ اـلـىـ فـرـضـ الـلـغـةـ الـفـرـنـسـيـةـ عـلـىـ الطـلـابـ ،ـ فـقـدـ قـامـتـ الدـلـائـلـ عـلـىـ

صلاحية اللغة العربية لشرح القوانين، وكيف لا يكون كذلك وهي من أغنى اللغات في مؤلفات الفقه والتشریع .

ولقد كشف الذين شاركوا في هذه المعركة الى الهدف الأساسي للاستعمار تجاه إقصاء اللغة العربية عن التعليم فركزوا على ان الهدف هو القضاء على ما تحمله من إيمان بالشخصية والروح القومية وما يؤدي القضاء عليها على عزل الأمة عن مقومات كيانها .

( ١١ )

إن إنشاء الجامعة كانت في العالم الإسلامي خطوة جديدة لتوسيع قاعدة الفزو والسيطرة الثقافية بالرغم من أن مشروع الجامعة بدا عملاً وطنياً للتحرر من قصور الوطنيين عند مجالات التعليم المتوسط أو ارتفاعهم في أحضان الجامعات التي أقامتها الإرساليات ، وتعهد تجربة إنشاء الجامعة المصرية علماً على خطة الاحتلال التي قام بها النفوذ الأجنبي ، وهي نموذج لكل الجامعات التي انشئت من بعد في مختلف أنحاء العالم الإسلامي .

منذ اليوم الأول لإنشاء الجامعة الأهلية اشترك المستشرقون : نلينو وجويدي وسانيلانا فيما وبدأوا في استقطاب الطلاب وكانت تجربتها مع طه حسين ومحمد عزمي وزيكي مبارك ومنصور فهمي معروفة ذاتعة وهم من اتصلوا بها في مصر ثم سافروا إلى أوروبا .

تقول الأهرام عام ١٩٢٥ عندما ضمت الجامعة المصرية إلى الحكومة : إن سلطات الاحتلال البريطاني سمحت بأن تضم الجامعة المصرية إلى الحكومة خوفاً من نفوذ الإرساليات الأمريكية ، فقد لاحظت اللجنة التي شكلت لذلك وغالبيتها من الانجليز أن الإرسالية الأمريكية جمعت تبرعات ضخمة في أمريكا لإنشاء جامعة أمريكية في القاهرة على غرار جامعة بيروت ، و بما يذكر ان الإرسالية الأمريكية قدمنا إلى مصر عام ١٨٦٥ حيث انشأت الكلية

الأمريكية في أسيوط أول مدرسة للبنات .

ولقد واجهت الجامعة المصرية منذ أيام الأول معارك الفزو الثقافي والصراع بين مستشرق فرنسا ومستشرق إنجلترا ، وكانت أولى معاركها حول استقدام المبشرين الذين يلبسون ثياب المستشرقين حيث يكلفون بالقاء دروس عن اللغة العربية والإسلام والقرآن ، وكان موقع الاعتراض أن هذه العلوم لا تحتاج إلى أساتذة أجانب يكلفون الدولة مبالغ طائلة ليحدثوا الطلاب عن علوم يوجد من يبرع فيها ويتفوق المستشرقين من أساتذة الأزهر وعلمائه .

وقد دافع طه حسين عن استقدام الميسو كازنوفا وقال :

« اريد ان يعلم الناس أنني سمعت هذا الاستاذ يفسر القرآن الكريم تفسيراً لغويأ خالصاً فتمنيت لو أتيح لمناهجه ان تتجاوز باب الرواق العباسى ولو خلسته لليستطيع عليه الأزهر الشريف ان يدرسوا على طريقة جديدة نصوص القرآن الكريم من الوجهة اللغوية على نحو مفيد حقاً .

ورد الشيخ محمود أبو العيون فهاجم هذا الاتجاه<sup>(١)</sup> وقال إن كازنوفا وضع كتاباً في تحضير مدرسة الفسطاط ولكن هل وضع كتاباً في فقه اللغة وتاريخها وآدابها أو مناهج تدريسها يرجع اليه عليه اللغة والأدب فيها جملوه وهل وضع تفسيراً للقرآن لغويأ خالصاً ، ان كان فعل هذا ليكون له شأن كبير عندنا .

ثم هاجم طه حسين وقال : الآن قد عرفنا مذهب الدكتور طه حسين ورأيه في كل تعاليمنا ، وإذا كان قد رأى إشار استاذه على كل عالم وأديب في مصر فيها ضياعة العلم في مدارسنا العالمية : العلم الديني الذي يدرسه لأبنائنا أساتذة أوربيون كالميسو كازنوفا .

ثم ذكر أبو العيون كيف ان جامعات المانيا وإنجلترا وفرنسا استعانت

(١) الاهرام: ٤ سبتمبر ١٩٢٣ .

بسیوخ اللغة العربية في الماضي والحاضر وكان في مستشرقيها الكفاية وان حسن توافق العدل والدكتور حماد والي وعبد المزین جاويش و محمد جاد المولى . ومنصور سليمان كانوا من هؤلاء الاعلام .

ثم هاجم الغزو الثقافي التغريبي الذي تحمل لواء الجامعة وقال :

نحن بلينا بالتقليد الضار وهو في الحقيقة مسخ وتغيير وتنازل منا طوعاً واختياراً عن كل مميزاتنا ومشخصاتنا إلى الغير ولو دام الحال على مثل هذا لأصبحنا مثل كندا واستراليا وبعض جنوب أفريقيا وسواحل تونس والجزائر ومالطا .

وكانت المشكلة الثانية في معركة الغزو الثقافي هي المعارضات التي القاها الدكتور طه حسين عام ١٩٢٦ عن الشعر الجاهلي في كلية الآداب ودعا فيها إلى إقصاء عنصري القومية والدين من مجال البحث العلمي وهاجم الإسلام وأنكر ما ورد في القرآن من أخباره عن إبراهيم واسماعيل وطعن في نسب النبي وأنكر أن للإسلام أولية في بلاد العرب وأنه دين إبراهيم .

كما كشفت الأحداث عن دروسه التي كان يلقنها لطلابه وفيها يحثهم على نقد القرآن ويدرك لهم أن في القرآن اسلوبين مختلفين كل الاختلاف ، كما حث الطلاب على ان ينظروا الى القرآن كأي كتاب عادي يحرى عليه من النقد ما يحرى عليها وان يفزوا النظر عن قدسيته .

وهكذا مضت الجامعة في احتضان التغريب الى أبعد مدى .

(١٢)

كان من أخطر تحديات التعليم الوطني الصراع بين التعليم الانجليزي والتعليم الفرنسي في مصر فقد عمد الانجليز بعد الاحتلال الى إحلال لغتهم وثقافتهم محل اللغة والثقافة الفرنسيتين قدربيها وخاصة في المعاهد والمدارس العليا التي كان الفرنسيون يسيطرون عليها مثل مدرسة الحقوق ، وأخرج الأساتذة الفرنسيون الذين كانوا يسيطرون عليها ، واحتل الأساتذة الانجليز مكانهم ، وقد استبدلت اللغة الانجليزية في جميع المدارس باللغة الفرنسية واعتبرت اللغة الانجليزية لغة أصلية والفرنسية إضافية . وهاجم كرومر أسلوب التعليم الفرنسي وقال : إن أساتذة مدرسة الحقوق لا يلاقون على ما يرى في التلاميذ من قلة ما يميزهم بعضهم عن بعض لأنه ليس في أسلوب التعليم الفرنسي ما يدعو الى هذا الامتياز ودعا الى أفضلية اسلوب الانجليزي لأنه يجعل التلميذ يعتمد على نفسه .

ويقول رسل جوست : إن الفرنسيين بذلوا خطوات واسعة منذ عهد محمد علي ، كانوا يعرفون ان شباب مصر إذا ما تعلم اللغة الفرنسية فسيتبع طرق التفكير الفرنسية وكان رسل فرنسا لهذه الغاية في الأغلب رهباناً كاثوليك » . وهكذا عاش التعليم الوطني على الصراع بين الثقافتين الفرنسية والانجليزية ثم جاء بعد الحرب العالمية الثانية صراع بينهما وبين الثقافة الأمريكية وعاشت

مصر على استعارة الاذواق والعقليات الغربية المختلفة .

والإطار كله وافد وتوضع فيه المعلومات على نحو سينيء ، وهو إطار قديم لم يتغير بعد الاستقلال ولا بعد انتهاء الاحتلال إلا في جزئيات بسيطة ، وهو في مجموعه لا يلتزم برسالة أو بهدف .

وكان من أخطر ما فرض عليه المنهج الامريكي الذي يطلق عليه نظرية ديوبي ، وأبرز مظاهر مذهب ديوبي في التربية هو إبعاد الدين في مجال التربية ، وكان في الغرب يستهدف إبعاد المسيحية ، وقد قصد الاستعمار الى فرض هذا المذهب في دراسات مدارس المعلمين العليا التي كانت بمثابة التخرج رجال التربية في مصر ورأى في هذا عوضاً عن الإشراف البريطاني على التعليم الذي كان يقوم به دنلوب ( ١٩٠٦-١٩١٩ ) فأصبحت نظرية ديوبي هي عماد المنهج التربوي بعد ذلك وكان اسماعيل القباني حامل لواء هذه الدعوة ، وقد اتيحت له الفرصة لإنشاء معهد التربية الذي كان المكان الاول لجعل هذه النظرية فلسفة عامة للتعليم المصري والعربي فيما بعد .

وقد ظل لاتباع ديوبي سيطرتهم الكاملة على أنظمة التربية والتعليم الى وقت بعيد وبذلك استطاعت نظريتهم ان تبعد الاسلام عن مجال التعليم والتربية مع حملات مستمرة على اساليب التعليم الاسلامية وإبعاد خريجي الازهر عن مجالات التربية بحججة مما أطلق عليه النقص في مستوى الكفاية الفنية للتعليم وذلك جرياً مع الهدف التغريبي الواضح ، كما حرصت هذه المناهج على حجب الدراسات الوطنية والتاريخية التي تعمد الى بث امجاد الامة وعظمة الشخصية العربية في نفوس الطلاب . وهذا الامر من اخطر آثار التبعية للثقافات الغربية وخاصة الثقافة الامريكية .



البَابُ الثَّانِي  
وَاقْعُ التَّرْبَةِ الْوَافِدَةِ فِي الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ وَآمْرُهَا



## الفَصَلُ الْأُولُ

### أوجه الخلاف بين المذاهب

عندما غزا الغرب (العالم الإسلامي) : عسكرياً وسياسياً كان مخططه في الغزو الفكري والثقافي قد أوفى على درجة عالية من القدرة والتمكن. ذلك أن الغزو الفكري بدأ قبل الغزو السياسي بأكثر من ربع قرن وممكن لنفسه مناهج أخرى منها الاحتلال ورجالاً قاموا على أعمال التربية والتعليم والثقافة والصحافة فعندما بدأت الإرساليات عملها في بيروت ومصر واستانبول قبل ١٦٨٠ كان ذلك إرهاصاً بإعداد الركائز الحقيقة لولادة قوى الاحتلال وبناء الجيل الذي سوف يوازز المحتل بالسيطرة على الثقافة والتعليم والصحافة في نفس الوقت الذي يبدأ فيه الاحتلال .

يقول الدكتور أنيس صايغ<sup>(١)</sup> ثم نزل الانجليز الى مصر والسودان ، وانتقل الحكم الى ايديهم واحتاج الانجليز الى موظفين أكفاء يتقنون لغتهم ويقبلون ان يتعاونوا معهم ، ومرة اخرى ( وال اولى أيام الخديو اسماعيل ) سد اللبنانيون والسوريون الفراغ ، وقد وصفهم اللورد كروم في مذكراته بأنهم «منحة من السماء» وأنهم «خيرة البلاد» ولم يكن كل السوريين المتعاونين

(١) في كتابه : الفكرية العربية في مصر .

مع الاحتلال موظفين ومرابين، فنهم من انشأ صحفاً وأشهرها صحيفتنا المقطم والمقططف اللتان أصدرهما فارس نمر ويعقوب صروف واسكندر مكاريوس ، وكانت الصحيفتان اللسان الناطق لسلطات الاحتلال باللغة العربية . فأيدتا ذلك الاحتلال وهاجمتا الحركات الوطنية بكل ما في لفظي تأييد ومهاجمة من معان ، ونستطيع ان نضيف الى ذلك بكل بساطة جرجي زيدان وسلمى سركيس وفرح انطون وشبل شمیل واديب اسحق وكل من دعا الى اسلوب العيش الغربي .

ومن اجل ذلك وصفت الارساليات ووصف التبشير بأنه بمثابة الطلقان ففي عهد اسماعيل وقبل اكثير من ربع قرن من الاحتلال البريطاني لمصر كانت الارساليات قد ركزت نفسها وأعدت برامجها ولم يبق الا ان تسللما الى المسؤولين عن الاحتلال لتطبيقها في دوائر التعليم ثم في الجامعات .

ولذلك فقد كان اكبر معاوني الاحتلال البريطاني لمصر من خريجي الارساليات ، كانوا هم اصحاب الصحف التي كانت تقود حركة الفكر في صف تأييد الاستعمار والتغريب في هذا الوقت ، وقد ت琨ت بعد ذلك كثيراً واستقطبت الكتاب المصريين والعرب الموالين لهذا الاتجاه .

وكان تدافع عن كل مناهج الغرب في الثقافة والتعليم والتربية وتهاجم بشدة كل من يتصدى لها أو يحاول معارضتها وتهمه بالرجعية والجمود والتخلف والخيانة .

ويكفي القول بأن بيروت كانت بؤرة العمل للغزو الفكري والتغريب في العالم الاسلامي يتوزعها على الارسالية الفرنسية الكاثوليكية والارسالية الامريكية والانجليزية البروتستانتية ، ومن وراء الاولى الفاتيكان ومن وراء الشانية الماسونية والصهيونية العالمية .

وكانت بيروت بذلك مؤهلاً للتتصدير وكانت القاهرة هي ملتقى كل مخطوطات التغريب وموزعتها عن طريق الصحافة والثقافة والتعليم في العالم الاسلامي كله .

(٢)

في إبان إعداد هذا العمل الذي أوصى به القديس لويس للاستيلاء على عالم الاسلام عن طريق الكلمة كانت مناهج الغرب في التعليم قد تخلصت تحت تأثير الثورة الفرنسية من نفوذ الكنيسة واتجهت نحو العلمانية بمعنى اللادينية .

غير ان اغلب الذين أشرفوا على مدارس الارساليات كانوا من الرهبان والقساوسة الذين يحملون قدرأً كبيراً من الحماسة لدينهم ورغبة جارفة في تحقيق السيطرة الفرنسية عن طريق التعليم ، وقد مضى التعليم في المدارس الوطنية قسمة بين المناهج الفرنسية والانجليزية كارسمتها أنظمة الارساليات وعلى شاكلة منهاجها حق اوائل الحرب العالمية الثانية ، ثم سيطرت عليه بعد ذلك منهاج التعليم الأمريكية ونظرية ديوبي على وجه أخص .

وقد كانت هذه المناهج الثلاثة الفرنسية والانجليزية والامريكية قد وضعت في بيئتها وطبقاً لظروف هذه البيئات وأوضاعها ثم تطورت وتغيرت مرة بعد مرة في مواجهة ما كان يواجهها من تجارب ، ثم نقلت هكذا الى أنظمة التعليم العربية دون مراعاة فوارق البيئة أو تباين العصر ، أو اختلاف الثقافة والعقائد .

ولقد ظل العرب والمسلمون يخضعون لهذه المناهج خضوعاً شديداً ويحاول البعض التخلص من هذه التبعية وهذا النفوذ بعد ان ثبت فشل هذه المناهج

في تكوين الطالب العربي والمسلم وعقدت عشرات المؤتمرات التربوية لإجراء تعديلات وتغييرات تتناسب مع ظروف العرب والمسلمين، ولكن أمراً واحداً لم يكن ليكون موضع الدراسة والاهتمام وهو ذلك الفارق الخطير من ناحية العقائد واللغة والتاريخ؟ ذلك أن هذه المناهج افترضت أساساً أنها خارج نطاق الإسلام واللغة العربية وأنها تدرس علوم الغرب كأنما هي في بيئه غربية خالصة.

لقد سيطرت النظريات الغربية الثلاث (الفرنسية والإنجليزية والأمريكية) على المدرسة، وفرضت أسلوبها، وتجاهلت تماماً أي اعتبار للعربي أو للمسلم، وإنما حاولت ان تشكل هذا الدارس وكأنه غريب تماماً عن بيئته وثقافته. وكانت ظاهرة الانفصال عن الدين والأخلاق هي أبرز معالم المناهج الدراسية، وإذا كان الغرب قد أقام نظرية في التربية والتعلم على أساس إبعاد الدين عن التربية وفق تجربته مع المسيحية الغربية فإن الأمر كان مختلفاً مع الإسلام الذي هو ليس ديناً فحسب، ولكنه فكر وحضارة ومجتمع، والذي لم يقف موقف الصدام مع معطيات العلم أو حركة التقدم، فلظروف خاصة بالغرب انفصلت مناهج التربية والتعليم عن الدين الغربي، ولكن هذه الظروف لم تواجهها المجتمعات العربية الإسلامية، ولم تكون مناهج التربية والتعليم الإسلامية قادرة على ان تنفصل عن الإسلام الذي هو بثابة الأساس المكين لكل مقومات المجتمع والعلم.

وال التربية الإسلامية تقوم أساساً على بناء الشخصية الإنسانية على أساس الإيمان بالله والمسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي، وهذا يعني ان فصل مقومات الخلق والعقيدة عن التربية من شأنه ان ينشئ شخصيات هشة ضعيفة لا تعرف مسؤوليتها إزاء مجتمع يواجه التحدي الخطير الدائم من قوى الاستعمار الغربية المتسلطة بالغزو العسكري والسيطرة الاقتصادية.

ولا ريب ان الغرب حين يسيطر على مقدرات العالم الإسلامي في مجال

للتربية والتعليم والثقافة إنما يحاول أن يحجب عن المتعلمين هذا التحدى الخطير المائل الذي هو بشارة الرأس من الجسد والذي لا يمكن للعرب والمسلمين ان يتتجاوزوه في مرحلة من أخطر مراحل حياتهم التاريخية .

ومن هذا التحدى وحده نواجه ذلك الخلاف الكبير بين أساليب التربية ومناهجها في الغرب وفي عالم الاسلام ونحتاج الى امتلاك الإرادة القادرة على بناء مناهج تربية إسلامية عربية قادرة على بناء الشخصية الانسانية الصامدة.

ومن المجب ان هذه التجربة الخطيرة التي استمرت اكثر من مائة عام لم تزل عاجزة عن ان تدفع أولي الرأي في العالم الاسلامي الى كسر هذا القيد وبناء منهج تربوي إسلامي أصيل قادر على إعداد الاجيال القادرة على مواجهة الأخطر ، وما نزال غارقين في التبعية لأساليب التربية الغربية نتيجة لسيطرة الرجال الذين أعدتهم التغريب والغزو الثقافي لتولي مناصب القيادة الثقافية والفكرية .

وما تزال أنظمة التربية والتعليم في الغرب تنحدر عاماً بعد عام ومرحلة بعد اخرى تحت سلطة الأهداف التلمودية الصهيونية ، وما زلنا ننقل آخر مودات التعليم ، ذلك ان آخر الصيحات التربوية الغربية التي تدعوا الى التعليم الحر والداعية الى مذهب افعال ما تشاء ليست بمناهج اصيلة ، وإنما هي مراحل مرتقبة من هرائهم الفكر الغربي والمحداره وسقوطه في بران الأسلوب التلمودية التي هدمت الاسرة وأثارت موجات التحلل والهيبية والتحرر من الضوابط التي يقادى منها المجتمع الغربي . فكيف يمكن لمجتمع تام في طريقه الى البناء ان يتخد من أنماط مجتمع منهار أسلوباً لحياته وتكتوينه ؟

( ٣ )

إن أخطر الخلافات بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي إنما تنصب على مفهوم التربية نفسه ، فالغربيون يرون ان التربية هي إعداد الأجيال لمواجهة المجتمعات المتغيرة على نحو يكتنفهم من ان يلأنوا بين أنفسهم وبين هذه المجتمعات ، وتلك هي أحدى نظريات التربية الغربية ، ولا ريب أننا في عالم الاسلام والأمة العربية نفهم التربية على نحو أعمق وأوسع وأكثر وفاء لأمتنا وعوائدها . ونحن نعرف ان النظريات الغربية في أي ميدان من الميادين إنما تستمد وجودها من أساسين : ( الاول ) هو المادية التي لا تجعل للمعنويات أو الروحانيات أو ما يتصل بالدين والأخلاق أساساً .

( الثانية ) هي التخصص والتجزئة والانشطارية من حيث ان تقوم كل مجموعة من الباحثين في مجال النفس أو الأخلاق أو الاقتصاد أو التربية بالانفصال عن الطائفة الأخرى .

أما في مجال الفكر الإسلامي فإن الأمر مختلف كثيراً ، فالتفكير الإسلامي يقوم على قاعدة التكامل بين القيم المختلفة لا الانفصال بينها أو الصراع ، فال التربية مرتبطة بالمجتمع والأخلاق وبالاقتصاد وبالنفس على قدر واضح تتصل به وتنتكامل معه ، ثم تأخذ طابعها الخاص دون ان تنفصل .

كذلك فالتفكير الإسلامي يزاوج بين الثابت والمتغير ، وبين القديم والمحدث

وبين الروح والمادة وبين الإلهي والبشري وبين السكلي والجزئي في قناتي واضح ووازن رتيب .

والمنهج الاسلامية سواء في التربية أم في الأخلاق أم في الادب لا تنفصل عن الأصول كما أنها لا تنفصل عن الحركة الدائمة ، فهي توائم بين الارتباط بالأصل الذي هو بمشابه الإطار الثابت وبين الحركة التي هي من طبيعة الظروف المتغيرة دون ان يجعلها ذلك بمقدمة وعاجزة عن التطور ودون ان تفلت من إطارها ذاهبة الى أبعاد بعيدة مغايرة لإطارها وأطوالها وقيمها الأساسية .

وفي مجال التعليم تقوم المنهج الاسلامية على أساس تأكيد الرابطة بالارض وهي رابطة الوطن ، وتأكيد الرابطة بالأمة وهي رابطة العروبة ، ولكنها لا تدعها تتحرك في فراغ وإنما في إطار من مقومات الاسلام نفسه الذي هو الأصلة والجذور فلا تمكن لطوابع الوطن أو الأمة ان تعلو على القيم العليا التي جعلها الاسلام اساساً ومنطلقاً من حيث هو نظام ومنهج حياة .

ولقد تقول المنهج الغربية بتطور نظرية التربية بين حين وحين ، وهو تطور جذري غامر يتحرك دون قيد ضابط الى آماد بعيدة من غير ان يلقي بالاً الى أي روابط بالتاريخ أو الجذور أو القيم أو العقائد .

أما موقف الفكر الاسلامي من التربية فإنه يقبل بتطورها دون ان تخرج من أطوارها الأصيلة وقيمها الثابتة ، فتظل متصلة بالجذور وفي نفس الوقت قادرة على المعاصرة والحركة والتقدم .

ولقد نجد بين نظريات الغرب في التربية وبين المنهج الاسلامي فوارق وخلافات كثيرة نتيجة هذا الخلاف الجذري في النظرة العامة في عشرات المواقف والمواضع .

(٤)

تقوم نظرية ديوبي في التربية على مصادر ثلاثة :

[ الديقراطية الليبرالية + الدارونية + البرجماتية ] .

أما الديقراطية الغربية فهي تعتمد النظرية الفردية واستعلاء الإنسان وتحرره من كل عوامل السيطرة ، وهي في هذا الطريق تقوم على سيطرة الإنسان الأبيض صانع الحضارة وعبوديته غيره ، وتنضي في طريق مفاهيم الاستعمار والعنصرية ، وتقف من الإنسان بصفة عامة موقف الفكرة اليونانية الرومانية القديمة : سيادة الغربي وعبودية من سواه .

أما الدارونية فهي تؤمن بالتطور المطلق كما جاء به خلفاء دارون وبذلك لا تؤمن بأن هناك قيمًا ثابتة مطلقة ، وهي بذلك تتجاوز الدين وتؤمن بتطور الأخلاق .

أما البرجماتية فهي لا ترتكز على حقائق ثابتة لذاتها ولكنها توى القيم وسائل تعين على الوصول إلى غايات ، فالفلسفة البرجماتية تنظر إلى النتائج العملية الفعلية للعمل .

ويرى ديوبي أن الأفكار أدوات وآلات يستخدمها الإنسان ليكون علاقة فعالة مع بيئته ، والعقل مجرد آلة يستخدمها في البحث ، ولهذا تجعل البرجماتية

**هدفها الإيجابية عن السؤال : ماذا سنجني من العمل ؟**

ويرى ديوبي أن القيم الصالحة -ليست هي التي تحتوي على مضمون معين- وإنما هي التي تساعد الفرد على تكوين علاقة فضالية مع المجتمع ومع الناس ولذلك فهو في تغيير مستمر وان قيم عصر سابق لا تصلح ليومنا هذا .

ولذلك فإن المدرس في نظره لا يجب أن يعلم القيم بل يجب أن يساعد الطفل على اكتشاف القيم بنفسه .

وبذلك يرفض ديوبي كل ارتباط بين نظم التربية وبين الدين والأخلاق والقيم.

وكل هذه المصادر التي قامت عليها نظرية ديوبي في التربية تقوم على تعارض مع مفهوم الاسلام أساساً ومع مفهومه في التربية ، فهو لا يرى أية حاجة لأن يعلم الحديث ديناً أو خلقاً أو قيمـاً ، وإنما يعلمه شيئاً واحداً هو أنه يعيش في مجتمع متغير وعليه ان يجد الوسائل لكي يستطيع ان يعيش في هذا المجتمع ويتوافق معه أياً كان اتجاهـه وتطوره . فهو قبول بالواقع الذي تسير فيه الحضارة الحديثة والمجتمع الغربي دون ان يتخد إلا الوسائل البرجمانزية التي تستخدم الأفكار والقيم كأدوات فقط .

و ديوبي و مذهبة في التربية لا يؤمن بالترابط بين العقل والجسم ، ولا بين الروح والمادة ، و يدعوا إلى قبول الواقع لا تغييره .

ومن هنا فإن الطفل يجب أن ينشأ في هذه الصراعات ويشترك فيها ويستسلم لها دون أن يعارضها أو يغيرها .

ولا ريب ان هذا الاتجاه وهذا المفهوم يتعارض تماماً مع اتجاه التربية الاسلامية التي تحاول إنشاء أجيال قادرة على التغيير والإصلاح ، وقادمة في عملها وحياتها على أساس الإيمان بالله والمسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي .

ومن هنا فان مذهب ديوبي ليس مقبولاً ، لا كلياً ولا جزئياً مع منطلق التربية الاسلامية بل معارض لها ، ومن هنا كان خطره منذ فرض على مناهج المربين في البلاد العربية والاسلامية .

(٥)

إن مفهوم التربية وفلسفتها بصفة عامة في الغرب يتعارض مع مفهوم التربية الإسلامية ، ذلك أنها تحاول ان تقدم للحدث المفاهيم الأولية للحياة مستمدة من نظريات الفكر الغربي ، فالإنسان حيوان كما تقول نظرية التطور . وتنطبق عليه تشريحات الحيوانات والحيشرات ، والجنس هو مصدر كل التصرفات كما تقول نظرية فرويد ، والتطور حركة مطلقة كما تقول نظرية التطور بدون حدود أو ثوابت ، والأخلاقي نسبية لأنها مرتبطة بالعصور والبيئات ، فهي متغيرة والإنسان جسد فحسب وليس هناك نفس أو روح ، والدين من مخلفات العصور البالية سواء أكان أفيوناً للشعوب كما تقول الماركسية أو سلاح الإقطاعيين والأمراء كما تقول الديموقراطية ، والجنس الإبيض تاج الخليقة وصانع الحضارة وهناك جبرية في التاريخ أو حتمية في المادة .

هذه هي الخطوط العامة التي تقوم عليها تربية النشاء وهي مضادة تماماً لمفهوم الإسلام ، فالإنسان في الإسلام سيد الكائنات وهو مستخلف في الأرض ولكنها ليس سيداً مطلقاً بل مسؤولاً ، وليس حيواناً مطلقاً ولكنها روح بمادة ونفس وجسم ، ولا تطبق عليه تشريحات الحيوانات والحيشرات لأنه يتميز بالعقل والارادة . والجنس ليس مصدر كل التصرفات وليس المادة مفسرة وحدتها للتاريخ ولكن الجنس والمادة عاملان من بين عدة عوامل منها الدين والعنصر والمناخ .

فإذا قامت فلسفة التربية على المادية وعلى إنكار الجوانب الروحية والمعنوية فقد أقامت من الإنسان مفهوماً ناقصاً وقاصرأ . وإذا قامت على أساس انه الانسان حر الطبيعة والمسؤولية فقد تجاوزت مفهوم الاسلام الذي يعطي الانسان حرية الارادة ولكنها يجعله موضع المسؤولية ، وإذا رأت ان تجعل بين الله والانسان حلولاً أو اتجاداً فقد عارضت مفهوم الاسلام وأنكرت المسؤولية الفردية التي هي أساس الجزاء .

كذلك فان مفهوم التربية الغربية يعارض مفهوم التربية الاسلامية في أمور عديدة منها الإلحاح على اعتبار الدين قضية شخصية لا علاقة لها بالدولة ولا بالمجتمع ، وهذا ما لا يقره الاسلام ولا يقول به ، فالدين أساساً منهج حياة ونظام مجتمع . ولذلك فإن نظرية فصل الدين عن الدولة نبات غربي لا ينمو في بيئه المجتمع الاسلامي ، كذلك فالاسلام لا يعتبر الدين عائقاً في سبيل النهضة أو التقدم بل يعتبره معيناً ومساعداً ، كذلك ترى التربية الغربية ان ضوابط الأخلاق تعيق التقدم بينما يفرق الاسلام بين الأخلاق والتقاليد التي تبدو جميماً في نظر الغرب وكأنها من صنع المجتمع ، أما قيم الأخلاق فإنهما ثابتة ومتصلة بالانسان وليس بالمجتمعات كالخير والشر والحق والباطل وهي مما لا يقبل التطوير أو التغير ، أما التقاليد التي هي من صنع المجتمع فهي تتبدل وتتحول ، ومن هنا لا يقر مفهوم التربية الاسلامي ان القيم الاخلاقية تتتطور بتطور المجتمعات أو وسائل الانتاج .

(٦)

تؤمن التربية الاسلامية اساساً بالأخلاقية . فأخلاقية التربية دعامة حقيقية لا سبيل الى تجاوزها . و تستمد أخلاقية التربية عنصرها من حركتها في إطار الدين نفسه ، وليس خارجاً عنه ومن هنا ترکز التربية الاسلامية على الاسرة كقاعدة ثابتة للأمة . وتتنمي في الأم مسؤولية واضحة ، وفهمًا واسعًا يمكنها من تكوين النشاء الجديد ، ويحمل لها وللأب مسؤولية أساسية في إعداد الجيل القادم .

والفرد المسلم ليس في صراع مع مجتمعه ولكنه في مواممه ، وليس في صراع مع الجنس ولكنه في توازن مع حاجاته وقدراته . ولقد أقام الاسلام للجنس مفهوماً قريباً الى الفطرة فأباح الاتصال بين الرجل والمرأة ، ولكنه نظمه ووضعه في إطاره الصحيح الذي يعلى من شأنه ويكرم المرأة ولا يذلها ، ثم جعل هذه الإباحة قائمة ثابتة ليس فيها خلاف وليس لها موضع صراع ، ولكنه سمح لكل من يستطيع ان يقيم الاسرة ولمن لا يستطيع ان يؤجلها ويعليها حق يتاح له ذلك .

كذلك فالإسلام يرى الاسرة دعامة ويرى الزواج فطرة ويرى تنظيم ذلك كله في إطار الدين شريعة تتحقق سلام المجتمع وتحفظ كيان الأفراد . فالأخلاق ليست قيادة ولكنها ضوابط تكون من قيام المجتمع الكريم والاسرة السليمة .

ولقد جاءت إطلاقات الغريرة الجنسية في الغرب فتبيحة إنكار الدين الغربي لها وإنكاره لطبيعتها ، فسكان لا بد من التحول من النقيض إلى النقيض وما يقاسيه المجتمع الغربي الآن من ثورة جنسية وانفجار في العلاقات بين الرجل والمرأة إنما هو رد فعل الحرمان الذي أطلقته الكنيسة للعلاقات الطبيعية بين الرجل والمرأة .

أما المسلمين فإنهم لم يصادروا هذه الأزمة لأن دينهم اعترف بمحاجات الجسد وأباحها ووضع لها الاطار الذي تتحرك فيه والضوابط التي تحفظها من الأضطرابات .

وإذا وصفت المفاهيم الغربية الأخلاق بأنها عادات اعتادها الشخص في الأغلب ، ولذلك فهي ليست ثابتة وهي في نفس الوقت ترتبط بالمجتمعات والمصور ، فإن ذلك موضع خلاف عميق مع المفاهيم الإسلامية وربما يرجع في الأغلب إلى مادية النظرية الغربية التي لا تفرق بين الأخلاق المرقبطة بالدين وبين العادات والتقاليد المرتبطة بالمجتمع ، والأولى ثابتة والآخر متغيرة ، ومن شأن ذلك فإن المسلمين يرون في الأخلاق قيمًا أساسية لا تتبدل على مدى العصور أو اختلاف البيئات ، بينما يرون في العادات والتقاليد قيمًا متغيرة يصيبها الضعف والتفسخ .

ونحن حين ننظر إلى المفهوم الغربي للأخلاق الذي يراد طرحه في أفق الفكر الإسلامي وبناء منهج التربية في العالم الإسلامي على أساسه نذكر جيداً مصدر ذلك الذي تشير إليه بروتوكولات صهيون حين تقول في إحدى موادها الأساسية :

« يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق في كل مكان فتسهل سيطرتنا. إن فرويد هنا ، وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس لكي لا يبقى في نظر الشباب شيء مقدس ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية وعندئذ تنهار أخلاقه » .

ونحن نعرف ان فرويد دعا الى نسبية الاخلاق ووصف الاخلاق بطابع القسوة حتى في درجتها العادلة، وقال إن التسامي بالنفس هو نوع من الشذوذ.

ولقد هوجمت هذه الآراء في الغرب قبل ان تهاجم في الشرق ، ولكن القوى الخفية مـا زالت تدفعها وتقدمها في كل مكان حتى في مجال دراسات التربية الحديثة وفي الغرب حقيقة قائلة الان تزري بهذا الاتجاه وتقول بأن العالم تضخم جسمه وضعفت روحـه ، وان الاخلاق لم تتقدم بالسرعة التي تقدمت بها الصناعات ، وان تقدم العلوم لم يضمن ارتقاء الاخلاق .

وإن هذه الفلسفات المادية مـا تزال تهدم الایمان القديم ولكنها لم تـشأ ان تكون إيماناً جـديداً فـهي تثير الشبهـات والشكوك وتدع الاجيـال الجديدة حائرة ، وذلك هو أسلوب التلمودية الصهيونية .

ولا ريب ان التزاوج بين انتـمازية مذهب البرجـاقية وتحـلل مذهب فـرويد من شأنـه ان يجعل التربية الغربية فاسدة فـساداً شـديداً لأنـها لا تـتحرر من الاخـلـاقـية فـحسبـ ، بل هي تـعارضـ هذهـ الاخـلـاقـيةـ وـتـزـدـرـيـهاـ وـتـصـفـهاـ باـلـجـمـودـ وـالتـخـلـفـ .

(٧)

من وجوه الاختلاف البعيدة المدى حرص الجامعات الاجنبية في البلاد الاسلامية على ان تقدم دراسات عن العلوم الانسانية التي تتصل بالتاريخ وعلم النفس والاخلاق والعلوم الاجتماعية والفنون الى جانب دراستها عن العلوم الطبيعية والرياضية وغيرها، أما العلوم الانسانية فإن للعرب وال المسلمين مفاهيم فيها تختلف عن مفاهيم الغرب، مستمدۃ من ثقافتهم وقيمهم وعقائدهم ولذلك فإن إصرار هذه الجامعات التي هي إرسالیات تبشيرية في الأساس على تدريس هذه المواد من شأنه ان يخرج اجيالا لا تفهم مجتمعها وقيمه إلا من وجهة نظر الغرب وطبق مقررات الاستشراق ، وهي وجهة نظر مختلفة تماماً لمفهوم العرب ومعارضة تماماً لأصالتهم وأهدافهم .

وقدعي هذه الجامعات أنها تقدم هذه الدراسات بأسلوب علمي ، هذا الاسلوب العلمي لا يصلح كثيراً لدراسة العلوم الانسانية لأنه يقوم على قواعد الاسلوب التجاري الذي يطبق في دراسات المادة والجذاد والطبيعة بينما الدراسات الانسانية المتصلة بالنفس والاخلاق والمجتمع لا يصلح لها إلا اسلوب آخر .

ونحن حين نقدم للدارس المسلم والعربي نظرية دارون على أنها مسلمة علمية ونقيم عليها مفهومه عن الانسان فيتقرر في نفسه أنه حيوان ثم نعلمه مفاهيم سبقت في التطور المطلق للمجتمعات استمراراً من نظرية دارون في التطور

البيولوجي ، فإننا حينئذ نفصله عن أساس عميق وأصيل في الفكر الإسلامي تضطرب معه كل النظريات والمفاهيم والقيم .

ذلك ان الاسلام والفكر الاسلامي لا يقر ما طرحته نظرية دارون من فرض بأن الانسان حيوان ولا ما فرضه سبنسر من تطور المجتمعات الى غير ما نهاية ، وكان الأولى بهذه الجامعات إذا درست هذه المواد ان تدرسها على أنها نظريات وفرض قد تصح وقد تخاطئ ، وان هناك بين باحثي العلوم من عارض نظرية دارون ونظرية سبنسر وكذلك الامر في فرض « فرويد » الذي تدرس على أنها مسلمات في علم النفس ، بينما توجد عشرات المدارس ووجهات النظر في هذا المجال .

ونحن نعرف ان النظريات تتغير ، وتختلف ، وتتحول سريعاً سريعاً حقاً ما يصدق منها في زمن ما أو فترة ما لا يصدق في زمن وفترة اخرین . فلماذا نقدم للدارس المسلم والعربي مثل هذه النظريات والفرض التي هناك معارضات كثيرة لها في إطار البحث العلمي فضلاً عن معارضات الفكر الاسلامي لها . وفق مقرراته الأساسية .

ولا ريب ان تقديم هذه الفرض على أنها مسلمات تبني عليها نظرة الدارس الى الانسان والمجتمع والحياة من شأنه ان يؤدي الى فهم مفاهير تماماً لفهم الاسلام . وهذا ما تقصد اليه هذه الجامعات بتدریسها العلوم الانسانية التي ليس المسلمين والعرب في حاجة اليها من الغرب ، وإنما هم في حاجة الى العلوم الطبيعية والتجريبية التي تنتهي اساساً . كذلك فإن جامعة الدراسات تعلم الشباب المسلم والعربي مادة التاريخ ما قبل الاسلام وما بعده والمصر الحديث على نقط مضطرب اشد الاضطراب مفاهير لوجهة النظر العربية الاسلامية تماماً ذلك ان ما يعرض عليه هو وجهة نظر الغرب في مفهوم التاريخ من حيث إن الغرب صاحب السيادة الحالية على الحضارة والسيطر بالاستعمار على

## عوالم كثيرة منها عالم الاسلام .

كذلك فإن للغرب وجهة نظر بالنسبة لتاريخ اليونان والرومان مختلفاً عن وجهة نظر العرب وال المسلمين ، فتحتاج كمسلمين وعرب نواجه المجتمعات السابقة للإسلام بفهم يقوم على ضوء ما قدمته رسالات الأنبياء للأمم وما عارضت به الأمم رسالات الأنبياء من مفاهيم وفلسفات وفكير بشري وكيف جاء الإسلام ليصحح هذه المفاهيم ويحررها من الزيف ويعيد تقديم الفكر الرباني الأصيل للإنسان من جديد .

هذا المفهوم الإسلامي وهذا الموقف يختلف تماماً بل ويعارض تماماً موقف الغرب ، فتحتاج حين مدرس مادة التاريخ في الجامعات الارسالية إنما تتبني وجهة نظر الغرب إلى الإسلام والعرب والاديان ، وهي وجهة نظر معايرة تماماً وتعني أن يكون الدارس غربي الفكر ، فهو لا يصلح مطلقاً لأن يكون قائداً لأمته ، فإذا قادها أودى بها إلى مهابي الهاك .

كذلك الأمر فيما يتصل بدراسة العصر الحديث والحضارة الغربية فهنا المفهوم الإسلامي لها مختلف تماماً ، فإن الغرب في العصر الحديث زحف على بلاد العرب والمسلمين فاحتلها وأقام فيها استعماراً خطيراً استنزف مواردها وسيطر على مقدراتها وفرض عليها نظاماً وفكراً ، وحال بينها وبين حرية الحركة والإرادة ، وعارض مصلحيها وقاوم مجاهديها ، وما زال يفرض نفوذه الاقتصادي والثقافي عليها .

أما من وجهة نظر الغرب فسوف تسيطر على الباحث المسلم والعربي دعوى العمل الضخم الذي قام به الغرب في سبيل تمدين هذه الشعوب التي توصف بأنها كانت متخلفة ومتاخرة ، ثم كان الغرب مصدر تقدمها .

هذه هي وجهة الخطر من دراسات الجامعات الأجنبية في بلاد المسلمين ، وهو خطر لا يتوقف عند هذه الجامعات ولكنها يمتد إلى مختلف مناهج

الجامعات الوطنية ايضاً على نحو أو آخر ، فالدارسون في الجامعات العربية لا يدرسون إلا علوم الغرب في الاجتماع والاقتصاد والسياسة وغيرها على أنها العلوم العالمية دون أن يعرفوا ان للإسلام وجهة نظر في هذه القضايا عليهم باعتبارهم أبناء هذه البلاد ان يعرفوها ، وان للإسلام أوليات في جميع مجالات العلم التجاري والعلم الانساني لا يذكرها الذاكرون في مجال البحث بما يشعر الباحث العربي المسلم بأنه عالة على هذه الحضارة الحديثة وان قومه وفكره لم يكن له أي نصيب من الجهد والعمل في بناء هذه الحضارة .

وفي مجال دراسة الحضارة تحاول مناهج الجامعات الارسالية ان تكشف عن الحضارة الغربية سيدة العالم وتحاول ان تصور الحضارة الاسلامية وكأنها راقد من روافدها ، وكل ما قام به المسلمين من جهد في مجال البحث العلمي والعلوم الانسانية يختزل في أنه كان حفاظاً على ترجمات الفلسفة اليونانية ليس إلا ! ومن شأن هذا كله ان يخلق نظرة استصغر واحتقار من الدارسين المسلمين والعرب لأمتهم وحضارتهم ونظرة تمجيد وإكبار للفغرب فلا يجدون مفرأً من تبني الآراء القائلة بالتبعية والانصهار .



## الفصل الثاني

### أوجه النقص في الاقتباس

أبرز أوجه النقص التي تعانيها التربية في العالم الإسلامي نتيجة فرض المناهج الغربية على المدرسة الوطنية هو ظهور طابع الأزدواجية في التعليم وفي الثقافة .

ذلك ان الاسلوب الاستعماري في التعليم استهدف الانفصال عن المنهج القديم دون القضاء عليه وإنشاء منهج آخر مستقل ، ومن هنا سار المنهجان ممّا في وقت واحد ، حمل الاول طابع الدراسة الدينية واللغوية واستأثر به المعاهد الاسلامية كالأزهر والقرويين والزيتونة ومعاهد الحديث وغيرها ، وهذه أقصيّت عن النفوذ السياسي والاجتماعي ، وعزل خريجوها تماماً عن الحياة ، بينما ركزت الوظائف الرئيسية والقيادات العلمية في أيدي خريجي النوع الآخر من التعليم الذي أطلق عليه التعليم الوطني أو القومي والذي فرض الاستعمار مناهجه ونظمها وصاغه على نحو معين لتخريرج بمجموعة من المواطنين ذوي الولاء للغرب وللفكر الغربي وهم في نفس الوقت يحملون بذور الكراهية وجذور الخلاف لخريجي التعليم الديني ، وبذلك تعمقت هذه

الازدواجية ، وترسبت نتيجة لامتدادها آثار بعيدة المدى وكان هذا كله وفي  
بمجموعه خطراً شديداً على حياة المسلمين ومستقبلهم .

يقول الدكتور ظفر احمد الانصاري : هذان النظامان المتنافران ينتجان  
نوعين من الناس ذوي نظريتين مختلفتين الى الحياة وغير قادرين على إدراك وجهة  
نظر كل منها .

ويشير الدكتور الانصاري الى أثر النظام الوارد في التعليم فيقول : إن  
العقل التي شكلها هذا النظام التعليمي قد غلب عليها الإعجاب المطلق الذي  
لا تحفظ فيه ، والتقليد الكامل لكل ما هو أجنبي ، وهي بشكل عام عاجزة  
عن التمييز بين التقدم العلمي من ناحية والمثل الثقافية من ناحية اخرى . وانها  
كانت سبباً في نشأة جيل مجتث الاصول الثقافية ، مما ترتب عليه :

اولاً : ان التزعة الجاحنة نحو التمدن لا تستدرج جماهيرنا للعمل الصبور  
في المختبرات العلمية بقدر ما تستدرجهم الى حفارات المخر وصالات الرقص .

ثانياً : ان الاعجاب المسرف بشعب ما والتقبل الأعمى لمناهبه وآرائه  
وحق طبائعه الفطرية يؤدي الى قتل القدرة على التفكير الأصيل ولا ينتفع إلا  
عقولاً مقلدة .

ومعنى هذا : ان النظام الاجنبي الذي استقدم الى بلادنا يشكل تهديداً  
أكيداً لقدراتنا على التحizيز بذاقتنا وتهديداً لقدراتنا على الارتباط بديننا  
وتهديداً لما نؤمن به من ان نكون شعباً يحترم ذاته .

وان الازدواجية قد خلقت اتجاهين متناقضين وأوجدت قوى هائلة من  
النزاع الداخلي تهدد كياننا كشعب ذي عقيدة ورسالة محددة .

وان هذا يستدعي - كما يقول الدكتور الانصاري - الى التفكير جدياً  
في إيجاد نظام آخر جديد .

(٢)

ترتب على هذه الأزدواجية آثار بعيدة المدى أهمها : الانشطار والثنائية في الكيان الاجتماعي والفكري للأمة ، وقد صور هذا دكتور محمد فاضل الجلاي حين قال :

« لا شك ساعدت التربية الغربية كثيراً على توسيع آفاق اختبارات الشعوب الإسلامية وذلك بتوعية هذه الشعوب وجعلها تدرك موقعها في عالم اليوم ، ولكن التربية الغربية تحمل في طياتها جرائم التفسخ الاجتماعي والأخلاقي والروحي للعالم الإسلامي ، ولذا وجب دراستها دراسة انتقادية .

فالمشاكل والمخاطر التي تحملها لانا التربية الغربية تتأتى إما عن طريق اقتباسنا للتربية الغربية اقتباساً مستعجلأ دون ان تنسجم انسجاماً كاملاً وتتلاءم مع احتياجات الشعب وتقاليده الروحية ، أو لأن هذه المشاكل والمخاطر كامنة فعلاً في التربية الغربية ذاتها . (ذلك) ان اقتباس التربية الغربية بدون ربط كاف لهذه التربية بالقواعد التربوية التي تشمل دين الشعب ولغته و تاريخه القومي والفنون والأداب المحلية ، قد أوجد انشطاراً وثنائية في الكيان الاجتماعي والفكري للشعب . إذ ان وجود جماعة يفكرون ويتحدثون بلغة عربية وتعابير جديدة بينما هناك جماعة اخرى من ابناء الشعب ذاته تفكرون وتتحدث في تعابير قديمة مما يسبب فقدان الوحدة والانسجام .

وهذا مـا حـدث في عـدـ من الـبـلـادـ الـاسـلـامـيـةـ الـأـمـرـ الـذـيـ يـشـكـلـ مشـكـلةـ ثـقـافـيـةـ وـاجـتمـاعـيـةـ وـسـيـاسـيـةـ كـبـرـيـ .

ويرى الدكتور الجمالـيـ انـ هـنـاكـ سـبـعـةـ آـثـارـ خـطـيرـةـ لـلـاقـبـاسـ الـفـاسـدـ :

أولاًـ : إنـ التـرـبـيـةـ الـغـرـبـيـةـ وـلـاـ سـيـاـحـةـ تـلـكـ الـتـيـ تـقـدـمـهاـ المـدـارـسـ الـاجـنبـيـةـ أوـ المـدـارـسـ الـوطـنـيـةـ الـتـيـ تـقـلـدـ الـغـرـبـ قـدـ تـهـمـلـ اـحـيـانـاـ الـلـغـةـ الـقـومـيـةـ فـتـكـوـنـ النـتـيـجـةـ انـ الـطـبـقـةـ الـمـتـعـلـمـةـ تـسـتـعـمـلـ فـيـ بـيـنـهـاـ لـغـةـ أـجـنبـيـةـ .

ثانـيـاـ : فـيـ اـقـبـاسـ التـرـبـيـةـ الـغـرـبـيـةـ تـتـجـهـ الـعـنـايـةـ فـيـ الـفـالـبـ إـلـىـ الـقـالـبـ وـالـمـظـهـرـ أـكـثـرـ مـنـ الـحـقـيقـةـ وـالـجـوـهـرـ فـالـطـالـبـ الـمـسـلـمـ الـيـوـمـ قـدـ يـعـنـىـ وـيـقـلـقـ مـنـ اـجـلـ الشـهـادـةـ وـالـلـقـبـ الـعـلـمـيـ أـكـثـرـ مـنـ اـهـتـامـهـ بـالـضـبـطـ الـعـلـمـيـ .

ثالثـاـ : اـقـبـاسـ التـرـبـيـةـ الـعـرـبـيـةـ يـؤـكـدـ عـادـةـ عـلـىـ عـمـلـيـةـ الـحـفـظـ أـكـثـرـ مـنـ التـأـكـيدـ عـلـىـ التـفـكـيرـ وـالـفـعـالـيـةـ وـالـبـحـثـ (ـ الشـكـلـ وـالـقـالـبـ فـيـ التـرـبـيـةـ الـغـرـبـيـةـ أـكـثـرـ مـنـ الرـوـحـ وـالـجـوـهـرـ )ـ .

رابـعاـ : إـنـ الـذـيـنـ يـنـالـونـ قـشـرـةـ مـنـ الـثـقـافـةـ الـغـرـبـيـةـ يـصـبـبـهـمـ الـغـرـورـ وـالـادـعـاءـ وـالـبعـضـ الـآـخـرـ يـعـوـزـهـ التـكـيـفـ ،ـ وـيـصـدـقـ هـذـاـ حـيـنـاـ يـتأـخـرـ اـنـتـشـارـ الـثـقـافـةـ الـعـامـةـ بـيـنـ اـبـنـاءـ الـشـعـبـ .

خامـسـاـ : التـأـكـيدـ حـتـىـ الـآنـ عـلـىـ النـوـعـ الـأـكـادـيـيـ فـيـ التـرـبـيـةـ الـغـرـبـيـةـ وـذـلـكـ عـلـىـ حـسـابـ التـرـبـيـةـ الـعـلـمـيـةـ وـالـتـقـنيـةـ .

سـادـسـاـ : الـكـثـيرـ مـنـ يـنـالـونـ الـثـقـافـةـ الـغـرـبـيـةـ لـاـ يـعـرـفـونـ شـيـئـاـ كـافـيـاـ عـنـ دـيـنـهـمـ وـلـاـ عـنـ حـضـارـةـ أـمـتـهـمـ وـجـذـورـهـمـ الـرـوـحـيـةـ قـدـ قـلـعـتـ مـنـ تـرـبـةـ بـلـادـهـمـ .

سـابـعـاـ : فـضـلـاـ عـنـ اـعـتـيـادـهـمـ عـلـىـ الـمـشـرـوـبـاتـ الـكـحـولـيـةـ وـالـانـفـهـاسـ فـيـ التـمـتـعـ بـالـشـهـوـاتـ وـالـتـحلـلـ الـخـلـقيـ .

( ٣ )

يكاد أغلب دعاة الفكر الغربي والثقافة الغربية والمتأثرين بالتربيـة الغربيةـ  
ان يحـمـعوا على فسـاد عمـلـية الاقـتبـاسـ من التـربـيـةـ الغـرـبـيـةـ ، لأنـهاـ حـرـصـتـ عـلـىـ  
ان تـنـقـلـ الـحـاذـيرـ وـالـسـلـبـيـاتـ وـاـوـجـهـ النـقـصـ بـيـنـماـ تـرـكـتـ الـايـحـابـيـاتـ وـالـقـوـاعـدـ  
الـعـامـةـ الصـالـحةـ لـكـلـ الـامـمـ وـالـعـصـورـ كـأـنـاـ كـانـ هـؤـلـاءـ الدـعـاـةـ أـعـدـاءـ لـأـمـمـهمـ  
وـخـصـومـاـ لـأـوـطـانـهـمـ .ـ يـقـولـ سـاطـعـ الحـصـريـ :

إن نظام التعليم في أي بلد لا يكون نظاماً قائماً بذاته ، يعمل بمفرده  
مجـرـداـ عـنـ النـظـمـ العـائـلـيـةـ وـالـقـوـمـيـةـ السـائـدـةـ فيـ الـبـيـئـةـ الـقـيـ يـنـتـسـبـ إـلـيـهاـ وـإـنـماـ  
يـكـونـ جـزـءـاـ مـنـ بـجـمـوعـةـ النـظـمـ الـاجـتـمـاعـيـةـ وـالـخـاصـةـ بـتـمـلـكـ الـبـيـئـةـ ،ـ وـهـوـ يـعـملـ  
معـهـاـ وـيـؤـثـرـ فـيـهـاـ وـيـتأـثـرـ بـهـاـ عـلـىـ الدـوـامـ ،ـ وـيـتـبـيـنـ مـنـ ذـلـكـ أـنـ النـظـمـ التـعـلـيمـيـ  
الـقـائـمـ فـيـ بـلـدـ مـنـ الـبـلـادـ إـذـاـ اـنـتـقـلـ إـلـىـ بـلـدـ آـخـرـ ،ـ بـمـاـ إـنـهـ يـنـتـقـلـ بمـفـرـدـهـ وـيـنـفـصـلـ  
عـنـ سـائـرـ النـظـمـ الـقـيـ تـرـافـقـهـ فـيـ مـنـشـهـ الـأـصـلـيـ لـاـ يـكـنـ أـنـ يـعـطـيـ نـتـائـجـ مـيـاـنـةـ  
لـلـقـيـ يـعـطـيـهـاـ فـيـ بـيـئـتـهـ الـاـصـلـيـ وـهـذـاـ هـوـ نـتـيـجـةـ ضـرـرـ الـاقـتبـاسـ بـدـوـنـ تـأـمـلـ  
وـتـكـيـيفـ (١)ـ .ـ

ويواصل تفسير وجهة نظره هذه فيقول :

---

(١) كتاب حول الوحدة الثقافية العربية .

إن البلاد العربية تسير في شؤون التعليم على طرق تخالف المبدأ ، فبعضها يتوجه نحو النظم الأوروبية وحدها ، وبعضها يسير نحو النظم الأنجلوأمريكية ، وبعضها يستلهم النظم الأمريكية ، ويقوم جدال وكافح بين مؤيدي هذه الأنظمة بصورة علنية أو خفية .

وعلى العرب أن يعدلوا عن الاستمرار في هذه الخطط .

فقد لاحظ زعماء الإصلاح في اليابان أن الطلاب الذين يدرسون في بلد من البلدان الغربية يبقون تحت تأثير تلك البلاد بصورة لاشعورية ، فقرروا ان يفرضوا على كل طالب يدرس في بلد من تلك البلاد ان يقضى سنة في بلد آخر قبل ان يعود الى اليابان ليستطيع ان يوسع أفق انتظاره ومطالعاته ويصبح أكثر إدراكاً لمقومات الحضارة الغربية من غير ان يبقى مبهوراً بإحدى البلاد الغربية على وجه الانحصار .

ويعود مرة أخرى الى القافية فيقول :

إن الاقتباس من نظم التربية والتعليم يجب ان لا يرتكز على نظام أمة من الأمم على وجه الانحصار ، بل يجب ان يقوم على دراسات شاملة على استعراض كل النظم القائمة في البلاد الناهضة .

ونضيف الى ما يراه ساطع الحصري : وان تجري دراسة هذه النظم وعملية الانتقاء في ضوء الأصول الأساسية للتربية الإسلامية نفسها بحيث لا يقبل ما يتعارض مع قواعدها الأصلية وهي : التوحيد والإيمان بالله والمسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي والجزاء الأخرى .

(٤)

أكمل أكثر الباحثين في التربية أن معايير النظم التربوية الغربية الوافدة خقدان المثل الاجتماعية العليا ، يقول دكتور بانيكار :

كانت التربية في ظروف الوضع الاستعماري محافظة جامدة لأنها لم يكن من مصلحة الأجنبي المستعمر الذي يبغى استغلال البلاد ان تروج تربية حيوية تدعى الى الانطلاق ، والنفسية التي كان يراد خلقها لدى النشء كانت تمثل بالطبع الى التقليل من قيمة الثقافة الوطنية مع تمجيد فضائل السيد الأجنبي ، وكانت أبرز أهداف التربية الاستعمارية إثارة الروح الانهزامية في نفوس المواطنين لتمكن من التحكم بهم وبخراطهم دون عناء كبير .

والآن وقد تخلى الاستعمار عن أغلب بلاد العالم الإسلامي فهل زالت هذه الروح من مناهج التعليم ؟ صحيح أنها زالت من حيث الإطار العام ولكنها لا تزال باقية مسكونة في أعماق البرامج والمناهج تقديرًا للغرب والحضارة الغربية وإنما بها وراءها ، دون ما قدرة على إثارة الروح الإسلامي ومفاهيمه وقيمه وبناء أجيال جديدة عليه .

فما زالت البلاد الإسلامية عاجزة عن ذلك نتيجة تملّك الطلائع التي ما زالت تسيطر على أنظمة التعليم وتحول دون تغييرها .

فالأساتذة فؤاد جلال وعبد العزيز القوصي وأسماعيل القباني وطه حسين كانوا حريصين تمام الحرص على السير في نفس الإطار الذي تجري فيه مناهج التربية ، وكان خلافهم على الولاء الفرنسي أو الأمريكي ولكن فلسفة ديوبي كانت مقبولة لديهم جميعاً .

كان ارتباط التعليم بالنظم الغربية قاعدة مقررة .  
وكان إبعاد الدين عن مناهج الدراسة والبحث أمراً مفروغاً من إعادة بحثه أو النظر فيه .

ولقد توالي في السنوات الماضية انعقاد مؤتمرات التعليم وأصدرت «شارات» برقة خادعة ، ولكنها كانت تخفي من وراء ذلك إمعانها في الاستمرار في نفس الطريق الذي تسير فيه وتعميقه ، وهي معنة في توجيه مناهج التعليم وجة غربية صرفة أي وجة عالمانية لا دينية «تؤدي إلى ضياع الجيل القائم والجييل القادم ضياعاً لا تقوم معه نهضة في هذه المنطقة مما يمكن للبيهود ولشيعتهم الذين يتولونهم من دول الاستعباد الغربي وذلك بترويج بعض الآراء والأساليب التربوية والنفسية الفاسدة » وكلها مذاهب هدامة تحمل اسم العلم الحديث . وخاصة في مجال العلوم الاجتماعية والأنثروبولوجيا .

وقد ثبت تماماً ، ان كل الخطط التي تسير فيها نظم التعليم في البلاد العربية لن تؤدي الى تحرير هذه الأمة لأنها تستمد مناهجها من أنظمة مدارس الارساليات ومنها التعليم في لبنان وانها بعد ان تحررت من نفوذ الاستعمار لم تستطع حق الان ان تتحرر من سلطانه على التربية والتعليم الذي يستخدمه الان من أجل حماية نفوذه استبداداً واستعماراً في آن .

وما تزال الحقيقة التي لم تتغير تصل الآذان بأن استمرار اللجوء الى تبني الطريقة الغربية في صوغ مناهجنا التعليمية سيجعلنا تابعين وعبيداً للمغرب وسيفقدنا شخصيتنا .

يقول أحد كبار مربى هذه الأمة وأئتها :

« إن الفكرة التي تسود عقول رجال المعرف هي وجوب إبعاد المنصر  
الديني عن العقول والأذهان حتى تكون المدارس علمانية فقط وإن كان الكثير  
منهم لا يستطيع الجاهرة بهذا الرأي ، الدافع لهذا الرأي هو تقليد أوربا  
ونظمها إعجاباً يدفعنا إلى السير وراءها » .

ومن أبرز عوامل امتداد هذا الخطر بالرغم من محاولات الإصلاح والتغيير  
الكثيرة هي أن بعض القادة والمتصدرين في مجالات السياسة والحكم في البلاد  
الإسلامية كانوا نتاج نظام التعليم الغربي ، فهم ما زالوا يدينون له بالولاء ويبقى  
بعد ذلك أن يدمفهم دكتور عمر فروخ بهذا الحكم :

« وجدت بعد ثلاث واربعين سنة من التعليم ان طلابنا وتلاميذنا وهم  
مجموع الأجيال المقبلة قد فقدوا كثيراً من الخلق الديني الذي كان لا يزال  
 موجوداً في التلاميذ الذين عرفتهم في عشر العشرين وعشرون الثلائين وعشرون  
 الأربعين ، ثم وجدت في السنوات الأخيرة بين الطلاب حركات واتجاهات  
 مؤسفة ، وحالات لا تعكس النقص في التربية الدينية فحسب ، بل تتعكس  
 على الوجود الاجتماعي والطبيعي للأمة كلها » .

(٥)

إن مسألة فصل الدين عن مناهج التربية والتعليم هي من أخطر المحادير وهي من أسوأ الاقتivasات التي تدل على سوء النية والتبعية المفرضة ، فقد أساء هذا الى الاجيال المتواالية إسامة شديدة .

وحيث يراد منا ان ننفصل في العالم الاسلامي عن عقيدتنا نجد الامم جميعاً تربط بين التربية والعقيدة . والعقيدة عندنا ليست ديناً عبادياً فحسب ولكنها نظام اجتماعي كامل والتربية نفسها جزء منه .

يقول العلامة أبو الحسن الندوبي في هذا الصدد<sup>(١)</sup> :

في الغرب لا يسمح للمواد التي تبشر بذور الشيوعية والماركسية وتسهّلها بفكرة الملكية وتشويه الثروة وتنظيمها على غير أسس الشيوعية والماركسية ولا يسمح ولا يفكّر في استيراد أقل عدد من الأساتذة السوفيات مهماً بلغوا من البراعة والإبداع والتفوق في العلوم والفنون .

كذلك : لا يسمح قادة التربية والتعليم في الغرب «باستيراد» منهج تعليمي من بلد الى بلد ولو كانوا يلتقيان في العقيدة والفكرة الأساسية في الاجتماع

---

(١) نحو التربية الاسلامية الحرة .

والنظرة الواحدة الى الانسان والحياة والكون .

وبالرغم من اللقاء في اللغة والثقافة بين أمريكا وإنجلترا ، وفي المذهب البروتستانتي فإن الموجهين لسير التربية والتعلم لا يرون استيراد مناهج التعليم من بريطانيا . ومن رأيهم ان نظام التعليم ليس من البضائع التي تستورد من بلد الى بلد .

ويقول الدكتور كانت : إن عملية التربية ليست تعاطيًّا وبيعًا وشراء ، ولن يست بضاعة تصادر الى الخارج أو تستورد من الداخل ، إنما في فترات التاريخ خسرنا أكثر مما ربحنا باستيراد نظرية التعليم الانجليزية أو الاوربية الى بلادنا الأمريكية .

ويعاود الأستاذ الندوى القول : إن التربية في نظر هؤلاء القادة الذين يغدون على شخصية وذاتية بلادهم « لباس » يفصل على قامة هذه الشعوب وملامحها القومية وتقاليدها الموروثة وأدابها المفضلة وأهدافها التي تعيش لها . إنه « لباس » يجب ان ينسجم مع اجواءها وبنيتها التي تعيش فيها والآداب التي تختضنها والتاريخ الذي تفار عليه .

وإذا كان الغرب يفعل هذا في مثل هذه الدقائق التفصيلية والفرعية في جو تحكمه لغة واحدة وثقافة مشتركة فكيف بنا وبيننا وبين الفكر والثقافة واللغة والعقيدة والآداب والأخلاق الغربية فوارق عميقة .

ولماذا يراد لنا ان نكون تابعين ، ومحظيين ، وساقطين في احضان التغريب والسيطرة الثقافية .

ويتحدث الباحثون عن شؤون التعليم والتربية ان الشاعر فخته عند هزيمة ألمانيا لفرنسا نابليون ، دعا الى إعادة النظر في طرائق التربية والتعليم وعمل الى تحرير المناهج من الإسفاف والإباحة فكان نتيجة ذلك النصر في معركة (سادو) وغيرها من معارك السبعين .

ويردد علماء الاجتماع ان الدول التي تجتاحها هزات عنيفة فإنها تتنهى تواً الى ان مصدر الخطر هو فساد نظام التعليم فتعمد النظر فيه .  
فاما لا تهزا ضربات الصهيونية العالمية وغزوها الظاهر والمقنع وسيطرتها على مناهج التعليم الغربية وما اقتبس منه في بلاد الإسلام ؟  
إن الصهيونية العالمية قد سيطرت على التعليم الغربي وجردته من كل القيم والمثل وحررته من الاخلاق والدين لهدف معروف ، وهي تسعى الآن لتطبيق ذلك في أفق التربية الإسلامية .

ونحن نعرف ان المدرسة هي التي تستطيع ان تغير نظام المجتمع بما لا تقدر عليه سائر المؤسسات الاجتماعية ، وان طريقة الاصلاح تكمن في عبارة (ارسموش) التي يرددوها الغربيون ونأخذ منهم كل شيء عمياناً مصفدين ولا نصفي الى الحقائق التي يمكن ان تثير لنا الطريق .

يقول ارسموش : « سلمني إدارة التربية رديماً من الزمن ، أتعهد لك بأن أقلب وجه العالم بأسره » .

لست أدرى كيف نعرف هذه الحقائق ثم يصر رجالنا على عزل الاسلام عن مقومات مناهج التربية والتعليم ويخدعوننا بأن يجعلوا الدين مادة تدرس .  
إن الاسلام ليس ديننا عبادياً لا هو تيأكي يدرس ، إنما الاسلام هو روح الفكر والثقافة والتربية والقيم الاجتماعية والسياسية والقانونية جميعاً وهو قوامها .

إنه ذلك الطابع الذي يطبعها جميعاً بروح الإيمان بالله والالتزام بشرعه وإقامة حدوده وتنفيذ ضوابطه .

ولقد آمن بذلك أكثر من كانوا متبعين للنظرية الغربية وعرفوا مدى خطرا ذلك على أمتنا وعلى كياننا .

يقول الدكتور الجمالي : إن الشاب المسلم الذي يرتاد مدرسة أجنبية لا يتعلم شيئاً عن دينه عادة . وهو لا يدرى بأن للشاب الغربي مدرسة دينية في

البيت أو في الكنيسة إن لم تدرسه في المدرسة . إن التربية الأجنبية تقصـر كثيراً في مهمتها التـربوية حين تـترك الشـباب المسلم محـروماً من مـعرفة أصـول دينـه ، فهو بذلك يخـسر الأسس الضرورـية لأـي شـكل من أـشكال التـربية الـأخلاقـية والـروحـيـة عـلـى أسـس قـوـيـة رـاسـخـة ، والـشـباب المـسلم ذـو الجـذـور المـقـلـوـعـة وـالـنـفـس الـقـلـقة بـسـبـب حـرـمانـه من التـربية الـروحـيـة قد يكونـ سـخـصـاً مـتـشـائـماً وـقد يـصـبـح عـنـصـراً مـشاـغـباً فـي الـجـمـعـه الـذـي يـعيـشـ فـيـه .

ولـقـد نـقلـنـا نـحن مـنـهج مـدـرـسـة الـأـرـسـالـيـات إـلـى الـمـدـرـسـة الـوطـنـيـة دونـ انـ نـقـدـرـ الفـارـقـ البعـيدـ العـمـيقـ بـيـنـ مـنـهجـ التـرـبـيـة الـإـسـلـامـيـ وـمـنـهجـ التـرـبـيـة الـفـرـقـيـ . ذلكـ اـنـ نـظـمـ الـتـعـلـيمـ الـفـرـقـيـ قدـ تـكـوـنـ فـيـ الـفـالـبـ مـبـنـيـةـ عـلـىـ فـلـسـفـاتـ ذاتـ صـفـةـ ثـنـائـيـةـ ، اوـ اـنـشـطـارـيـةـ Dualistsـ فـيـ فـلـسـفـاتـ يـفـصلـ الدـيـنـ عـنـ الدـوـلـةـ وـالـرـوـحـ عـنـ الـجـسـدـ وـالـفـرـدـ عـنـ الـجـمـاعـةـ ، فـالـدـرـاسـاتـ الـعـلـمـانـيـةـ مـثـلاًـ قدـ تـؤـديـ بـسـهـولةـ إـلـىـ الـاتـجـاهـاتـ فـكـرـيـةـ مـشـكـكـةـ اوـ مـادـيـةـ اوـ مـلـحـدـةـ اوـ عـدـمـيـةـ ، وـفـيـ نـشـأـةـ الـشـبـابـ الـمـسـلـمـ عـلـىـ هـذـاـ الـطـرـازـ مـنـ التـفـكـيرـ يـنـشـأـ غـرـيبـاًـ عـنـ مجـتمـعـهـ وـيـعـيـشـ فـيـ فـرـاغـ روـحـيـ .

وـنـحنـ نـعـتـقـدـ إـنـ الـفـلـسـفـةـ الـاـنـشـطـارـيـةـ – اوـ الـثـنـائـيـةـ – فـيـ التـرـبـيـةـ الـفـرـقـيـةـ تـصـبـحـ لـعـنةـ فـيـ حـيـاةـ الـإـنـسـانـ حـيـنـ يـفـصلـ الدـيـنـ عـنـ الدـوـلـةـ وـالـرـوـحـ عـنـ الـجـسـدـ وـالـفـكـرـ عـنـ الـعـمـلـ وـالـعـلـمـ عـنـ الدـيـنـ .

ذلكـ «ـ اـنـ الـاسـلامـ لـاـ يـفـصلـ الدـيـنـ عـنـ الدـوـلـةـ ، وـلـاـ الدـيـنـ عـنـ الـعـمـلـ وـلـاـ الـعـلـمـ عـنـ الـاـخـلـاقـ فـالـدـوـلـةـ وـالـعـلـمـ وـالـاـخـلـاقـ وـالـعـمـلـ ، يـحـبـ اـنـ تـتـفـاعـلـ كـلـهـاـ وـتـتـحـدـ وـفـقـ قـوـانـيـنـ طـبـيـعـيـةـ وـاـخـلـاقـيـةـ ذاتـ مـصـدـرـ إـلهـيـ .

وـالـسـلـمـ الـذـيـ لـاـ يـفـهمـ دـيـنـهـ عـلـىـ الـوـجـهـ الـكـامـلـ قدـ يـقـعـ فـريـسـةـ لـلـفـلـسـفـةـ الـاـنـشـطـارـيـةـ (ـ الـثـنـائـيـةـ )ـ الـقـيـ تـمـارـسـ فـيـ الـفـرـقـ .

وـلـقـدـ سـقـطـ فـعـلـاًـ عـدـدـ مـنـ الـشـبـانـ الـمـسـلـمـينـ ضـحـيـاًـ لـتـرـبـيـةـ غـرـيبـةـ ذاتـ فـلـسـفـةـ اـنـشـطـارـيـةـ (ـ ١ـ )ـ .

(ـ ١ـ )ـ آـفـاقـ التـرـبـيـةـ الـحـدـيـثـةـ لـلـدـكـتـورـ مـحـمـدـ فـاضـلـ الجـمـالـيـ .

## ( ٦ )

إن اقتباس أساليب التربية في شؤون التأريخ والادب والعلم قد أحدث  
أخطاراً بعيدة المدى في النفس العربية والاسلامية .

إن تدريس مادة التاريخ على النمط الغربي إنما تفرض النظريات المادية الأصل  
التي تفسر التاريخ بالمادة أو الاقتصاد أو الجغرافيا ، والتي تنظر إلى العالم كله  
نظرة واحدة ، فلا تفرق بين أمة وأمة أو دين ودين ، ثم هي تحاكم العالم  
على وضعه القائم : بحسبان أن الغرب صاحب الجنس الأبيض هو المسيطر الآن  
والسيد الحاكم وإن الشعوب الملونة هي المستعمرة والمتأنثرة .

ولا ريب أن هذا الوضع هو وضع مؤقت وليس وضعاً طبيعياً ، فقد كان  
العرب المسلمون سادة العالم لألف عام متصلة ، وإن مرحلة الضعف التي تمر  
بهم الآن لا يمكن أن تتخذ ذريعة للحكم على تاريخهم كله .

ومن شأن تقبل هذه الأساليب في دراسة التاريخ ان يجعل الدارس المسلم  
والعربي يحتقر ماضيه وتاريخه وقيمه وأمته ويقف موقفاً يائساً بالنسبة للمستقبل ،  
بينما يلزم ان تكون التربية الاسلامية موجهة لهذا الشباب الى الایمان بمستقبل  
أمته مق عادت الى نهجها الحق وإيمانها بعقيدتها ورسالتها .

كذلك فإن تعلم الأدب على النمط الأوروبى يقود الى جعل الاسلام غريباً  
في عيون الناشئة المسماة ، فهو يفصلهم عن أساس البيان ومصدر الأدب وهو

القرآن الكريم ، فإذا عرض له عن طريق مذاهب لا تؤمن بالوحى والنبوة ، فهي لا تراه منزلًا من عند الله بل تراه من كلام البشر ، فهي تحاكمه وفق مناهج النقد الأدبي كما يحاكم الغربيون التوراة والإنجيل مع الفارق البعيد بين كتب بشرية فقدت أصولها السماوية وبين القرآن الذي هو النص الموثق الذي لم يصبه أي تحرير .

كذلك فهناك خطر المناهج الغربية في الدعوة إلى الفنون والمالفة في الاهتمام بها ومدى خطر ذلك على نقل الأمم من جادة الحق إلى التحمل والرخاوة.

يقول الاستاذ أبو الحسن الندوى : لقد أثبتت التاريخ مرة بعد مرة ان الشعوب التي تتخد الوسائل غايات والعلوم والفنون آلة تعبد ، ويقوى فيها النظر والجدل على حساب الخلق والعمل ، ويكثر فيها الافتتان بالفنون الجميلة ، وتضعف فيها الإرادة وقوة المقاومة للمغريات ووسائل الترفية والتسلية وتضعف فيها الغيرة والمحبة ، وتعشق الحياة والملذات وتنتشر فيها البليبة الفكرية ، وينتشر فيها التشكيك الشامل للعقائد والأداب والاستخفاف بجميع التقاليد والعادات التي كان فيها الشيء الكثير من القوة والصلاح ، ويتطاول فيها الريب إلى مصادر الدين ومراجعة التاريخ وإلى الشخصيات القديمة والحوادث التاريخية وإلى الأعراف والعادات يقود هذه الحملة كبيرة الأساتذة وحذاق الأدباء ونواعي الباحثين وحملة الأقلام ومنشئو الصحف ، وينتشر هذا السم في كل طبقة من طبقات الأمة ، ويتسرب إلى عقول الشباب ونفوسهم ، ويتغلغل في أحشائهم ؛ فإن هذه الأمة لا تثبت أمام أيّ عدو زاحف أو قوة مهاجمة ، ولا تثبت في معركة يوماً واحداً ؛ وهذه قصة اليونان وقصة الرومان .

(٧)

يدفع الدكتور محمد فاضل الجمالي نظام التربية الغربي بأمررين خطيرين : عجزه عن خلق روح الوحدة والترابط وإهماله لنواحي الروحية والأخلاقية.

أما عن الأول فيقول : إن التربية الغربية تعوزها الوحدة والترابط ، ويعوزها الانسجام والتوفيق بين نواحي الوجود ، ذلك ان الغرب قد أ nymph علماء عظاماً وأخلاقيين كباراً وفنانين مبدعين وأدباء مجيدين وإداريين قدريين ، كل واحد يمتاز في حقل اختصاصه ولكن الواحد منهم قلماً يعنيه التوافق والانسجام مع المجموع . وكل واحد يتمتع في حقل اختصاصه بدرجة متناهية بدون ان يكون له تماس مع الاختصاصات الأخرى أو اكتئاث بوجهة نظر أصحابها ، فالعالم مثلاً قد لا يهمه كثيراً مصير القيم الأخلاقية ، السياسي أو الإداري قد يصوغ مقاييسه الأخلاقية العملية الخاصة به .

وتربية الفكر قد لا تسير جنباً الى جنب مع بناء الاخلاق الفاضلة وتقدير الذوق الجميل . كذلك ففي التربية الغربية اللادينية خطر جسيم ينجم عن نسيان خصائص الانسان الروحية والاكتفاء بالتأكيد على نواحي حياته الجسدية والاجتماعية وبجملة فإن أهم نقص في التربية الغربية هو فقدان الانسجام بين المتطلبات الزمنية للانسان والمتطلبات الخلقية والروحية .  
ونحن نعرف مدى الخطير الذي ترتب على اقتباس هذا الطابع في مجال

التربية الاسلامية ونعرف كيف يقيم الاسلام التخصص في دائرة الشمول والتكامل فلا يحتمل منفصلاً انفصلاً يذهب به الى الاستعلاء أو التفرد حتى لا يفقد المسلم روح الوحدة ولا يفقد الفكر الاسلامي طابع الترابط الجامع بين القيم والعناصر .

الى أي حد كان اقتباس هذا الطابع في مجال التربية الاسلامية خطيراً وما ترتب عليه من آثار جلي !

يقول الدكتور الجمالي : إن الإهمال النسبي للنواحي الروحية والأخلاقية في التربية الفردية قد تسرب إلى أنظمة التعليم الحديثة في العالم الاسلامي .

فأصبح من نتائجه ان هناك تقصيرآ في التأكيد على نشوء الانسان روحياً وخلقياً في تربية الجيل الاسلامي الجديد ، ولا سيما إذا قارنا ذلك بالتأكيد الماصل على النواحي العلمية والفكرية والجسدية للحياة الانسانية .

والنتائج التربويي لهذا التوجيه الناقص : هو إنسان منحط في إنسانيته احياناً ، إذن ف التربية الإنسان كل الإنسان كما يوحى بذلك كل فلاسفة التربية العظام لا يزال حلاماً يجب تحقيقه في الشرق وفي الغرب .

ذلك ان فقدان الوحدة والانسجام في التربية قد يؤدي الى الإفراط أو التفريط في معالجة بعض الأمور على حساب أمور أخرى . فالانحياز الى جهة دون الجهات الأخرى يصبح من الاخطار التي تفقد الحياة اتزانها واستقرارها ، فالمرء قد ينحاز إما الى هذه الفلسفة أو تلك وإما الى هذه الجهة أو تلك .

اما إذا كانت الحقيقة بين بين أي توجد بين النهايتين فلا يعبأ بها ، فقد نشاهد البعض يتطرف في (فلسفة العقلانية) والآخر يغالي في (فلسفة المادة) أو نرى هذا يتمحمس للفلسفة المادية وآخر يتمحمس للفلسفة الروحية .

وهذا متطرف في الفردية وهذا متطرف في الجماعية .

وهذا متغصب للمقومية وهذا مدفوع للأمية .

وهذا مفكر تكمن في حياة التأمل ، وهذا عامل يدوي لا صلة له بالحياة الفكرية .

هذه الانقسامات والانشطارات التي نتبيجتها إما هذا وإما ذاك حيث لا تلقي ولا توفيق ، سببها عدم الأخذ بالوسط الذهبي الذي يجمع الحقيقة من كل الاطراف ومن المركز الوسط بين القوى المتضاربة .

إن الإفراط والتفريط وعدم الأخذ بفلسفة الوسط الذهبي قد فرق الإنسان عموماً بما في ذلك العالم الإسلامي إلى معسكرات متنافرة ، وهذا هي الإنسانية منقسمة على نفسها اليوم من أدنى الأرض إلى أقصاها .

إن فقدان التوحيد والانسجام قد أدى إلى التطرف والتحيز ، بما جعل من التربية أداة للتعصب والفكير المغلق وقد يبرر العنف كوسيلة للعمل السياسي أو الاجتماعي ، والمرء قد يلجأ إلى الطعن بدل الحوار ويمارس البغضاء والكرهية بدل الأخوة والمحبة .

أما التربية المؤسسة على التوحيد والانسجام فإنها تعنى بروح الإيمان المؤدي إلى الاعتدال والوسط الذهبي والتفكير المعمول المترزن وضبط النفس ، وهذه هي الصفات التي يؤكد عليها القرآن الكريم ولكن بعض النظم المقتبسة من الغرب قد حملت معها : « منهاجاً عقائدياً متخيزاً » تعوزه في الغالب الحبكة والمنطق والاعتدال .

هذه الصورة من أثر اقتباس ( نوع ) من أنواع التربية الغربية إلى العالم الإسلامي والمجتمع الإسلامي ، وقد رأينا مثل هذه الآثار واضحة وعميقة وبعيدة المدى والأثر فيها أصيب به المسلمون في السنوات الأربعين الأخيرة من نكبات ونكبات .

(٨)

وإذا كانت بعض الأنظمة التربوية الغربية المقتبسة قد قدمت لنا هذا النموذج من العقائديين المتعصبين والمتخزبين الذين « لا يمارسون التسامح والاعتدال » فإن هناك أنظمة تربية غربية أخرى - ونحن في العالم الإسلامي خاضعون لنظامين تربويين يتشارعان بيننا - هذه النظم الأخرى قدمت لنا - على حد تعبير الدكتور الجمالي - تطرفًا في التراخي الأخلاقي والحرية غير المسؤولة فهي : « تقود الناشئة إلى نوع من اللامبالاة الأخلاقية »، فيصبح تناول الكحول واستعمال المخدرات والتهاون في العفة من الأمور المتسامحة فيها وتتصبح القيم الأخلاقية نسبية وعرضة للتقلبات والشوائب الفردية وليدذهب ضبط النفس إلى حيث ... .

هذا وإن الشباب الغربي قد يمارس شيئاً من الاعتدال وضبط النفس حتى في جو الحرية المطلقة ، أما الشاب المسلم الذي ينشأ في محيط اجتماعي ضيق ، إذا ما تعرض إلى هذا الجو فقد يصبح عرضة لخطر فقدان ضبط النفس بحيث يصبح إباحيًّا ، وليس قليلاً عدد ضحايا الانهيار في المسكرات والشهوات البهيمية بين الشباب المسلم نتيجة تربية تتمسّك بفلسفة أخلاقية رخوة .



البَابُ الثَّالِثُ  
الرَّبِيَّةُ وَالْتَّعْلِيمُ وَالنَّفَافِةُ فِي أَطْرَافِ الْإِسْلَامِ



## الفَصْلُ الْأُولُ

### التربية الإسلامية

لا بد للباحث المسلم ان يفرق تفرقة واضحة عميقة بين التربية والتعليم والثقافة . حيث تختلط هذه القيم في مفاهيم التربية الغربية وتدخل كثيراً ولا سيما ذلك التداخل المبهم بين التربية والتعليم .

فالفهم الإسلامي للتربية أنها الإعداد الروحي والنفسي للفرد بحيث يكون مؤهلاً لتلقي التعليم والثقافة على نحو موجه فيأخذ ما هوأساسي وبناء وما هو بسيط ان يده بالقدرة على أداء رسالته في الحياة والمجتمع ، هذه الرسالة الجامحة بين هدفي الدنيا والآخرة ، من حيث البناء والعمل والسعى الى آفاق التقدم ، دون ان يكون ذلك على حساب القيم الأخلاقية أو المسؤلية الفردية بل لحسابها ودعمها .

فليس من مفهوم الاسلام ان يكون العلم للعلم منفصلاً من غير غاية، ولا ان يكون العلم للدنيا وحدها ، ولا ان يكون للآخرة وحدها انفصلاً عن الدنيا والسعى فيها . فالمسلم يسمى في الحياة من أجل العمل والكسب ليقيم المجتمع الاسلامي القوي بالعزّة والتمكّن والكرامة ثم يجعل هذا المجتمع القوي

الكريم خادمًا للغايات الإنسانية العليا التي تجمع بين الإخاء البشري والطابع الأخلاقي ومرضاة الله والتي تتوقف عن معارضه حدود الله أوتجاوز ضوابطه.

في هذا الضوء يكون الهدف الأول والأساسي من التربية هو :

« بناء شخصية المسلم »

الذى سيبني المجتمع الاسلامي القوى الكريم القادر على مواجهة أخطار أعداء الإسلام ، والعامل على نشر كلمة الله في الأرض ، فالشخصية المسلمة لها رسالة وعليها تبعة وهي تحمل التزامين أساسين : الإرادة الحرة القادرة ذات المسؤولية الفردية والجزاء الأخروي ، والالتزام الأخلاقي الذي يطبع كل التصرفات في كل الميادين والقطاعات والقيم ؛ وهو التزام قائم بالنسبة للسياسة والمجتمع والاقتصاد والقانون والتربية جيئماً .

ومن شأن الإسلام وهو دين جامع بين العقيدة والشريعة ، وبين العبادة وبين المجتمع ان يجعل دون قيام الاذدواج الذي يعرفه الغرب في صور مختلفة :

الثقافة الدينية — والثقافة العلمية .

الثقافة الأدبية — والثقافة العقلية .

أو بين الإلهي والبشري .

فهو يجمع بين هذه جميعاً ويوازن ، ولا يفصل بعضها عن بعض إيماناً بأن الإنسان نفسه جامع بين المادة والروح ، والعقل والقلب ، ومطامح الدنيا وأشواق الآخرة .

ومن أجل هذا فإن منهج التربية في الإسلام منهج متكامل يعني بتربية الجسم والروح والعقل حق لا تطفى ناحية من النواحي على الأخرى وبذلك ينشأ المسلم سوية قوي الصلة بالله محققاً لرسالته في الحياة .

ومن أجل تكامل النظرة الإسلامية إلى الحياة والوجود والمجتمع ، جمعت

ال التربية الاسلامية بين تأديب النفس وتصفية الروح وتشريف العقل وتنمية الجسم ، فهي تعنى بال التربية الدينية والخلقية والصحية والجسمية دون إعلان لأي نوع منها على حساب النوع الآخر <sup>(١)</sup> .

وقد لفت هذا المعنى نظر البعض من حيث المقارنة فقال : إن التربية الاسلامية تعمل على إعداد الإنسان لا المواطن ، الإنسان المستخلف في الأرض على مفهوم وحدة الدين ووحدة الجنس وتوحيد الله .

وحين تأخذ التربية الاسلامية «الفرد» ككل تعدد بألوان مختلفة من الإعداد : بالمحاكاة بالقدوة ، والموعظة ، وبالعادة ، والتوجيه .

وهي حين تبدأ معه تعمل على أن تصله بالله سبحانه وتعالى ، وتحسن هذه الصلة وتعمقها في ضوء التوحيد ، فإذا ثبت في أعماقه أن الله سبحانه وحده هو الذي يعطي ويمنع ويضر وينفع ارتفع (الفرد) عن طبيعة الإذلال لأي من البشر ، واستطاع أن ينظر إلى الحياة نظرة أكثراً عمقاً وأكثر قدرة على الاقتحام وقول كلمة الله دون أن يخشي في الله لومة لائم ، ولم تجد وسائل الإغراء إلى قلبه سبيلاً إيماناً منه بأن الله يرزقه ، وإن الطريق الحق لا يقطع هذا الرزق منها تائب عليه فيه الخصوم أو الأعداء .

وحين تركز التربية الاسلامية على بناء الأخلاق بعد بناء عقيدة التوحيد إنما تعمل على تكين «الفرد» من مقاومة المغريات فلا يضحي شرفه أو عرضه في سبيل أي مطعم ، ذلك أن حكمة تربية الأخلاق هي الارتفاع بالنفس عن المطعم والهوى .

ولا ريب أن ل التربية العقيدة والأخلاق أثراً عميقاً في تكوين الشخصية ، فالفرائز قائمة في النفوس تعدل نفسها وتضبط اتجاهاتها وفق ما تدعوها إليه

---

(١) احمد فؤاد الاهواني .

العقيدة وحسب ما توجّهها اليه من سو وکال ، والخطر هو في تركها دون توجيـه وضبط ، والخوف الأكـبر هو في إطلاـقها على النحو الذي تدعـو اليـه التربية الحديثـة في مفاهـيم : ديوـي وفـرويد .

والإسلام في مجال الفـريـزة يأخذ بالضبط لا بالإـطلاق ، وبالـتـبريد لا بالإـفارـة .  
والإسلام يـعـترـف بالـغـرـائـز وـغـايـاتـها ، ولـكـنه لا يـطـلقـها ، ويـدـعـو إـلـى ضـبـطـها  
والـسـيرـ بها فيـ نـطـاقـ « التـقوـى » والـخـوفـ منـ اللهـ وـالـجـزـاءـ فـلاـ تكونـ قـوـةـ ضدـ  
الـخـيـرـ أوـ الـحـقـ ، وـلاـ تـتـجاـوزـ الحـدـودـ الـقـيـمـ الـدـينـ الـحـقـ فيـ سـبـيلـ حـمـاـيةـ  
الـإـنـسـانـ نـفـسـهـ أـوـلـاـ منـ أـخـطـارـ التـمـزـقـ وـالـانـهـيارـ .

وـكـيفـماـ يـكـنـ أـثـرـ الـورـائـةـ أـوـ أـثـرـ الـبـيـئةـ فيـ تـشـكـيلـ الـإـنـسـانـ فـانـ التـربـيـةـ  
الـإـسـلامـيـةـ منـ شـأنـهاـ انـ تـعـيـدـ تـشـكـيلـ الـفـردـ بـجـيـثـ يـقـومـ منـ أـخـطـاءـ الـنـفـسـ أـوـ  
تـجـاـوزـاتـهاـ .

ويرجـعـ الـإـسـلامـ الـأـخـطـاءـ كـلـهـاـ وـالـأـخـطـارـ كـلـهـاـ إـلـىـ ضـعـفـ الـعـقـيـدةـ الـدـينـيـةـ  
وـتـرـاثـيـ مـفـهـومـ التـقوـىـ وـالـمـسـؤـولـيـةـ رـاجـزـاءـ .

وـمـنـ هـنـاـ يـوجـهـ الـإـسـلامـ الـفـردـ مـنـذـ الطـفـولـةـ الـبـاـكـرـةـ إـلـىـ فـهـمـ هـذـهـ الـحـقـائـقـ  
مـنـ الـإـيمـانـ بـالـلـهـ إـلـىـ الـمـسـؤـولـيـةـ الـفـرـديـةـ إـلـىـ الـالـتـزـامـ الـاخـلـاقـيـ إـلـىـ الـجـزـاءـ الـأـخـرـوـيـ  
لـيـسـتـطـيعـ تـحـمـلـ مـسـؤـولـيـتـهـ فـيـ الـحـيـاةـ .

وـلـاـ رـيبـ انـ التـربـيـةـ الـإـسـلامـيـةـ فـيـ أـسـسـهاـ تـقـومـ عـلـىـ الـفـطـرـةـ وـتـنـمـيـ الـقـدـرـةـ  
عـلـىـ التـفـرقـةـ بـيـنـ الـخـيـرـ وـالـلـشـرـ وـالـحـقـ وـالـبـاطـلـ بـجـيـثـ يـسـتـطـيعـ الـإـنـسـانـ اـنـ يـهـتـدـيـ  
إـلـىـ ذـلـكـ دـونـ تـوجـيـهـ خـارـجيـ :

« الـأـثـمـ مـاـ حـاكـ فـيـ الـنـفـسـ وـكـرـهـتـ اـنـ يـطـلـعـ عـلـيـهـ النـاسـ » .

فالـتـربـيـةـ الـإـسـلامـيـةـ هيـ تـهـذـيـبـ الشـخـصـيـةـ وـتـزوـيـدـهاـ بـكـلـ مـاـ يـكـنـ قـواـهاـ  
الـفـكـرـيـةـ وـالـبـدـنـيـةـ مـنـ تـحـمـلـ مـسـؤـولـيـةـ السـمـعـيـ وـالـعـمـلـ وـالـنـضـالـ .

وـهـيـ تـعـنىـ بـقـوـةـ الـبـدـنـ وـقـوـةـ الـرـوـحـ مـعـاـ مـتـصـلـيـنـ لـاـ مـنـفـصلـيـنـ .

(٢)

أول ما تعنى به التربية الاسلامية هي تخلية نظرة الاسلام الى الانسان . فالاسلام ينظر الى الانسان نظرة تكريم وتفضيل ، فقد أوصى أمانة الاستخلاف في الارض ، ووضعت كل معطيات الحياة وخيراتها له ليقوم عليها وينشئ بها المجتمع الرباني المصدر الانساني الطابع بالإخاء والعدل والعمل الصالح .

والاسلام ينظر الى الانسان نظرة متكاملة جامعة (روحه وجسمه وغراائزه وعقله) وكلها قوى متلاقيه ، وقد اعترف بعيوله وغراائزه وأشواقه ، وأباح له حرية الممارسة لكل ما يرغب فيه وفق إطارات تنظم حركته وضوابط تحول بينه وبين التمزق أو الانهيار وفي ضوء الفهم الشامل للحقائق الأخلاقية الثابتة التي لا تتغير : الحير والشر ، الحلال والحرام ، الفضائل والرذائل ، المباح والمنوع .

وقد انشأ الله الانسان من تراب الارض ونفعه فيه من روحه ، فهو جامع بين مادية الارض وأشواق الروح ومتزوج بينها فلا يستطيع ان يشعر بالطمأنينة النفسية إلا إذا وزن بينهما ، فإذا انحرف الى أحدهما عاش حياة الاضطراب والتمزق .

وعلى ضوء طبيعة الإنسان الجامحة بين المادة والروح صاغ الاسلام منهجه

التربوي الجامع المتكامل الذي يختلف بالطبع اختلافاً جذرياً عن مناهج التربية المختلفة سواء الغربية منها أو الشرقية المرتبطة منها بالمفهوم المادي الخالص أو الروحي الصرف .

لقد أعلن القرآن أن النفس الإنسانية قد أهمت الفجور والتقوى فأوجب تزكيتها بالتربية على النحو الذي ينبعها ويربيها ويجعلها سوية صالحة ، وجعل هذه التزكية بالتربية أمانة في أعناق الوالدين والمدرسين والمسؤولين عن الأجيال .

وأقام هذه التزكية على أساس إنساني في الأساس لا يعرف فوارق الوطن أو اللغة أو الجنس أو العقيدة : كل بني آدم من تراب .

وتحمل أساس التزكية التهذيب لا الكبائر ، فالإسلام يعترف بالطاقات الحيوية في الإنسان ولا يمطئها عن الممارسة ولا يلغيها ، ولكنها ينظم عملها بما يحقق الخير والابحاثة ويدودي إلى إقامة المجتمع الصالح من غير عدوان من إنسان على حق إنسان .

وهو في ذلك يجمع بين ضرورات الجسد وأشواق الروح ويعطي كلاً منها نصيبه المعقول ويقيمه للمرأحة بين ذلك ضوابط وحدوداً .

ومن هنا لا تنشأ لدى المسلم تلك التحديات التي تصيب شخصيته بالاضطراب سواء عن طريق الكبائر والانفلات أم الاندفاع والانطلاق وكلما مرت به المجتمعات الغربية .

ومن هنا تستهدف التربية الإسلامية بناء شخصية الفرد السوي " القادر على احتلال أمانة الإنسان المستخلف في الأرض بالحق ، والقادر على التعرف على الخير والشر والعامل في سبيل إقامة المجتمع الرباني المصدر الإنساني الطابع ، ليس المجتمع الإقليمي المنغلق ، ولا المجتمع الأممي المنفتح ، هذا الفرد المسلم هو القادر على تزكية النفس وضبط الغرائز ، والمسؤول بالإرادة الحرة عن نتائج عمله وهذا المهد الذي دعت إليه التربية الإسلامية من بناء الشخصية

هو العامل الوحيد القادر على الحفاظ على القيم والعقائد والارض بالمرابطة في التثور ، والوقوف على خطوط المواجهة دوماً ، وجيلاً بعد جيل ، يحمي أرض الاسلام ، ويدافع عن كيان الأمة ، ويحمل رسالتها للعالمين .

وإقد كان الغرب الاستعماري يعرف ذلك ، وقد واجهه مواجهة صريحة في الحروب الصليبية ، ورأى لويس التاسع كيف كان الاسلام قادرآ على ان يعلأ هذه النقوص بالقوة والعزيمة وبالعتاد القليل استطاع المسلمين ان يهزمو اعلى الجيوش .

ومن هنا نبعت عنده تملك الفكرة الخبيثة الماكنة التي كتبها في وصيته والتي أصبحت من بعد نبراساً للغزو الفرعي : وهي القضاء على هذه القوة ومحو تلك الشخصية وإزالة ذلك الانسان وإحلال بدائل منه شخصية مضطربة همزة ، تحب الترف وتهوى إطلاقات الأهواء والجنس والغرائز ، وكذلك عملت الإرساليات التبشيرية على بناء هذه الاجيال التي واجهت الهزيمة والنكسة سنوات بعد سنوات ، دون ان يدفعها ذلك الى التنبه الى مصدر الخطر : ذلك الخنجر المغروس في أحشاءها : خنجر التربية الوافدة .

إننا نستطيع ان نستفيد من تجارب كل الأمم في التربية والتعليم والثقافة ولتكن : على شريطة ان نبني أساس التربية الاسلامية اولاً ثم نقبل في ضوئه او نرفض ولتكن قاعدتنا هي :

« خذ ما صفا ودع ما كدر » .

« إن التنشئة الغربية لأحداث المسلمين ستفضي حتماً الى زعزعة إرادتهم في ان يعتقدوا او ان ينظروا الى أنفسهم على أنهم هم يمثلون الحضارة الربانية التي جاء بها الاسلام .

(٣)

إن التربية في مفهوم الاسلام هي إنشاء الانسان إنشاء مستمراً من الولادة حتى الوفاة . هذا على الامتداد الأفقي ، أما الامتداد الرأسي فهي تربية كاملة متوازنة : عقلية بالمعرفة ، وجسمانية بالرياضية ونفسية بالإيمان .

وهي جامحة من حيث إنها حين تغرس القيم الخلقية والاجتماعية التي تحمي الانسان من أخطار الاضطراب والتمزق ، تربى في الانسان الإرادة الحقة ، حب الناس ، وإيشاراً وبعداً عن الأنانية وتجنبها للرذائل .

فال التربية الاسلامية في طبيعتها إيجابية بناءة ، تقوم على مدافعة الأخطار لا الإسلام ، وتستهدف المقاومة لكل محاولات هدم الشخصية لا التراخي والا باحية .

ولقد كانت التربية الغربية المسيحية لأنها تستمد مصادرها من دين ، تحاول بناء الشخصية ولكنها ضلت الطريق مرتين :

المرة الأولى حين انحرفت عن رسالة الدين الحق ، فأعللت من شأن قيم لم يأذن بها الدين ، وهي معارضه غرائز الجنس أو التقليل من شأن المسؤولية الفردية والجزاء الأخرى تأثراً بنظريات الحلول والاتحاد .

المرة الثانية حين سيطرت عليها الأيدلوجية التلمودية فدفعت المجتمع الغربي الى التفریط والانطلاق ، وكان ذلك بطبعته هو رد فعل المرحلة الاولى التي قامت على الانفلاق والکبـت .

اما الاسلام فإنه يعترف بالجرائم ويدعو الى ممارستها في اعتدال، ووفق ضوابط وحدود تحول دون الانحراف أو الجمود ، ولذلك فقد حال ذلك دون وقوع المجتمعات الاسلامية في أخطار الاضطراب النفسي الذي تعانيه المجتمعات الغربية .

(٤)

لم يقع فهم التربية الاسلامية في محاذير التربية المسيحية الغربية التي كانت تستهدف إعداد الفرد للأخرة ، وذلك بالقسوة عليه في مجال الجنس والمال بما تدفعه الى تطليق الحياة والهروب منها والعيش في الأديرة . وفق فلسفة يقول :

« العمل على نيل رضا الله بإذلال النفس وتعذيب الروح » .

ولقد كان هذا الهدف مما اطلق عليه النظرية الطبيعية للتربية من العوامل التي دفعت المفكرين الغربيين الى تجاوز الجانب الديني في التربية كلية ، أول الأمر ، الى الدعوة للأخلاق منفصلة عن الدين كما حملت لواء الفلسفة المثالية ، ثم جاءت المرحلة التالية التي تهافت فيها قيم الدين والأخلاق جميعاً بظهور الفلسفات المادية والبرجاتزمية .

هذه المحاذير لم يعرفها منهج التربية الاسلامية حتى يقال إن الذين يدعون الى منهج التربية الغربية إنما يريدون ان يحررورنا من مثل هذا الخطر ، فلم يكن الاسلام في يوم من الايام دعوة الى رضا الله بإذلال النفس وتعذيب الروح ، فقد دعاها الحق تبارك وتعالى الى السعي في الارض :

(فامشو في مناكبها وكلوا من رزقه) .

وهو الذي دعانا الى التماس نعاء الحياة ( قل من حرم زينة الله التي أخرج  
لباده والطيبات من الرزق ) بدل انه الحق تبارك وتعالى حمل على الذين  
يعرضون عن نعم الحياة ( لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ) .

فلقد دعا الاسلام الى العمل والسعى والكسب وأقام ذلك كله في إطار  
الحلّ والخير والتقوى .

(٥)

حين يفتح الاسلام للتربية الاسلامية مجال « التكامل » والنظرة الجامحة يحرر الانسان من ذلك التمزق والاضطراب الذي تفرضه المنهاج الغربية التي قتناول الكائن البشري تناولاً مجزئاً متنقطاً ، فرجال التربية يعالجوه بعيداً عن رجال الاعلائق ، ورجال الدين يعالجوه روحياً ويغفلون عن جوانبه الاخرى ، والماديون ينظرون اليه نظرتهم الى الحيوان ، والبعض يحاكمه بفلسفة المحسوس فيسقط مـا لا تدركه الحواس ، والبعض يحاكمه على أساس العقل فيغلق جانب الوجدان والروح ، أما الاسلام فإنه يعالج الكائن البشري ككل متكامل .

ولذلك فإن أبرز ما يتميز به منهج التربية الاسلامية هو : وحدة الاتجاه وتكميل النظرة ، استمراراً من الفطرة ، والتقاء بالروح والعقل جميعاً .

فمنهج التربية الاسلامية وحده هو الذي يصل الانسان بخالقه ، ويصله بالارض ، ويصله بالانسان والمجتمع والحياة ، فلا يدعه يتترك الحياة والارض ولا يدعه يتهملك عليها ، وهو حين يدعوه الى عبادة الله يؤمن بأن العبادة لا تمنع من الضرب في الارض وعمارتها ، ومعنى العبادة ان يكون أخلاقياً في كل عمله ربانياً في كل اتجاهه ومن هنا تكون تربية الروح والعقل والنفس والجسم . « ف التربية الروح » تفتح بصيرة الانسان على آيات الله في الكون فيستشعر

من ورائها القدرة القادرية الخلقة المبدعة ، لتوقيظ النفس من غفوتها وتتجدد اللقاء بين ظاهر الانسان وباطنه : من داخل النفس وفي صفحة الكون ، حيث يقرأ كتاب الله الناطق (القرآن) وكتابه الصامت (الطبيعة) .

والعبادة وسيلة بناء الروح والتقوى هي قاعدة البناء كله و « تربية العقل » بالعلم ، والعلم هو كل العلم ، وليس العلم الديني فحسب ، وبذلك تنمو العلاقة بين العقل والروح ، وتتجه مادة العلم في الاسلام الى الخير والى الرحمة وتكون خالصة للبشر جميعاً .

وإذا كان الانسان قد كشف أسرار العلم فإن معرفته بهذه المفاتيح وال السن لا تغنيه عن معرفة الله تبارك وتعالى الذي فتح له هذه الآفاق ، وهو القائم من وراء كل هذه القوى والسنن مدبر لها وصانع وخالق من العدم .

فلا تنفصل العلوم عن مصدر العلم ، ولا تتجه العلوم الى الطغيان والظلم والإبادة ، بل تتجه الى ما ووجه اليها خالقها : الرحمة بالانسانية وإسعادها .

« تربية النفس » : تكون بالزكاة والصدقة والبذل والصوم والكلمة الطيبة وتكون بالاستعلاء على السوء والظلم والحرام ، وبالتضحيه والتنازل الى الفقير والى الجماعة . وقد حرص الاسلام على تربية القوة الضابطة في المسلم وتنميتها منذ الصغر ، وأبرزها الصبر وأداته الصوم حق يكون المسلم قادرآ على الامتناع عن كثير من اللذات والرغبات المباحة ، فتحقق بذلك إرادته وقوه ذاته .

« تربية الجسم » : تكون ببناء الجسم القادر على الجهاد ، القوي الصامد في الشدائـد ، الخشن المفطوم من الشهوات ، بعيداً عن القمع والكبـت . والاسلام يقرر ان المسلم لكي يستطيع أداء وظيفته وتحمل مسؤولياته يجب ان يكون قوي الحواس . ولذلك كان المؤمن القوي خيراً وأحب الى الله من المؤمن الضعيف . وقد دعا الاسلام المسلمين الى بناء جسمه بالسباحة والمصارعة والغروسيـة ، وان يتبعوا الخشونة ولا يستسلم للتـرف : « اخشوـنـوا فـيـنـ **النعم لا قـدـوم** » .

(٦)

قبداً التربية الإسلامية في البيت عن طريق المحاكاة والقدوة والتلقيين ،  
ذلك ان الطفل ينشأ فيعمل ما يعلمه أبواه ، فإذا كانوا يقيمان الصلاة ويقرآن  
القرآن فعل مثلها وانطبعت في ذهنه تلك الصورة وتأثر بها مدى الحياة .

وقد حرص الإسلام على العناية بالطفل قبل ان يولد بإعداد الإطار الذي  
يتتحرك فيه ، فدعا الرجل الى اختيار الزوجة الصالحة ، وفضل اختيار الزوجة  
ذات الدين على ذات الجمال والممال والنسب والحسب ، لأنها هي القادرة على  
حمل المسؤولية .

وفرض على الآبدين حق تسمية ابنها وحسن رعيته منذ اللحظة الأولى  
بأن يكون أول ما يسمعه هو اسم الله تبارك وتعالى .

وقد أعلن الإسلام ان كل مولود يولد على الفطرة ثم يوجهه أبواه الوجهة  
التي يختارانها له . ومن هنا كانت مسؤولية الآباء نحو الأبناء وهي مسؤولية  
أساسية :

( فالرجل في بيته راع وهو مسؤول عن رعيته والأم في بيتها راعية وهي  
مسؤولة عن رعيتهم ) وإن الآباء مسؤولون عن فساد أبنائهم وخطائهم ،

وعليهم في ذلك عقوبة التقصير وعدم بذل الجهد في تنمية هذه الثمرة على الوجه الأحسن .

والطفل (١) أمانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة يحب حمايتها ويحب (٢) البده بهذيبه منذ فطامه لثلا تثبت في نفسه الأخلاق الذميمة فيصعب بعد ذلك نزعها من نفسه ، ول يكن تهذيب الولد بالحمد مرة وبالتوبيخ أخرى وبالإيناس مرة وبالإيحاش مرة ثانية ، وإن الطفل (٣) المستحب لا ينبغي أن يهم بل يستعان على تأديبه بحيائه وتمييزه ، ولا يؤخذ الطفل بأول هفوة بل يتغافل عنه ولا يهتك ستره ، ولا سيما إذا ستره الصبي واجتهد في إخفائه .

ويقول الإمام الغزالي : إن الطفل يأتي إلى الحياة ونفسه صحيحة بيضاء خالية من كل نقش وتصوير وإن المربي أباً ومعلمًا هو الذي ينقش على هذه الصحيفة ما يشاء من خير وشر ، والصبي قابل لكل ما ينقش عليه وسائل إلى كل ما يمال به إليه ويحب تعويذه الاخشيشان في المأكل والملابس ، ويحبب إليه القصد في المطعم والقناعة بالخشونة ، ويستعان في تأديب الصبي بحيائه فالحياة بشاره من الله تعالى تدل على اعتدال الخلق وصفاء القلب ، والرياضة البدنية تقوى جسم الطفل .

وليعود مكارم الأخلاق ويتجنب سيئها وينبع من لفو الكلام وفاحشه وينبع من قرنه السوء ويقتصر في التعنيف عند وقوع الذنب لأن كثرة العتاب تهون عليه سمع الملامة وتخفف وقع الكلام في نفسه .

---

(١) الغزالي .

(٢) ابن سينا .

(٣) الغزالي .

وفي سن التمييز لا يسمح له بترك الصلاة والطهارة ولا يؤخذ الغلاب  
بطريقة واحدة ، بل يختلف علاجهم باختلاف أمزجتهم وطبعهم وأسنانهم  
وبيناتهم .

ولقد دعا المربيون المسلمين الى اتخاذ قاعدة القدوة والمحاكاة أساساً للتربية :

«فالاطفال يأخذون بالتقليد والمحاكاة أكثر مما يأخذون بالنصح والارشاد  
قال عيسى بن أبي سفيان معلم ولده : ليكن أول إصلاحك لولدي إصلاحك  
لنفسك فإن عيوبهم معقودة عليك فالحسن عندهم ما صنعت والقبيح عندهم  
ما تركت » .

(٧)

أعلنت أصول التربية الإسلامية حقيقة خالدة : إن العلم لا يكفي ولا ينفع بدون الأخلاق ولذلك فإن الخطوة الأولى للتعلم والثقافة هي «التربية».

وكل تربية لا ترقى إلى ترقية الخلق السامي وتنميته ليست جديرة بأن تسمى بهذا الاسم ، والأخلاق ليست كلمات تلقن تلقيناً ولا عبارات تعرف مباشرة من الكتاب . فالعلم وحده لا يعني بدون الأخلاق ، والتربية الأخلاقية هي في الواقع تربية اجتماعية ، ويجب ألا ينظر إلى الخلق وكأنه شيء شخصي محض لا يهم سوى صاحبه ، وإنما ينبغي أن ينظر إليه من الناحية التربوية الاجتماعية أكثر من النظر إليه من الجهة الفردية .

ولا ريب أن مسؤولية الآباء والأمهات بالغة في تنشئة الطفل وفي الآثار المترتبة على ذلك في مستقبل حياته كله . وقد دعا الإسلام الآباء إلى أن يختاروا لابنائهم أسماءً جميلة ، فالاسم الجميل بعيد الأثر في نفسية الطفل ، وعلى الآباء اختيار مرضعة الطفل بحيث لا تكون مشوهة نفسياً أو ضعيفة عقلياً « فالابن يعدي » ، والخطر أن تنقل صفات المرأة وخصائصها العقلية والنفسية إلى الولد . وإن النبي نهى عن استخدام « الظئر » المجنونة وعلى الطفل أن يرضع ما أمكن من ابن أمه ، وعلى الأم أن تمارس حنانها ورعايتها للطفل في السنوات الأولى ما أمكن فإن محاذير الانصراف عن ذلك لا حد لها .

ولقد أشار المربون المأمونون الى ذلك منذ ألف عام ويزيد فدعوا الى ان يرضع الطفل من لبن امه ما يمكن فإنه أشهى الأغذية يجدها ما سلف من غذائه وهو في الرحم، وقد كشف العلم الحديث عن هذه الحقائق اليوم وبين مدى خطير الرضاعة الصناعية وانصراف الأم الى تربية ابنائها عن طريق دور الحضانة وخطير ذلك على مستقبل الابناء .

كذلك دعا الاسلام الى تعليم الأطفال الرياضة وهي في عود طري ليكون قادرآ على الحركة السريعة والنشاط ، وفي الوقت الذي دعا فيه الى التكوين الخلقي في سن باكرة ، واستعمال الوسائل المختلفة من الترهيب والترغيب ، دعا الى خلق جو من الإيمان حول الطفل ، حتى يشعر بالطمأنينة والأنس والبهجة ، ولقد أولى المربون المسلمين ذلك غاية الاهتمام حتى قال قائلهم : إن أبرز مميزات التربية الاسلامية عنديها بالنص على الرفق في معاملة الأطفال وعلاج زلاتهم .

أما الأم فقد حلت التربية الاسلامية لها مسؤولية كبرى وأمانة عظمى.

فقد حرص الاسلام على إعداد الأم : بوصفها المدرسة التي ستبني الأجيال الجديدة نفسها ، ولذلك أعد لها تربية خاصة منفصلة عن تربية الرجل وفقاً لتكوينها ولرسالتها ومسؤوليتها . ودعا الى بناء فكر المرأة على أساس فهمنها لوظيفتها في الحياة أساساً ومسؤوليتها على تنشئة الأجيال وإعداد مناهج الدراسة لها على هذا النحو مع الاعيان بحقها الكامل في المساواة التامة التي لا تتنافي مع قوامة الرجل .

ولقد كانت التربية الاسلامية المرأة عامل قوة ودافع حماية لها من أخطار المجتمعات الفاسدة وأهواء الرجال ومطامعهم وفقاً لرسالتها الأساسية في بناء الأسرة ورعاية الرجل وتربية الابناء .

ومن هنا فقد ركزت التربية الاسلامية في مجال الأسرة وفي إطار القدوة ،

وفي هذا يقول الكسن كاريل في كتابه الانسان ذلك المجهول :

« لقد ارتكب المجتمع العصري غلطـة جسيمة باستبدال تدريب الأسرة بالمدرسة استبدالاً تاماً ، ولهـذا ترك الأمهـات أطفـاهـن لدور الحضـانـة حتى يستطـعن الانصراف إلـى أعمـاهـن و مطـامـهم الاجـتمـاعـية . انـهن مسـؤـولـات عن اخـتفـاء وحدـة الأسرـة واجـتمـاعـتها الـيـتـصلـ فيها الـطـفـلـ بالـكـبارـ فـيـتـعـلـمـ مـنـهـمـ أمـورـاً كـثـيرـةـ لأنـ الـطـفـلـ يـشـكـلـ نـشـاطـهـ الـفـيـسيـوـلـوـجـيـ والـعـقـليـ وـالـعـاطـفـيـ طـبقـاً لـلـقـوـالـبـ الـمـوـجـودـةـ فـيـ مـحـيـطـهـ » .

ولقد عـاشـتـ الأمـ المـسـلـمةـ تـرـبـيـ أـلـادـهاـ وـتـنـشـئـهـمـ عـلـيـ أغـانـيـ الـكـرـمـ وـالـقـوـةـ وـالـشـجـاعـةـ تـرـوـيـهـاـ هـمـ فـيـ قـصـصـ التـارـيـخـ وـفـيـ نـمـاذـجـ الرـجـالـ .

وـحـينـ دـعـاـ الـاسـلـامـ إـلـىـ طـلـبـ الـعـلـمـ فـرـيـضـةـ عـلـىـ كـلـ مـسـلـمـ وـمـسـلـمةـ كـانـ يـسـتـهـدـفـ مـسـؤـولـيـةـ الـأـمـ الـيـحـبـ إـنـ تـعـلـمـ الـقـرـآنـ وـالـسـنـةـ وـتـارـيـخـ الـاسـلـامـ .  
وـالـيـ كـانـتـ تـرـبـيـةـ خـاصـةـ مـنـفـصـلـةـ عـنـ تـرـبـيـةـ الـذـكـورـ .

وـكـانـ يـحـرـمـ عـلـيـهـاـ الشـعـرـ الـفـاحـشـ وـالـكـلـامـ الـمـقـذـعـ . وـكـانـتـ تـوـجـهـ مـنـ نـافـذـةـ أـنـهـاـ أـمـ الـاطـفالـ وـعـونـ الـزـوـجـ وـرـاعـيـةـ الـبـيـتـ .

(٨)

وفي محيط الأسرة المسلمة تسكون الثمرة الطيبة :

فالرجل والمرأة يعملان معًا في سبيل بناء الفرد المسلم العابد ، المتحرر من كل التحديات الضاغطة ، فيكون الأب للابن قدوة والأم للبنت نموذجاً طيباً ولا ينسى الآباء لحظة أنها موجهان ومرشدان وان أي تصرف لها سيؤثر في هذا النتاج إيجاباً وسلباً .

ومن أهم ما يجب ان يتحرر منه الطفل <sup>(١)</sup> وجدانياً وعلمياً وواقعياً :

الحرمان والخوف والجهل . فالجاهلية تعمل على تعميق الخوف في نفس الإنسان وتجعله شاملاً وعاماً ، تجعله يخاف مما يحيط الإنسان سواء كان مادياً أو معنوياً ، فلا ينظر إلى الحياة إلا نظرة خوف من المصير والموت والجهول وخوف من الجوع والفقر وخوف من المسؤولية .

فالتراثية الإسلامية تستهدف تحرير الإنسان المسلم من الخوف : فلا يخاف إلا الله وحده ، اطمئناناً إلى أن صلته بالله تحميه من كل الخطر .

وكذلك « التحرر من الجهل » وذلك بعدم إدخال الخرافات والاعتقادات

---

(١) من بحث للأستاذ محمد العربي الناصري .

ال fasde al-`aql al-tadil f-tib`uhu `an ar-rūyah al-haqiqiyah li-kawn wa-hayat kala`na wa-kabir , w-iyyat-hu dhalik bi-takwīn al-tasawwur al-islāmi li-kawn wa-hayat wa-an-nasān . W-kazalik tawqīm al-tadil `alā al-fatrat : w-munahā tahrīr nafsīhah minal roāsib al-diniyyah li-tashshā` w-tanmū qawī nafṣuhu w-hu māstūlī al-himma ḫall minal `uqd mawjih tawqīhiyā yihishe ḥalāfat allāh fī al-arḍ .

W-iyyi al-mariyūn al-muslimūn `an al-nimū yitndi fī ṫallātah abyād : al-nimū nafsiy wa-al-nimū jismi wa-al-nimū ruhī , w-`an hādha al-nimū al-akhīr huwā awṣū wa-kabir yiqom `alā āsās at-tawqīi `ayi al-ataṣṣal bāllāh fī al-ragā` wa-hawwū w-kala`na hādha al-muhrūr wa-tarwūr fī nafṣ al-insān ar-taqī rōhīyā `an al-islām `alā al-īyān `alā al-ahsān .

Wa-al-ahsān huwā `an tib`id allāh kānuk tara`ah fī`ān l-maknūn tara`ah fī`ān yirāk , w-āsās hādha al-tarbiyah tībi`at al-nasāhi māslim qowīyā ḡħusna` iż-ż-żebha mوجات التحلل wa-ttmazq huwā al-ṣalātah tibda` fī al-sābi`ah w-iyyarrub `alayha fī al-`aṣraha f-tasbiḥ jaz`ā la yitbjuz `an hiyātihah f-tantehā `an al-fuhsā wa-al-munkar w-tasbiḥ bīnne` w-bīn allāh bābi` , fādā ḥażbe `amr ḥażma `alā al-ṣalātah .

W-idhalik tattħixx għaliex mithli minn al-tarbiyah al-islāmiyyah w-hi tahrīr māslim minn al-džel wal-hawwū w-wasatiya wa-shfawwa` .

Fa-al-`aġġal kalkhe` il-allāh la yطلب be` huwā ḥax� wa-l-matmu` fridi , w-al-`amr kalkha` xalċċa allāh fla` ḥawf minn al-tidħdiyāt wa-la` aswā .

Fādā kan al-afrād kānuk fī`ān al-āsra` tawqīm `alā d-`aħżeem thabitahha wa-al-jmī`u m-għajnejha al-afrād al-muominin wa-al-āsra` thabitahha .

Wa-`l-qad ḥi` al-islām `alā al-zawāj min ḥaqiqa bina` al-āsra` d-darraha al-jmī` , w-`an ḥaqiqa tħalliha minn aħħawha al-jins wa-mogħajiet il-ebha .

W-iyyekk al-islām tkonni al-āsra` bina`ha (jemu` l-kim m-nafsek k-aż-żawja) .

والزواج ليس شر كة مادية ، ولكنها تماذج روح بروح ، وقيام مودة ورحمة ،  
والاسلام حين يبحث على الزواج ينهى عن المعزوبة لأنها تحمل من المسؤولية  
وهروب من تبعه بناء الاسرة . وقد دعا الى حسن اختيار الزوجة حق تكون  
الاسرة مستقرة منيعة ، وحضر أفضل التماذج في صاحبة الدين ، ودعا الرسول  
إلى تزويج من ترضون دينه وخلقها حتى لا تكون فتنة في الأرض وفساد كبير ،  
فالطابع الديني في المرأة ( دون المال والجمال والحسن والنسب ) هو الدعامة  
التي تعظم كلها كل أخطار الاسرة وأزماتها .

ولقد وضع الشريعة الاسلامية هذه العلاقة أساساً وضوابط حق لا تخضع  
لأهواء الرجال ، ثم جعل للطفل من بعد ذلك نظاماً كاملاً في الرضاعة والحضانة  
والنفقة والتربية حتى لا يحرى الامر وفق رغبات متزاوجة ، وقد شرع هذه  
القوانين والنظم لحماية الطفل حتى يبلغ سن الرشد .

فال التربية القائمة على أساس معرفة الله وتقواه هي التي تهيء النشء المسلم  
لحمل رسالته ومسؤوليته . كذلك فقد جعل الاسلام للأبدين بعد ذلك حقوقاً  
قبل الأبناء وجعل العقوق من أكبر الكبائر .

(٩)

في ضوء مفهوم التربية الإسلامية نرى مجتمعنا الحاضر الذي اعتمد على أساليب التربية الغربية الوافية مضطرباً غایة الاضطراب في حاجة الى تصحيح كثير والى إعادة النظر في أساليبه ووسائله ، فقد ضعفت مسؤولية الآباء والأمهات وتراحت ، وحل التهاون محل الحزم عجزاً من الآباء عن تقديم تبعتهم الخطيرة حتى بدأ الأب منكورةً من أبنائه وليس موضع ثقتهنّ لهم لا يستمعون اليه لأنه هو نفسه ليس نموذجاً صالحاً ، فالآباء يغيبون عن أسرهم ولا يتبععون أحوال أبنائهم ويتركونهم ومعهم أسلحتهم المحرجة ليتلقوا الاجابة عنها من الصحف أو من دعاة الانحلال .

والأم تقضي أغلب أوقاتها خارج البيت مع صديقاتها في مواطن اللهو واللعب ، وقد تحولت البيوت الى فنادق . وأصبحت أفلام السينما والمسرحيات هي التي تعطي مفاهيم الاجتماع وعلاقات الرجل والمرأة ، والآباء يتربكون أبناءهم وبناتهم بغير رقابة من حيث اختيار أصدقائهم ورفقاءهم ، وقد استهانوا بالصفائر وعجزوا عن فهم علاقة الملابس والزينة بتكونين رجولة الرجل وأنوثة الأنثى .

ولقد عجزت التربية الحديثة عن تحقيق بناء الفرد المسلم والفتاة المسلمة والاسرة المسلمة وذلك حين جردتتها من مفهوم التربية الإسلامية الكامل الذي

رسمه لها القرآن مترابطاً في مصادره الثلاثة : ( تربية الجسم والروح والعقل ) بما يحقق التوازن والتكميل بين العناصر الثلاثة التي تكون في مجموعها الشخصية الإنسانية ، وذلك حق لا تطفي ناحية من هذه النواحي بالاستعلاء فتقىد النواحي الأخرى حاجتها ، وبذلك يحدث « التمزق » الذي هو أخطر آفات انعدام التكامل الانساني ومصدر كل الأزمات التي تواجهها البشرية حين أعلت من شأن العقل أو الجسم وتجاهلت تكامل العناصر وترابطها .

ذلك ان التربية الحديثة التي اشتهرت منهجها في المدرسة الاسلامية حرمت الشباب المسلم من عنصري الاعيان والخلق وحاولت ان تدفعه في طريقه مجردآ منها مستعيناً بها عاجزاً عن استيعاب الآثار البعيدة المدى لمارستها . كذلك كان لها خطراها حين عجزت ان تفصل بين الرجولة والأنوثة في فهم وجهة الحياة وهدفها ، وفي الزي والملبس والزينة .

كذلك كان إطلاق التربية من الضوابط وتجاهل الموازنـة بين الترهيب والترغيب بعيد الأثر في حرمـان الشـباب المـسلم المـعاصر من تـكامل الشـخصـية وـمن الحـذر من الـوقـوع في الـاخـطـار الـتي من شـأنـها ان تـدـمـر الشـخصـية وـتهـدمـها وـتـعـرـض لـالـشـبـاب الى التـمزـق وـالـاخـلـال .

كذلك عجزت التربية الحديثة عن اـن تـقـدـم لـالـإـنـسـان المـسـلم أـسـالـيـب الرـجـوـلـة وـالـقـوـة وـبـنـاء مـفـهـوم المـرـوـءـة وـالـأـرـيـحـيـة ، فـلـم تـجـدـ الشـبـاب الـحـدـث يـخـفـ إلى عـونـ الـضـعـيف أوـ الـفـقـير أوـ الـعـاجـز أوـ يـسـتـشـعـرـ فيـ نـفـسـهـ ذـلـكـ الـخـنـانـ أوـ الـشـوـقـ أوـ الـخـوفـ ، وـلـقـدـ بـنـجـدـ فيـ مـنـاهـجـ التـرـبـيـةـ الـحـدـيـثـ الـرـياـضـيـةـ وـكـنـاـ لـأـنـجـدـ لهاـ هـدـفـ وـأـضـحـاـ مـسـتـمـرـاـ مـنـ غـرـضـهاـ الـحـقـيقـيـ ، فـهـيـ تـجـرـيـ كـعـمـلـيـةـ بـنـاءـ لـلـجـسـدـ دونـ اـنـ تـكـوـنـ مـكـلـةـ لـنـمـوـ الـعـقـلـ أوـ الـرـوـحـ بـحـسـبـانـ أـنـهـ جـمـيـعـاـ تـكـامـلـ فيـ بـنـاءـ الـإـنـسـانـ . وـفـيـ الـاسـلـامـ إـنــاـ تـكـوـنـ الـرـياـضـةـ مـوـجـةـ إـلـىـ بـنـاءـ شـخـصـيـةـ الرـجـلـ الـقـادـرـ عـلـىـ الـجـهـادـ وـعـلـىـ الـمـسـاـهـةـ فـيـ الـأـعـمـالـ الـجـادـةـ وـتـكـوـنـ الـوـجـهـ فـيـهاـ خـالـصـةـ اللهـ أـسـاسـاـ .

كذلك عجزت التربية الحديثة ان تقنع المسلم الشاب فهم الدور الحقيقي للانسان في الحياة: رسالة ومسؤولية وإرادة حرة وجزاء آخرورياً، إن وجهة الانسان المسلم هو الله وهدفه هو الحق وغايته هي الخير وتحددت وجهته خالصة واضحة :

« تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الارض ولا فساداً » وأبرز ما تحاول التربية الحديثة تجاوزه والإغضاء عنه الدعامة الأخلاقية في التربية ، وهي تمثل أساساً هاماً ، فقد جعل الاسلام من الاخلاق قاعدة البناء كله والقاسم المشترك على مختلف القيم ، وجعل أساساً الاخلاق (التقوى) وهي قيمة الدين والمجاهدة وهي رأس الامر كله بمعنى مقاومة تيارات الاهواء والمطامع والرغبات المذلة والقدرة على مواجهة الاحداث والازمات بصبر وطمأنينة وصمود وذلك في مواجهة الاخطار التي تحيط بال المسلمين دوماً وفي كل عصر وحقي يكعونا قادرين على حماية كيانهم وجودهم من الغزو والانهيار . ولقد ربط الاسلام بين المنهج والتطبيق وبين الخلق والسلوك .

وجعل التطبيق مناظر الایمان فلا يتتحقق الایمان حقاً يصبح سلوكاً مؤثراً في واقع الحياة وحيث يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قضية اساسية في المجتمع الاسلامي .

والمسلمون اليوم وهم يرون كيف وصلت بهم نتائج تطبيق مناهج التربية الحديثة وآثارها حين التمسوها أو فرضتها عليهم ، يجب ان يعودوا الى منهجهم التربوي الاصيل المستمد من قيمهم الاساسية وهو الذي يصلح لهم وحده دون غيره .

(١٠)

من أبرز وجوه الخلاف بين أصول التربية الإسلامية وبين آخر صيغات التربية الغربية في تحولاتها المتعددة والتي لا تنتهي : فكرة « حرية التربية » يعني إطلاق الحرية للناشئ بدون رقابة أو توجيه سواء في مجال الفرائض أو الملابس أو التصرفات أو المعرفة والاصدقاء أو غيرها من شؤون الحياة ، هذه الحرية المطلقة لا يقرها مفهوم التربية الإسلامية ويراهما حمنة تمر بها المجتمعات الغربية وخطراً داهماً بعيد الاثر فيها يواجه الشباب في الغرب اليوم من تحمله وانهيار وفساد وغرق نفسي .

ولسنا في حاجة الى ان نختكم الى غير الغربيين أنفسهم في جرائر هذه الدعوة وأخطارها وفي مصادر هذه الدعوة وخلفياتها .

والشباب الناشئ في أول الامر قليل الخبرة والمعرفة ولا يحسن اختيار طريقه ، فإذا تركناه مطلق الحرية عجز عن النجاح وكبا وفشل وتساقط ، لأنك أصبح خاضعاً لأهوائه في فترة لم تشكل فيها ثقافته ولا تجربته وحيث توجد مغريات الانحراف في كل مكان .

وضبط الحريات ووضع القواعد لها ليس مصدر تسلط أو استعباد أو دافع الى الحيلولة دون حق الاجيال الجديدة في الحركة ، بل على العكس من ذلك فهو بمنابعه وضع الانوار المكافحة على الطريق الطويل المظلم الكثير العقبات .

ولقد كانت رعاية التربية الاسلامية للنشء باللغة الرفق والاحسان، ولكنها ساهمت في حاليته من الاخطار وتجنيبه المزالق وخاصة في فترة المراهقة التي تقلب فيها النظرة البارقة والتصرف المندفع .

ولنعلم ان الدعوة الى حرية التربية او إطلاق التربية ليس قانوناً حتمياً نافذاً ، ولكنه وجهة نظر ومحاولة مفترضة من بعض المربين ، أخذ بها دعوة مذهب معين ، ورفضها الكثيرون ، والذين قبلوا بها عادوا فتحلل أغلبهم منها بعد ان ظهرت نتائجها السيئة ، ولم يبق متمسكاً بها إلا اتباع المذاهب المتحللة والمنحرفة من دعوة الإباحية والإلحاد ومن اتباع الدعوات المادية وحملة ألوية الدعوة التلمودية الصهيونية في محاولة لتحقيق أهدافها في تدمير الشباب مقدمة لتدمیر المجتمعات .

ولقد تعاملت هذه الصيحات من رجال التربية الذين اعتمدوا المذاهب المادية وتابعوا فرويد ظناً منهم ان التوجيه ووضع الضوابط من شأنها ان تؤثر في كيان الفرد فتحول بينه وبين القدرة على الحركة والنمو ، ولقد ترددت أقوال عن ما يسمى بأخطار الكبت وما يتراك في النفس من آثار ، وثبتت بالتجربة التي أجرتها العلامة ان ذلك كله خض توهم وان لا حقيقة له بل لقد ثبت ان التربية الموجهة أصدق أثراً في إنشاء الأفراد عامة. كذلك تبين زيف دعوى كراهية الأب ، وتبيّن ان الحملة عليه في الغرب لها جذور في العقائد والفلسفات القديمة ، وأنه يراد بها تدمير الاسرة أساساً .

كذلك ثبت كذب ما ادعاه اتباع المذاهب المادية من كراهية الفتاة للأم فقد أثبت الباحثون ان أغلب رسوم الأطفال تحتوي اهتماماً واضحاً بتكبير حجم الأم بعكس ما تقول به نظرية فرويد ( عقدة الكترة ) من ان الطفلة تتعلق أكثر بأبيها ، وان هذه الرسوم كما يقول الباحثون أبرزت حقيقة بالغة الالاهية وتساؤلات تثير الشك في مصادر نظرية فرويد التي اعتمدت في كراهية

الابن لأبيه على أسطورة أوديب وما يائتها بالنسبة للفتيات من الاعتماد على اسطورة الكترا ، وذلك في محاولة لإيجاد الصراع داخل الاسرة بين الأم والاب وبين البنت والولد .

كذلك فان الحرية التي تدعو اليها التربية الاسلامية هي حرية منضبطة تستهدف تقويم النشء وحمايته في هذه الفترة من العمر ، وهي فترة التكوين بحيث ينشأ فيها الابن أو البنت في محيط من الرعاية وفي قدوة سليمة وفي فهم عميق لمهمة الرجل ومهمة المرأة ودور الاب ودور الام ، حق إذا ما بلغ الناشيون رشدهم أعطيت لهم الحرية في الاختيار والتفضيل لما يرونونه صالحًا لهم على ضوء ذلك التكوين الوعي الدقيق ، ولا ريب أنه من الجرم الكبير في حق المجتمع وحق الآباء والامهات ان يتترك النشء في هذه السنوات الاولى دون توجيه ورعاية وحماية ، وإن من شأن الدعوة الى إطلاقه وعدم تقديره إنما يستهدف تحطيمه وتدميره وهو ما حدث فعلاً في مجتمعات الغرب إذ كشفت عشرات الاحصائيات والابحاث الميدانية عن ان ما يقاسيه الشباب في الغرب الآن من تصدع وتفزق وإغراق في الاباحة والمأرجوانا وغيرها جاء نتيجة هذا الاسلوب التلمودي الخطير ، وان ما دعا اليه الاسلام هو الاسلوب الأمثل وان الدعوة الى تكريم الانسان ليست في دفعه الى الخاطر بغير سلاح أو تجربة ، وإنما في حمايته وبنائه وإعداده ليكون صالحًا محل أمانة المستقبل في أمتنا .

ولا ريب ان نظرية الاطلاق من شأنها ان تدفع النشء الى ان يكون عبداً لأهوائه وشهواته ، فضلاً عن أنه يعجز عن اختيار الاصلاح إذا ما أتيحت له حرية الاختيار لأنه لم يوجه عقلياً ولا نفسياً الى ما يصلحه وال الأولى ان يعطى مفاتيح الامور فيعرف الخير والشر والحق والباطل وما يصلحه وما يضره قبل ان يعطي حق ممارسة حريته .

ومن حقنا في ضوء هذا التحليل ان نحكم على التربية الغربية بأنها تربية

قاصرة وان عوامل كثيرة تتتحكم فيها تستهدف تدمير الامم المنقوله اليها ، فعليها ان لا تنظر اليها على أنها الدواء الوحيد ولا الدواء الصحيح ، وقد رأينا نتائجها في وطنها وبيئتها ولنعرف أنها نبت غريب عننا وأنها قد أدت في النشاء الذي طبقت فيه الى الزيف والاحاد والميوعة والتخلل والاضطراب والتشكك ولنعرف ان لنا طبيعة اخرى خاصة لها وجهتها .

ووجهتها في التربية بناء الشخصية المسلمة وعلاج النفس الانسانية وصياغة النموذج الكريم من الانسان على نحو يمكن الانسان المسلم من تأدبة رسالة الاسلام . ولما كان العلم لا يكفي لتكوين الفرد والثقافة لا تكفي ولا قيمة لأي علم ولا أي ثقافة بدون قاعدة أخلاقية وهدف عقائدي لذلك كانت التربية الاسلامية هي الرجاء الذي تتطلع اليه البشرية لإعادتها مرة اخرى الى جادة الحق والى الطريق المستقيم .

## (١١)

إن أبرز معالم منهج التربية الإسلامية هي أنه :

(أولاً) : منهج متكامل يعني ب التربية الجسم والروح والعقل جميعاً بما يحقق التوازن والتكميل بين العناصر الثلاثة التي تتكون من مجموعها الشخصية الإنسانية ، وذلك حق لا تطغى ناحية من النواحي بالاستعلاء فتقىق النواحي الأخرى حاجتها وبذلك يحدث التمتع الذي هو أخطر آفات التكامل الانساني ومصدر كل الازمات التي تواجهها البشرية حين أعلت من شأن الجسم وتجاهلت تكامل العناصر كلها وترابطها .

(ثانياً) : وحدة الاتجاه أو وحدة الفكر يعني ان تصوغر قاعدة عامة للنفس الإنسانية تلتقي فيها الأمة كلها على ارض الواقع ، ولا ينبع هذا من الاختلاف في الفروع .

(ثالثاً) : يرى الإسلام ان الإنسان يولد وفيه عاملاً : الخير والشر . وال التربية هي التي توجهه الى أحدهما : ( قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ) ومن هنا يتتحقق بناء الفرد وتوجيهه ودفعه الى الطريق الصحيح ببناء إرادته ودفعه الى تحمل المشاق ومواجهة الشدائد والانفصال عن الشهوات .

(رابعاً) : جعل الإسلام التربية منهجاً وقدوة وجعل المنهج تطبيقاً في القدوة : ( لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة ) .

والقدوة تتمثل في الآبدين ثم في المعلم ثم في الأصدقاء والمعارف فإذا لم تتحقق في هذه النماذج عجزت التعاليم والمناهج عن ان تقدم شيئاً ذا بال لأنها تظل قائمة في حدود النظرة المجردة .

ويقول المربيون : إن الطفل يتقبل من آبائه أكثر مما يتقبل من معلمه وإن ناشيء الفتيا ينشأ على ما كان عوده أبوه .

ومن هنا تأتي مسؤولية الآباء وما يرتكبه البعض في حق ابنائه من تقصير في التوجيه والمتابعة يوماً بعد يوم .

(خامساً) : الطبيعة الإنسانية مرنة ويمكن تشكيلها وهي أساس بناء الأمم والمجتمعات ويمكن عن طريقها تغيير العرف العام ، ولذلك فقد عمل إليها المصلحون لبناء مجتمعات ناهضة ، ولا بد من إعداد للبيئة الصالحة للتربية الحقة التي تقوم على أساس التقاء المناهج بالواقع والتي لا يوجد فيها تناقض بين ما يعلن وما يقدم .

(سادساً) : أهمية دور الأم البالغ في إمداد البناء بالحنان والرحمة والحب والعاطفة ومدى خطر نقصان ذلك أو تلاشيه .

(سابعاً) : الحرص على كمال الذاتية والطابع والنوع ، فالبناء لا بد أن يكون لهم تربية خاصة وزيّ خاص ومنطلق خاص لفهم الحياة وتعلم امورها يختلف عن منطلق الفتاة وكذلك تبيان الملابس والزينة ، وأنه من الخطير امتناع ذلك لأنه يفسد الفوارق العميقية القائمة بين شخصية الفقى وشخصية الفتاة والتي يجب ان تحرص على بقائها وتمعيقها .

(ثامناً) : إقامة أساس التربية على الترهيب والترغيب معًا على طريقة الحزم المزوج بالرفق والربط بين الإيناس والإيجاش على ألا يؤخذ الطفل بأول هفوة بل يتغافل عنه ولا يهتك سره ولا سيما إذا ستره الصبي واجتهد في إخفائه .

- (تاسعاً) : تربية البناء على الرجولة والخشونة :  
علموا أولادكم العوم والرمادة ومرورهم فليثبوا على الخيل وثباً .
- (عاشرأ) : القرآن هو مدخل الفكر والاسان والذكر في كيان كل مسلم فهو المصدر الاول للتعليم والتربية والاخلاق ، وقد قدم لنا القرآن منهجاً كاملاً للمعرفة : عالم الطبيعة وعالم الغيب وعالم الآخرة ورسم لنا صورة كاملة عن نشأة الحياة وعن سر خلقنا .
- (حادي عشر) : منحنا الاسلام فهم دورنا الحقيقى في هذه الحياة ومسؤوليتها بها .
- (ثاني عشر) : جعل الاسلام العبادات هي علامة الاتصال الدائم بالمصدر الاكبر وجعل ممارستها في اوقات معينة مرتبطة ببناء الارادة وإعداد النفس الانسانية للترقي الى المألا العالى .
- (ثالث عشر) : جعل الاسلام(الالتزام الاخلاقي) قاعدة البناء كله والقاسم المشترك على مختلف القيم والاواعض .
- (رابع عشر) : دعا الاسلام الى الفكر والذكر ونعي على الغافلين .

## الفصل الثاني

### التعليم الاسلامي

لابد لكي يقوم منهج التعليم الاسلامي من ان تكون قوائمه « التربية الاسلامية » قد أعدت وانه لا سبيل الى نجاح رسالة التعليم إلا إذا قامت وفق منهج تربوي صحيح ، فال التربية للفرد والتعلم للمجتمع . والتربية هي الطريقة التي تطبع بها الفرد بطابع معين لإعداده لتلقي التعليم الذي هو مجموعة المعرف التي تزود الفرد بالخبرات . والتعليم وحده لا يغنى ولا يكفي دون ان تمهد امامه الطرق من الاخلاق والقيم والاهداف الواضحة السديدة ، والخلق ليس شيئاً فردياً فحسب ولكنه فردي وجماعي ، والعلم بعد ذلك رسالة وليس وسيلة لكسب العيش ، فإذا صار أفقه الى هذا الحد حرم الناشئ من الترقى الصحيح . ولا ريب ان العلم والقدرة على كسب المال إذا لم تكون مقرونة بالخلق والمهدف أصابت صاحبها بالاضطراب والفساد مما يفسد عليه قدرته ومهاراته ويجعل وجهتها الى الشر والاخلال .

فال التربية هي إعداد للنشء من ناحية إعداد الاطر النفسية والاجتماعية القادرة على حمل أمانة رسالة العلم على أساس نظرية الحياة التي يؤمن بها الناشئ

والمهدى الذى يتوجه اليه فرداً وأمة وجماعة وفي إطار الأمانة المنوط به  
والمسؤولية القائمة في عنقه .

إذن فلا يمكن إطلاق التربية أو إطلاق التعليم ، لأن ذلك الأطلاق من شأنه أن يتوجه بالناشئين إلى غير الغاية التي تراد بهم أو يستهدفها مجتمعهم أو أمتهم . والتربية والتعليم ليسا غاية ولكنها وسيلة لغاية : وسيلة التربية لبناء الإنسان قادر على حمل رسالة الامة وعقيمتها ووسيلة التعليم حماية الأمانة وعقيمتها وإذاعتها ودعم العقيدة وتطبيق الشريعة وإقامة الحجۃ بالمنطق والدليل على صدقها وصحتها .

فالتعليم ليس من أجل منطلق حر لا ضابط له ولكن من أجل دعم نظرية الحياة لأمة . ذلك أن الامة صاحبة الرسالة يجب أن تقوم على الصغار بال التربية والتعليم ليكونوا ورثة صالحین هدف حياتها ولنظام مجتمعها ، وعليها من أجل ذلك أن تصوغهم في قوالب عقائدها ومناهج حياتها .

ويصدق في هذا قول قريوي غربي لا أدرى لماذا لم يعرفه دعاة التعليم الحر أو مدرسة ( افعل ما تشاء ) يقول : منها قيل في تفسير التربية فيما لا يختلف فيه أنها سعي للاحتفاظ بنظرية سبق الإياع بها وعليها تقوم حياة الامة وجihad في سبيل تحليدها ونقلها إلى الأجيال القادمة .

ولعل في هذا إجابة عن التساؤل الذي يتتردد : عن التربية والتعليم وهل هما وسيلة أم غاية ؟ إن المعرفة لا تصلح بدون إطار الخلق والمعرفة وسيلة إلى هدف هو بناء منهج الحياة الصحيح ودعمه وتحريره مما يصيبه على مدى الأيام من الاضطراب أو الانحراف .

ولا ريب ان الله هو المثل الاعلى للمسلمين وهو الغاية القصوى التي يجب ان تنتهي إليها كل غايات التربية والتعليم وان القرآن الكريم هو نقطة الانطلاق لبناء النفس الانسانية في الفرد وبناء الاسرة ثم بناء الجماعة الاسلامية القائمة

على شرعة الله بالحق وإقامة نبجه الرباني المصدر الانساني المدف على هذه الأرض.

فأين هذا من مناهج المدارس الوطنية والجامعات القومية التي يزخر بها العالم الإسلامي اليوم ؟ وكيف يمكن ان يكون تدريس مادة (الدين) وسيلة لتحقيق هذه الغاية وكل ما يتعلمه المسلم متصل بالاسلام من قريب حق علوم التكنولوجيا والفلك والطب والطبيعة وغيرها ؟

إن هدف التربية والتعليم كما يقول الدكتور الجمالي : هي كيف يمكن مساعدة الانسان ليؤدي مهمته كمستخلف لله في الارض وهي المهمة التي نص عليها القرآن الكريم ، وهل تستطيع انظمة التربية الغربية سواء المسيحية منها أم المادية ان تتحقق ذلك ؟

حال : فال التربية المسيحية تقوم على أساس فلسفة مختلفة تماماً لأنها تستند وجودها من نظرية الخطيئة الأصلية التي تبني عليها عمدة التربية والأخلاق وفلسفة الحياة البشرية كلها ، وهي نظرية منقوضة تماماً في الاسلام ؛ هذا بالإضافة الى الخلاف بين الجزاء الآخرولي الذي هو في الاسلام حسي ومعنى وفي المسيحية معنوي ، وهناك الخلاف الاكبر مع مفاهيم التربية المادية وهي مستمدۃ اصلاً من مفاهيم التلمود حيث تهدم عمدانين اساسيين في التربية الاسلامية المسؤولية الفردية وما يتبعها من الالتزام الاخلاقي والجزاء الآخرولي . فضلاً عن نظرتها الى الانسان على نحو مادي حيواني وعلى نط جزئي انشطاري مادة وليس روحأ ، جسداً وليس نفساً .

من شأن هذا كله ان يعمق الفوارق بين النظرية الغربية والنظرية الاسلامية في أدق مفاهيم العلم والتعلم فضلاً عن مفاهيم التربية والأخلاق .

ونحن في مفهوم الاسلام قد حققنا بال التربية بناء الانسان أما بالتعليم فنقسم بناء المجتمع الذي هو مجموعة من الافراد تسعى الى غاية كريمة هي إقامة شرعة العدل والإباء والرحمة .

أما وقد غرست التربية روح المسؤولية والشغور بالواجب والارادة القادرة على التغيير والإخلاص في العمل فإن التعليم يبدأ لكي يشحن هذه النفس وهذا العقل بالقدرات التي تمكنه من العمل الصحيح في اتجاه الغاية المثلث وبكل الملاكات والقدرات في اتجاه الاستجابة للعصر ودون مجاوزة قواعد العقيدة وضوابط الشريعة .

فإذا كان التعليم هو الحركة فإن التربية هي إطار الثبات الذي يحقق طابع الأخلاقية وصدق الوجهة إلى الغاية وتصحيح المسار مرحلة بعد أخرى حتى لا تتتجاوز الأمة أهدافها الحقة وغايتها الأساسية حين تحاول المطامع والأهواء ان تحرفها عن الطريق المستقيم .

(٢)

إذا كانت مفهوم التربية في الإسلام هو الترابط بين تربية العقل والقلب والجسم فإن التعليم هو بمثابة إعداد العقل [إعداداً سليماً] ليكون قادراً على الفهم والاستجابة ولذلك فقد عني قادة التربية الإسلامية في ذلك بعدها أمور:

(أولاً) : إعطاء الفرصة الحدث لل اختيار في مجال التعليم بما يتناسب مع رغبته وذوقه وقدرتة دون أن يفرض عليه علم معين فيجعل أساس التربية مراعاة ميول الأطفال واستعدادهم حتى لا يرهق الأطفال بأعمال يصعب عليهم أداؤها ، لأنهما لا تجري مع رغباتهم ، فال التربية الإسلامية تحترم الميول منها كانت متواضعة . (ثانياً) أذنت التربية الإسلامية للطفل بعد الانصراف من المكتب أن يلعب لعباً جميلاً يستريح اليه من تعب التعليم بحيث لا يتعب في اللعب ، وقررت أنه إذا منع الصبي من اللعب وأرهق بالتعليم مات قلبه وبطل ذكاؤه وتغتصب عليه العيش . (ثالثاً) : دعت التربية الإسلامية إلى الرفق في التعنيف عند وقوع الذنب لأن كثرة العتاب تهون على الحدث سماع الملامة وتخفف وقع الكلام على نفسه . وإن يكون التأديب بالحزم المزوج بالرفق ؟ ذلك أن الشدة على المتعلمين مضره بهم فإن إرهاق الحد في التأديب مضر بالتعليم سيما في أصغر الولد ، ومن كان مرباه بالعنف والقهر من

المتعلمين سطا به القهر وضيق على النفس في انبساطها وذهب بنشاطها<sup>(١)</sup> .

(رابعاً) : أرست التربية الإسلامية قواعد جلى لإعداد المعلم نفسه فدعته إلى الشفقة على المتعلمين ، وان يحررهم بمحرى بنسيه ، وان يفيد الآخرين من غير ان يطلب على ذلك أجراً ، وألا يلقي على التلميذ ما لا تتحمله عقوبهم ، وان يبدأ بالأهم والأساسي والبدء بالقرب المأوس قبل البعيد المجهول ومراعاة الفروق العقلية والميول الفردية بين الأطفال .

ويجب على المعلم ان يتتجنب كل ما يثير الشك في نفوس الضعفاء والاقتصر على العام المتداول المأثور .

وان يحرص المتصدي للمعلم من العلوم ان لا يصبح في نفس المتعلم العلوم الأخرى وان يراعي التدرج في ترقية المتعلم من رتبة الى رتبة ، وان يكون المعلم عاماً بعلمه فلا يكذب قوله فعله .

(خامساً) : حرصت التربية الإسلامية ان تدعو المتعلم ان لا يتکبر على العلم ولا يتآمر على المعلم بل يلقي اليه زمام أمره ويندعن لنصيحته ويتواضع لمصلحته مع الاصفاء والإدراك والاطلاع ، وعلى الطالب ان لا يدع فناً من العلوم المحمودة ولا نوعاً من أنواعه إلا نظر فيه ، ولما كان من غير الممكن الالام بكل العلوم فالحزم ان يأخذ من كل شيء أحسنـه ، وان لا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله ، وان يحرص المتعلم على شرف الشمرة ووثاقة الدليل ولتعليم ان أشرف العـلوم هو العلم بالله عز وجـل وملائكتـه وكتـبه ورسـله ، وان يكون قصد المتعلم تحـلية باطـنه وتجـمـيلـه بالفضـيلة .

ومن يراجع آراء رجال التربية الغربيـين (فروـبل وهرـبرـت سـبنـسـر وجـان جـاك روـسو) وغيرـهم يجد ان الأصول الأولى للتعليم في الغـرب كانت مستمدـة من هذه القـوـاعد .

---

(١) هذه مجموعة من آراء ابن خلدون والغزالـي وابن سـينا .

وقد أشارت الدكتورة علية الكبارية في رسالتها عن التربية والتعليم الى المصادر التي أخذ منها هؤلاء المربون الاجانب نظرياتهم التربوية والعلمية وردها تفصيلاً الى ابن عبدون وابن خلدون والبعدرى والغزالى شيخ المربين .

أما مناهج التربية والتعليم المعاصرة فونها قد اختلفت عن ذلك كثيراً ، ووُقعت في الاحتواء التلمودي الصهيوني بعد سيطرة مفاهيم الثورة الفرنسية التي حمّلت أساساً الى هدم جانبيين اساسيين في التربية الغربية هما : الدين والأخلاق .

( ٣ )

إذا كانت التربية تستهدف تكوين شخصية الفرد ، فإن التعليم يستهدف تكوين شخصية الأمة ، فهل استطاع التعليم الوطني في العالم الإسلامي خلال هذه الأجيال الأخيرة أن يحقق هذا المهد وان يخرج الجماعة الفاهمة لدورها ورسالتها ، القادرة على حمل هذه الرسالة في العالمين ، المستطيبة ان تخفي نفسها من غارات المعذبين وغزوات الآخرين ؟ ذلك ما تجنب عنه وقائع التاريخ بالنفي البداء ، وهذا ما قصدت اليه القوى الاستعمارية ، وما حققته حين أخرجت المسلمين والعرب من إطار نظامهم التربوي والتعليمي الذي خرج أولئك الأعلام النوابع في مجالات الحرب والسلم والحكم والعلم والفكر مما تزدهي بأسمائهم وأعمالهم صفحات التاريخ .

لقد أخرجت الأمة كلها من إطارها وهدفها لتكون باحثة عن القوت ، متصارعة على الدرجة ، متطلعة إلى المطامع القليلة .

وإن نظرة على الشباب المسلم في آخر مراحله التعليمية في الجامعة ليكشف عن ان مراحل التعليم كلها عجزت عن ان تقدم له هدف بناء نفسه أو هدف بناء أمه ، وأنما شغلته بمعلومات ومناهج من شأنها ان يجعله شاكاً متربداً ، حاماً ، مضطرباً ، ممزقاً ، فلا أجبات هذه المناهج عن حاجاته المفسية ولا هي قدّمت اليه هدف أمه الحقيقي في الحياة .

وأخطر ما قدمته هذه المناهج أنها جعلت دراسة العلوم الطبيعية بديلاً للفاهمين دينه فزقت الوحدة بين قلبه وعقله، ذلك أنها قدمت له تلك النظريات والفروض المتغيرة التي لم تثبت على أنها حقائق ، فإذا به يقارنها بما جاء في مفاهيم الاسلام ، فلا يعرف كيف يلائم بينها . ولما كان أساتذته الطبيعيون هم القدوة فقد قبل وجهة نظرهم ، وغفل عن مصدر قوانين الطبيعة الاول ، الخالق الذي هو الحقيقة الاساسية في علوم الطبيعة نفسها ، فجرى وراء الفهم بأن الطبيعة تعمل تلقائياً وان العالم وجد صدفة وان المادة خالدة وغير هذه من الفروض التي لم تثبت والتي تحاول المدرسة أو الجامعة ان تقدمها اليه على أنها حقائق العلم .

ومن هذا المنطلق ركز المنهج العلماني في التعليم على إنكار مقومات التوحيد وأصول العقائد التي إن درست في مادة الدين فهي تدرس على نحو لا يلاؤها النفس ولا يحل الإشكال بينها وبين ما تقدمه علوم الطبيعة .

كذلك ففي دراسات الفلسفة وعلم النفس والعلوم الاجتماعية يحس الطالب المسلم ان هناك قوانين تحكم المجتمعات والامم مخالفة لتلك القوانين التي رسمها القرآن فهي معارضة حقيقة لكل ما جاء به الاسلام .

إذا اتصل الامر بعلوم القانون والاقتصاد والسياسة وجد الطالب المسلم مناهج معارضة تماماً للفاهمين الاسلام تدرس على أنها هي نظم المجتمعات .

وهكذا أقام المنهج العلماني (اللاديني) في التعليم نظاماً كاملاً شاملاً مضاداً لمفهوم الاسلام نفسه يستهدف إخراج الشباب المسلم من كل المقومات الاساسية لعقيدته وللنظام الاسلامي نفسه الذي هو أولى النظم بالدراسة والتطبيق في بيوتات العالم الاسلامي ومجتمعاته .

ومن هنا تتشكل لدى الطالب المسلم نظرة مادية خالصة للكون والحياة، وتتبني بينه وبين الفكر الاسلامي حواجز صفيفة ، فلا يعرف عن الاسلام

إلا أنه دين عبادة وصلة ومسجد وأنه ليس له صلة ما بالحياة والمجتمعات ،  
وليس له وجهة نظر واحدة في شؤون الاقتصاد أو القانون أو التربية .

ويعين على هذا ان دراسة الجغرافيا والتاريخ تقوم على الأقلية المبعثة ،  
وعلى تعميق الفواصل بين الأقطار ، وعلى إعلاء شأن التاريخ الأقليمي بما يتصل  
به من آثار فرعونية وإطارات إقليمية وكائنات خاصة ، فإذا عرف شيئاً  
عن البلاد العربية فمعرفته بها أو علاقتها بها لا تعود أن تكون رابطة تاريخية  
أو جغرافية بحكم خطوط الطول والعرض والجوار أو تبعاً لوحدة البحر  
الابيض المتوسط .

وتغيب عنه تلك الرابطة العميقة الواسعة : رابطة الاسلام وامته ودولته  
الضخمة الواسعة التي كانت جامعاً هذه الأقطار وهي وحدة فكر وعقيدة  
ولغة فإذا فكر في شؤون علاقات الامم لم يجد ان يفكر في إطار القوميات  
التي يدرسها على نسق القوميات الغربية وبفاهيمها ، قوميات تحاول ان تقوم  
على المصالح ولا ترتبط بالتاريخ أو العقيدة أو وحدة الفكر .

وفي مجال علوم النفس والأخلاق والاجتماع تسيطر النظرة الجبرية وطابع  
العلوم الحديثة في الاسلام للواقع وتقبله ومجاراة روح العصر دون نظر الى  
مدى صلاحتها للنفس الانسانية أو المجتمع الاسلامي ، فيعجز المتعلم المسلم  
عن بناء التكوين النفسي والخلقي القادر على مواجهة اخطار التحلل والتلف  
والاباحيات .

كذلك فإن هذه المنهج لا تفرق بين خواص الرجال وخواص النساء ،  
فلا تقيم تعليماً منفصل لفتاة بحكم تكوينها النفسي والاجتماعي والبيولوجي ،  
وبحكم مسؤولياتها ورسالتها وعملها ، ولكنها تشارك مع الرجال في برنامج  
واحد فلا تعرف لها مهمة خاصة ولا هدفاً محدداً .

وبذلك تقصر مناهج المدرسة والجامعة الوطنية عن بناء المسلم القادر  
على معرفة هدفه وغايته ، فيعجز عن ان يعرف ان الاسلام وجهة نظر في

يختلف قضايا الاجتماع والاقتصاد والقانون والسياسة وعلوم النفس والأخلاق ، وان له منهجاً كاملاً مستقلاً مختلطاً عن هذه الدراسات ، وهو أولى بأن يلم به لأنّه يعيش في بيئه عربية إسلامية الأصلح لها ان تطبق ما يصلح لها وما يتصل بكيانها ومزاجها وذوقها وعقائدها .

كذلك فإن هذه العلوم المختلفة للإسلام فيها دور ، وقد أرسى جذورها وقواعدها وأفهام المنهج العلمي التجاري الذي تبني عليه العلوم الحديثة ، ودوره في الفلك والطب وغيره بالغ الأهمية ، كل هذا لا يعرفه المتعلم المسلم . فيظل مليئاً بإحساس الانتقاد لأمته والإكبار لغرب ، بينما لو اتيحت له الفرصة لعرف دور أمته في بناء هذه العلوم وعرف وجه نظر فكره الإسلامي في هذه النظريات التي يدرسها على أنها علوم ثابتة ومسليات لامراجعة فيها ، بينما هي تتغير كل يوم وبينما هي عرضة للخطأ والصواب وبينما يجد أهلها من نتائجها كثيراً من الاضطراب وهي من نتاجهم الخاص فكيف بها لتطبيقها في بيئه أخرى مختلفة تمام الاختلاف .

ومن شأن مناهج المدرسة الحديثة في البلاد الإسلامية أنها لا تبني شخصية المتعلم المسلم من حيث إيمانه بلغته ولا تاريخه ولا عقيدته ولا مقومات فكره ، ولا تكشف له عن الدور العظيم الذي قامت به أمته وعقيدته في بناء الإنسانية نفسها خلال ألف عام تقريباً ، وتظلمه على أن المرحلة التي يمر بها الآن هي مرحلة تحالف ، وان التخلف إنما جاء من الغفلة والانفصال عن القيم الأساسية التي دفعت الأولين بقوه .

ولذلك نجد في المدرسة الوطنية إهالاً لغة وغلبة للعامية ، ونجد استعلاء اللغة الأجنبية ، وفي الجامعات تدرس العلوم باللغات الأجنبية ليظل الشباب على إحساس دائم بالتبعية والولاء والعبودية للغات التي يتعلّم بها بينما أصبح ميسوراً إلى حد بعيد ان تنقل العلوم كلها في وعاء اللغة العربية وان تدرس بها .

(٤)

كانت ازدواجية التعليم من اخطر التحدیات التي حرص النفوذ الاستعماري على بقائها وتمييقها، وذلك حتى يقع المجتمع الاسلامي في هوة الصراع الدائم. ذلك ان التعليم الذي عرفه العالم الاسلامي قبل الاحتلال كان تعليماً جاماً، وكان طابعه عقائدياً ، ولكن لم يكن دينياً بالمعنى الذي يحاولون ان يصفوه به تشویهاً واحتقاراً ، فقد عرف الازهر في السنوات الماضية علوم الفلك والطبيعة والرياضيات ولم يتوقف عنها إلا في سنوات قليلة، وكان مفهوم العلم عند المسلمين في مختلف كتاباتهم هو العلم الجامع لعلم الدنيا والآخرة . غير ان النفوذ الاستعماري كان يرى مدى الخطر في هذا النوع من التعليم فوصره بال محمود رغبة في إقامة رأس جسر للتعليم الاجنبي والمدنى المستمد من المدرسة الغربية في مناهجهما وفي علومها ايضاً ، ومن خلال هذا العمل أتيح له ان يوسع قاعدته وان ينشئ اجيالاً تبنوها وتحتها و وكل اليها العمل والقيادات ومحبب اجيال التعليم الاسلامي القديم وعز لهم عزلاً تاماً ولم يسمح لهم بالاندماج إلا بعد ان أصبحت له الاغلبية المطلقة وبعد ان اهتز التعليم الاسلامي وانتقص من اطرافه وتفرق على قاعدة التخصص التي هي بمثابة التجزئة ، وكانت هذه اول هزيمة له وأكبر نصر لأصحاب المناهج الواقفة ، حيث استطاعوا ان يخضعوا المنهج الاسلامي الجامع المتكملاً الى اسلوب التخصص دون ان يكون ذلك على قاعدة الاستيعاب الواسعة التي تضع الجزء في مكانه من الدائرة

الكلية فلا يتتجاوزها ولا يقصر دونها .

وسيطر التغريب حتى جاء الوقت الذي دعا فيه خصوم الاسلام الى ان يلغى التعليم الاسلامي في السنوات الاساسية ويصبح دراسة تخصص في السنوات العلمية .

وقد سقطت هذه الدعوة وعجزت عن ان تتحقق وجودها ، وبقيت الثنائية وظل الازدواج قائماً مستمراً ، على اساس وجود نظامين تعليميين مختلفين في الغاية والمنهج والتقاليد والظروف بينما تحتاج أمتنا الى منهج أصيل مستمد من اللغة العربية والاسلام مسارٍ للعصر ملتقى به يحول دون انقسام القوم على أنفسهم أمام عدوهم ، ذلك ان إيجاد وحدة الشعور ووحدة العقلية هو اساس وحدة الأمة والمقدمة الحقيقية لبناء هذا الكيان العربي الاسلامي قوياً شاخماً.

ولقد ثبت ان الثنائية قد حالت دون وحدة الأمة ، وأصبحت خطراً على وحدة الفكر وإن السبيل الوحيد لهذا هو ان يقوم اساس التعليم إسلامياً أصيلاً ثم يستمد ما يحتاج اليه من الانظمة المختلفة دون الخضوع لها وان يكون ما يقتبس منها بمثابة ( مواد خام ) يؤخذ منها ما يلزم دون ان تفرض أي تبعية أو تحول دون فقدان الروح الأصيل .

ومن غير الانطلاق من مقدمة القرآن نفسه كأساس للتربية والتعليم فإن كل حماولة باطلة وكل جهد ضائع بمحاولات الترقيع والخذف والإضافة .

لا بد ان يقوم الاصannel على الاعيان بالله والنبوة وللقرآن منزلة من عند الله ودستوراً للحياة والمجتمع ومنهجاً كاملاً للميتافيزيقا وللغيث ولعالم الشهادة ، وان يكون القرآن أساس جميع العلوم ومصدرها ليس بأنه يحمل مادتها المتطرفة بل على أساس انه المنهج الذي يرسم الحركة والإطار الذي تجري الحركة داخله لا تتجاوزه .

وان ننطلق على أساس ان نأخذ العلوم الطبيعية والرياضية والتكنولوجيا

أخذناً مباشراً بأن ننقل مادتها إلى اللغة العربية، أما في نظام العيش ومقاييسه، الاخلاق والنفس والمجتمع فلا نلتعم إلا مفاهيمنا الاساسية . أما في شؤون القانون والاقتصاد والسياسة فتتجري المقارنة الواسعة بين منهج المسلمين ومنهج الغربيين ليكشف للدارس المسلم حقائق الامور على ان يكون منهج الاسلام ونظامه شيئاً قائماً بذاته منفصل تماماً عن التاريخ الذي هو حاولة تجحث في مراحل ولم تنجح في اخرى ، وهي ليست محسوبة على اصول الاسلام وإنما محسوبة على الحاكمين الذين عملوا بالاسلام أو تجاوزوه.

لتعقد مناهج التعليم العربية الاسلامية المقارنات بين المعلوم الانسانية والاجتماعية الغربية وما وصلت اليه وبين العلوم الاسلامية في هذا المجال لنكشف للبشرية مدى أصالة الاسلام في مواجهة الانسان والحياة والمجتمع .

أما في العلوم التجريبية فعلينا ان نبني دورنا في إعداد هذه المناهج والمرحلة الضخمة للتي قطعها المسلمون في الطريق الى الطب والفلك والكيمياء والبحث العلمي ثم نتابع الدراسة بروح الاسلام التي هي روح الأخوة الانسانية التي تجعل العلم رحماً لا عدوانياً وتجعله للبشرية كلها وليس حكراً لقلة من أصحاب النفوذ والثروات .

(٥)

كشف الدكتور محمد البهري خطر سيطرة مناهج الغرب التربوية في مقدمها: سبنسر البريطاني وديوي الامريكي فأشار الى مدرسة المعلمين العليا التي انشأتها بريطانيا والتي دربت فيها جيميل القادة التربوية في مصر وقال : لقد خلت برامجها من الثقافة الوطنية وهي الثقافة الاسلامية العربية وإن أخذ التاريخ الاسلامي في صورة متواضعة مكاناً متواضعاً فيها ، ولكنها على كل حال لا يمثل الثقافة الاسلامية في كمها ولا في نوعها . ومع تعدد اقسام التعليم فيها ، كان هناك قدر مشترك ضروري بين هذه الاقسام هو علم «التربية» وورود الاستعمار البريطاني لفن التربية في هذه المدرسة العليا ككتب سبنسر الانجليزي ، ثم بالإضافة إليها كتب ديوи الامريكي وكلامها من دعاء مذهب (الواقعية) في التعليم أو بعبارة أخرى من دعاء إنسكار الدين (أي المسيحي) ومن دعاء إبعاده عن مناهج التعليم .

وتعلم الطلبة في مدرسة المعلمين العليا في القاهرة حجاج سبنسر وديوي ضد الدين ، ومقصود سبنسر وديوي من الدين ( وهو المسيحية ) وعلى الأخص الكثلكة .

ولكن المتخريجين من هذه المدرسة طبقوا هذه الحجج أو نقلوها الى مجال الدين الاسلامي ، إذ اعتقادوا ان ما يوجه الى أي دين يصح ان يوجه الى دين

آخر وبالأخص وهم خلو منذ نشأتهم التعليمية الاولى في مدارس التقدم المدني - وهي المدارس الحكومية - من أية صورة عن الاسلام كدين وثقافة ، إذذاك وهي حياة تبعد كثيراً أو قليلاً عن ان تمثل الاسلام تتمثلاً صحيحاً .

وكان هؤلاء المتخرجون معلمين ثم أصبحوا بعد ذلك ذوي إشراف في تربوي في وزارة المعارف المصرية وصحبتهم في حالتهم الأولى كارافقتهم في حالمهم وهم مشرفون على التربية والتوجيه في وزارة المعارف صورة إبعاد الدين عن مجال التربية .

وتردلت في نفوسهم نفس العوامل التي أثارها (سبنسر) و (ديوي) ضد المسيحية وعلى الاخص : ان معرفتها وتعاليمها ضرب من خيال الانسان يقع تحت الظروف السيئة في الحياة وهي لذلك أولى ان تكون خرافه من ان تمثل الواقع ويشارك معها في الضعف وعدم تمثيل الواقع ما يسمى بفلسفة المثل والقيم الاخلاقية ، وزاملت هذه العوامل في نفوسهم خفة وزن رجال الدين كما زاملتها في نفسي سبنسر وديوي ولكن رجال الدين هنا في مصر ليسوا قساوسة إنجلترا وأمريكا ، وإنما هم علماء الأزهر ، لأنهم حملة الثقافة الدينية الاسلامية . وألحقو بعلماء الأزهر في الاستخفاف بقيمتهم أبناء دار العلوم لأنهم أزهريون النساء ، ولأنهم لا يخرجون عن كونهم حملة الثقافة الوطنية الاسلامية والعربية .

واختفى الاحتلال البريطاني رسمياً في سنة ١٩٢٢ وظهر الاتجاه التقليدي لفكري سبنسر وديوي في التربية المصرية منذ عام ١٩٢٥ أي منذ حاولت وزارة المعارف ان تستقل عن المشورة البريطانية في التعليم والتربية . ولكن هذا الاتجاه التقليدي تبلور تبليوراً واضحاً عندما انشأت وزارة المعارف المصرية ممهد « التربية العالى » وترعم التوجيه التربوى فيه الاستاذ إسماعيل القباني ، وعرف القباني وتلاميذه المدرسوں تحت زعامته في معهد التربية العالى باصحاب المدرسة ( الديوية ) وازداد تشبعهم بديوي بعد انتهاء الحرب

العالمية الثانية وبعد ان دخلت أمريكا كمساهم في السياسة العالمية الدولية واحتلت ثقافتها في الشرق مكاناً مرموقاً بما تقدمت به الى بلاد هذا الشرق بما سمعته (مساعدات فنية) واقتصادية وتبادل ثقافي بين الطلاب والعلماء .

وعن طريق المساعدات الفنية الأمريكية والتوسيع في تبادل الزائرين من العلماء المصريين، نمت عظمة ديوبي في نفوس أتباعه من موجهي التربية في مصر وأخذ بها مكانة القداسة .

وتولى القباني وزارة التربية فنقل نظم مراحل التعليم المختلفة في أمريكا الى التعليم المصري ، وحرص هو ومعاونه من أتباع مدرسة ديوبي في مصر ان تتحقق أفكار ديوبي في التعليم ، كما حرصوا على إبعاد أبناء الأزهر والاستخفاف بأبناء دار العلوم وعلى التخلص منهم ومن إشرافهم ؛ والسبب أنهم حملة الاسلام ولقتهم <sup>(١)</sup> ا.ه .

ثم كانت بعد ذلك خطة التعليم الخطيرة التي حاولت القضاء على اللغة العربية العظمى وهي طريقة ( شرشر ) التي استقدمها أتباع ديوبي في مصر والتي كانت بعيدة المدى في خلخلة نظام تعليم اللغة العربية .

---

(١) مستوى الكفاية الفنية للتعليم في مصر : الدكتور محمد البهي .

(٦)

كانت كلية الآداب من أخطر كليات الجامعة أثراً في دعم المنهج الغربي  
الوأ Ferdinand في التعليم ، ذلك أن هذه الكلية بفروعها ( فلسفة واجتماع وعلم نفس  
ولغة ) هي التي تختص بدراسة شخصية الأمة في تاريخها وفلسفتها وحضارتها  
وطبيعة إقليمها وآثارها وأدبهما القديم والحديث وما تلتقي فيه من روافد  
حضارية شرقية وغربية قديمة ومحدثة ، ولذلك فإن سيطرة مناهج التغريب  
عليها كان بعيد الأثر في تكوين الاجيال التي نشأت وهي تتطلع إلى مصر  
والعرب والعربية والاسلام والقرآن نظرة استخفاف بينما تعلو في نفسها أمجاد  
الغرب وفلسفاته وحضارته .

ولقد دعا كثيرون إلى إطلاق الجامعة لدراسات الغرب دون أي قيد  
يربطها بالأمة أو عقائدها أو قيمها وعمل في سبيل ذلك كثيرون في مقدمتهم  
لطفي السيد وطه حسين وأحمد أمين وأمين الخولي وغيرهم .

وقد واجهت حركة اليقظة الاسلامية هذا التيار وحددت مهمة الجامعة  
فقالت :

« إن الجامعة المصرية وكل جامعات الدنيا مطالبة في البيئة التي نشأت  
فيها بأمررين اثنين : أولهما أن يتزهه القائدون بها عن كل موجودة نحو دين البلاد  
ومقدساتها وحقوقها فلا يتخذوا من البحث العلمي وحرية الرأي وسائل لتوهين

رابطة النشاء المثقف ، بدينه وقوميته ومقدساته ، لا سيما إذا كان دينهم صديقاً للعلم وداعياً إلى الحق وأخذوا بيد المعرفة ينشطها ويرفع مقامها .

وفي مصر أناس نعرفهم بأعيانهم ويعرف أتباعهم بسياحهم لا يفتاؤن يعملون على توهين رابطة النشاء بالدين ، وتهوين أمره عليهم وتشكيكهم فيه وتنفيرهم منه ، وما فتئوا يحاولون إقناعهم بأن الحقائق تخالفه وأنه وقف حجر عثرة في طريقها . والواقع انهم لم يتحرروا من مؤثرات يبئسهم إلا ليتدبروا بمؤثرات أجنبية عنهم ، ولم تتحرر أفكارهم من قيود التقاليد الإسلامية إلا ليصعدوها بأغلال تقاليد أخرى غريبة عنهم ، ففسدة هيكل الجامعة يجب أن يحرصوا على أن يعرفوا في أمتهم بأنهم مجردون من الضفن المقدساتها ويجب أن يتذمروا عن ان تحفظ عنها كلمة أو حركة تدل على ان لهم هو يميل بهم الى جهة معينة ويصيغون بلوون يعرفون به ، أما الذي يقنع أمته بأنه منفمس في هذا الهوى الى أذنيه ، مصطنع باللون الخاص الذي يحافي به الإنصاف والاعتدال ولا يفسل وجهه عنه ، فليعذر الناس إن اعتبروه من أعداء الحقيقة لا من سدنتهما وانصارها .

(ثانية) الأمر الذي طالب به الجامعة هو ان تقوم بمهمة البعث لمعاصر هذه البيئة ، وان تجدد حياتها المعنوية ، فالجامعات الإيطالية اليوم تنحو بالفعل نحو إحياء مجد الرومانيين وإقناع الطلبة الجامعيين بأن من واجبهم إكمال سلسلة التاريخ التي ابتدأها قياصرة روما ، كذلك فإن الجامعات الألمانية تعلم ان لها وظيفة روحية لا تتنافى وطبيعتها نحو حقائق العلم .

إن لمصر مكانة في المجتمع الإسلامي والأمة العربية ومن شأن ذلك ان يكون الجيل القائم الآن في مصر والأجيال التي ستختلفه حلقات في سلسلة التاريخ الإسلامي ، وهي لا تكون كذلك عن جدارة واستحقاق إلا إذا اعترفت الجامعة المصرية بأنها هيكل العلمي والثقافي في بلاد عربية إسلامية.

وإن من واجبها للإسلام الذي هو دين المصريين والعرب التي هي لغة المصريين أن تحمل لون محاسنها وأمجادها كما تحمل لواء العلم المجرد والعقل الحر والفكر المطلق ، وإن هذا لا يتنافى مع هذا ، ومن زعم أنه ينافي فهو غشاش .

كما ان الاسلام لا يقف في طريق العلم في مصر ولا في غير مصر فيجب على هيكل العلم في مصر ان لا يقف في طريق الاسلام ، نريد نشأة مثقفًا عالماً ولكننا نريد نشأة مسلمًا عربياً .

وكلا ابطأ القائدون على أمر الجامعة في هذه الحقيقة تأخروا عن ان تأخذ مكانها الذي تستحقه ، وكانوا بذلك مسيئين الى وطنهم <sup>(١)</sup> ا.هـ .

ولقد تداولت الابحاث المتعددة تلوك الاخطار التي واجهتها الجامعة في العالم الاسلامي كله ، ومن كلية الآداب أصدر طه حسين مفاهيمه التي جعلها اساساً للبحث الادبي وهي مضادة لحقائق القرآن وأصول الاسلام وقد سيطرت مناهج المستشرقين على مفاهيم الأدب والفلسفة والاجتماع والأخلاق والنفس منذ اليوم الاول ، ولم تتناول الدراسة إلا مذاهب فرويد ودور كaim وليفي برييل ورينان الذي أقامته له كلية الآداب احتفالاً مهيباً عام ١٩٢٧ بمناسبة مرور مائة سنة على ولادته القى فيه الشيخ مصطفى عبد الرزق محاضرة طويلة رد فيها ما أورده رينان من تحريف للعرب وانتقاد للمسلمين .

ولا ريب عندما بدأت الجامعة المصرية كانت الآمال معلقة بها ، وقد رأى القائدون بها من الوطنين خروجاً عن ذلك القيد الذي وضعه (كرومر) في عنق التعليم المصري بسياسة الكتاكيط ، ولكن هل استطاع الغيورون والمؤمنون بهذا

---

(١) مجلة الفتح : حب الدين الخطيب مجلد ١٩٣٧

الوطن ان يمحوا هذه النبتة ، لقد واجه كثير من الباحثين هذا التحول الخطير فقال صاحب فق العرب الدمشقية عام ١٩٣٠ :

« أنشئت الجامعة فتهلل القوم في جميع أنحاء الشرق العربي وتفاءلوا منها خيراً وباتوا يملقون عليها الآمال الطوال والأمني الكثيرة وما هي إلا عشية أو ضحاها حق حصص الحلق ووضع الصبح الذي عينين فتبين لهم أو كاد ان تلك الجامعة تبث الآراء الشاذة التي يريدها الاستعمار الأوروبي في الشرق وأنها إنما اتخذت آلة هدامه للكيان العربي عن طريق الأدب والعلوم . وها نحن نرى الجامعة المصرية أو بعض القائمين بأمر الجامعة يعلنون الحرب على العرب والعربية ، فقد اتضح لأبناء الأقطار العربية بعد الإشكال السبب الذي دعى به الجامعة المصرية ولم تدع الجامعة العربية في مصر وشارتها الفرعونية ، وكل هذا يقوم على الدعاية على ان مصر فرعونية بحثة وان الآداب العربية واللغة العربية دخيلة بل محتلة بقوة الفتح ، والذين في الآداب المصرية واللغة الفرعونية ، وإن السياسة (الجريدة) قد اتخذت ثكنة حربية يرابط فيها مجاهدو القومية الفرعونية بقيادة أشخاص لا يستطيعون ان يبرهنو على ان مصر يتم ترتفع الى اكثر من خمسة أجداد او عشرة » .

وفي هذه الفترة كان هناك صراع شديد على من يحل محل الأزهر : هل الجامعة المصرية أم الجامعة الأمريكية في القاهرة ، وفي هذا تقول جريدة السياسة في ٢٦ فبراير ١٩٢٧ (إن الجامعة المصرية أرادت أم لم ترد ، رضي القائمون بالأمر فيها وفي الدولة المصرية أم لم يرضوا ، صائرة لا محالة الى حيث تحمل من ناحية النفوذ خارج الحدود المصرية محل الجامع الأزهر ونفوذه الكبير في تلك المصور التي مضت ) .

وقد علق على هذا السيد حب الدين الخطيب فقال إن الأزهر للإسلام والجامعة للثقافة الجديدة التي تقوم على إنسكار الدين أو على تجريدتها من الدين

أو الى عدم الحاجة اليه ، فالتقابل بين الازهر والجامعة تقابل بين الشيء وضده .  
ولقد أحس طلاب الجامعة في فترة ما بأن دراستهم لا تعطيمهم ما يطمحون  
اليه من فكر ومن إجابة لقضايا النفس والحياة فطالبوا ان تجدد مناهج الجامعة  
وان يكون الاسلام حضارياً وعقائدياً مادة اساسية في دراساتها ، كذلك  
طالبوا بدراسة خاصة للبنات في كلية الآداب .

وقالت مذکرتهم (مارس ١٩٣٧) إن الفتاة المصرية في مسيس الحاجة الى  
تربيبة الروح ، فهي في حاجة الى دراسة خاصة بها لأنه منها يمكن من الأمر  
فليس كل المواد التي تدرس في كلية الآداب تتفق ومستقبل الفتاة ، دراسة  
تتفق وكونهن أمهات المستقبل ، إن الاختلاط في صورته الحالية في جميع  
الكليات يتناهى والشرع الاسلامي ، إن الدراسة الخاصة بالفتاة تغير تحديد  
لمصيرها وخير معين على حياتها المقبلة .

كذلك أشار الطلاب الى أسفهم « ان تنتهي مراحل التعليم في الجامعة  
وما يعلم الطالب فيها من أمر دينه شيئاً ، بينما يعرف أرسطو وديكارت ،  
وحيث يكون الدين في هذه المرحلة الوازع الاكبر للشباب » .  
سجل الطلاب هذا وما زال مطلبهم قائماً الى اليوم .

وقد أشار الكثيرون الى الجامعات الغربية وكيف تلتتصق بها معابد بينما  
لا يوجد في الجامعات الوطنية في العالم الاسلامي أي إشارة الى هذا المعنى .

ولقد كان حرص التغريبيين الى الدعوة الى حرية الفكر حق يجدوا منها  
وسيلة الى تقديم كل سعوم الفكر الغربي وفلسفاته المادية والملحدة والإباحية  
إلى الطلاب دون رقيب وكذلك تقرير الكتب الشهيرة لأمثال برثاردشو  
وغيره وفيها نقد الاسلام ورسوله ، ولكن الدكتور طه شهد كيف وضمه  
الطلبة بين المطرقة والسدان وفرضوا عليه الاستقالة بعد ان كادوا يقتلونه ،

و كانت الجامعـة بذلك قد عرفـت كـيف تـتحرر من قـيود التـغـيرـيب ولـكـنـها لم تـقـلـبـت ان تـراجـعـت .

و الجامـعة في الحـقـيقـة لـيـسـتـ دـاعـيـة أو مـسـخـرـة لـإـحـدـى مـدارـسـ الـفـكـرـ الغـرـبيـ سـوـاءـ الـليـبـرـالـيـ مـنـهـ أوـ الـمارـكـسـيـ . وـلاـ يـحـوـزـ انـ تـكـونـ كـذـلـكـ ،ـ إـنـماـ هيـ مـسـخـرـةـ لـفـكـرـ أـمـتـهاـ اـسـاسـاـ تـقـفـ عـلـىـ قـاعـدـتـهـ الـاـسـاسـيـ وـقـدـرـسـ كلـ المـذاـهـبـ وـالـنـظـريـاتـ ،ـ فـتـأـخـذـ مـنـهـاـ وـتـرـفـضـ فيـ اـسـتـقـلـالـيـةـ وـأـصـالـةـ .

## (٧)

لكي نكشف الى اي حد كان نظام التعليم الغربي بعيد الخطر في أفق المجتمع الاسلامي نقدم هذه المجموعة من الحقائق :

(اولاً) : إن دراسة اللغة الاجنبية هي ولاء فكري إذا لم تدرس في إطار اللغة الاصلية التي يجب ان تكون قد وضعت أمام اهلها بصورة خليفة بالتقدير . واللغة العربية الفصحى لغة قد شهد لها عشرات من الاجانب ، وتميزت بها لغة قوم ولغة فكر في آن ، وقد نزل بها القرآن فأضافى عليها طاقات من البقاء والامتداد ، ولكن ما تزال اللغات الاجنبية في موضع التفضيل .

يقول هاميون كثيرون : إن التغير الذي حدث في تكويننا الفكري والروحي نتيجة سيطرة اللغة الانجليزية كان تغييراً بعيداً الأثر ، إننا ننظر إلى العالم كله بمنظار إنجليزي ولا نتخلص بالحسنة الفكرية إلا عن طريق إنجليزنا ولا ننتذوق الآداب الاجنبية إلا كما ينتذوقها الإنجليز بل إننا ننظر إلى الآداب الشرقية بمنظار النجليزي .

ومن هنا كانت تلك المحاولات المستمرة إلى انتزاع الدراسة العربية من حضارة الدين والقرآن ، وذلك بمحاولة انتزاع حرمة اللغة العربية وعزلها تماماً ووصفها بأنها لغة أمّة من حقها أن تتصرف فيها ، وهو غير الحق تماماً

لأن العرب وحدهم أو اي قطر من اقطارهم لا يملك حق التصرف في اللغة العربية التي يحكمها سبعين مليون من المسلمين .

ومع ذلك تجربى محاولات متعددة لانتقاد الفصحي بدراسة المهجات والأداب الشعبية وتطبيق نتائج دراسات اللغات الأجنبية عليها .

ثانياً : حرصت المدرسة العصرية على إهانة العلوم العالمية والمعارف الكونية وصرف الأوقات وتضييع الجهد في فلسفات نظرية عقيمة وعلوم خيالية سقيمة ، وذلك لتقويت الفرصة على الاجيال من ان تعرف جذورها ، أو تعرف بديلاً عنها علوم الغرب ، فهم لا يدرسون في التاريخ إلا الخلافات الدينية والمذهبية والخصوصيات التي وقعت بين الحكام والأمراء ، وذلك كله بعيد عن أصول دراسات التاريخ . وهم لا يدرسون إلا الفلسفات الاغريقية وصراع الايدلوجيات ولا يفرقون بين الفلسفة والعلوم بينما تفرق النظرية الاسلامية بين العلوم التجريبية والعلوم الانسانية وتجعل لكل منها منهجها الخاص ، وهي تقبل بمعطيات العلوم التجريبية وفق نظرة الاسلام الشاملة التي تؤمن بأن هناك حقيقة كبرى وراء كل القوى هي الحق تبارك وتعالى أساس التفسير الاصليل للحياة والكون والمجتمع وهي نظرة تقوم على الإيمان بالله والنبوة والوحى والبعث والجزاء .

ذلك انه ليس من الاسير ان ففصل بين الاسلام وبين دراسات اللغة أو التاريخ أو العلوم ، فالاسلام بوصفه الاساس للتربية والوجه للتعلم في مجال الدنيا او لا يتطلب ان تكون روحه واضحة بارزة في كل هذه العلوم ولا بد ان تكون العلوم الطبيعية والتجريبية قائمة على حقيقة التوحيد الاسلامي ، وعلى أساس الاعيان بأن الله هو الخالق والصانع ، وأنه واضح القوانين وصاحب النواميس التي تحكم قوى الكون والتي تحكم نظم المجتمعات ، وان كل مجتمع يخرج عن طبيعة هذه النواميس يهلك ويدمر ، وان الله سبحانه وتعالى هو الذي يمسك

هذا النظام كله ويديره بعد ان صنعه من العدم ، وأنه لا تخفي عليه ذرة من الذرات أو شيء من الاشياء فهو محيط به وعلم ومدرس . ومن شأن العلوم الطبيعية كما هو من شأن العلوم الاجتماعية ان تثبت التوحيد وتؤكد إرادة الله العليا على البشرية جمعاً كوناً وطبيعة وإنساناً ومجتمعات .

ثالثاً : يرد المستشرق جب والمستشرق لفورد كابتول سعى : الإباحية والإلحاد المذين يسودان الشباب المسلم الى مناهج المدرسة العصرية ، يقول جب إن النشاط التعليمي والثقافي ( عن طريق المدارس العصرية والصحافة ) قد ترك في المسلمين من غير وعي منهم أثراً جعلهم يبدون في مظهرهم العام لادينيين الى حد بعيد ، ثم يعقب بقوله « وذلك خاصة هو اللتب المثير في كل ما تركت محاولات الغرب تحمل العالم الإسلامي على حصارته من آثار » .

ويقول : إن التجدد والتفرنج في الشرق إنما هما خاضعان لمقياس نظام التعليم الغربي ومدى سيطرته وتألمده في المجتمع الإسلامي الشرقي ، والسبيل الحقيقى للحكم على مدى « التغريب » أو الفرجحة هو ان ننتبه الى أي حد يحرى التعليم على الاسلوب الغربي وعلى التفكير الغربي .

والاساس الاول في كل ذلك هو ان يحرى التعليم على الاسلوب الغربي وعلى المبادئ الغربية ، وهذا هو السبيل الوحيد ولا سبيل غيره . وقد رأينا المراحل التي مر بها طبع التعليم بالطابع الغربي في العالم الإسلامي ومدى قائله على تفكير الزعماء المذين وقليل من الزعماء الدينيين .

أما كابتول سميث فيقول : إن أهم أسباب حرارة الحرية والإباحية التي تسود العالم الإسلامي اليوم ومن اكبر عواملها نفوذ الغرب ، وقد حازت قصب السبق في هذا المضمار تلك المعاهد الثقافية التي قامت بتربية جيل بأكمله على النمط الغربي الحديث . وكان مما صدره الغرب الى العالم الإسلامي تلك الأفكار المتعددة الجديدة التي تقع من الأهمية والدقة بمكان ، والاتجاهات

العقلية الدقيقة والميول الحديثة التي كان في نشرها أوفر نصيب لنمط التعليم الغربي الحديث ، ويفوقها في ذلك تأثير معاهد الغرب الحقوقية والسياسية والاجتماعية الجديدة ونفوذها الزائد .

ومنها ما يسلط اجيالاً وما يحاول تسليطه ، وبينما قام بعض المسلمين مقاومة لهذا التيار رحب به البعض الآخر ، ان بعضهم قد وقع تحت تأثير هذه التربية رسمياً وبعضاً وبعضهم قد رحب بهذا التيار بداع من أنفسهم ، وانتج ذلك ان كثيراً من المسلمين اعترفوا بهذه النظريات والمعاهد كحقيقة ثابتة وخصوصاً لها بالتدريج وهكذا استمر عمل التغيير بسرعة وقوة بالغتين . ولقد صرف تيار نظام التعليم الغربي الشباب الاسلامي في البلاد العربية والجمالية (الذين كانوا زبدة أمتهم وزهرة بلادهم) وغير عقليتهم الى حد ان عقولهم أصبحت لا تستطيع ان تسيّن الاسلام الصحيح وأصبحوا لا يندمجون في المجتمع الاسلامي : «ان سحر الافرنج أذاب الصخور وأسالها ماء » .

ومن هنا نعرف الى أي حد أضعف النظام الغربي في التعليم الروح المعنوية في الشباب المسلم وجني على رجولته «فأصبح شباباً رخواً رقيقاً مائعاً لا يستطيع الجهاد ولا يتحمل المكرر» وكيف فتح له الطريق الى الأهواء في عالم الفكر والبحث والترف والإباحية في محيط الحياة ، وكيف يحمل الدارس المسلم للغرب في ذهنه صورة رائعة بينما يحمل صورة ساخرة لجتمعه وأمته .

وفي الجانب الآخر من هذه الصورة نرى الرجل الغربي المسلم : ليوبولد فابس «محمد اسد» يطلع المسلمين على الحقائق التي أخفتها المزيفون من التغريبيين فيقول : إن التعليم الغربي يحمل روحاناً مستقلة وضميراً منفرداً تتجلّى فيه عقيدة مؤلفيه وعقلية واضعيه وهو نتيجة التقدم الطبيعي في آلاف السنين وتمثيل أفكار أهل الغرب ومجموع اقدارهم وقيمهم<sup>(١)</sup> ، فإذا طبق في بلاد إسلامية

---

(١) نقلًا عن العلامة ابو الحسن الندوبي .

أو مجتمع إسلامي يحدث به قبل كل شيء صراع عقلي ثم يتدرج إلى تعزيز العقيدة والردة الفكرية والدينية .

ذلك «ان الاسلام والمدنية الغربية يقومان على فككرين في الحياة متناقضتين تماماً ، لا يمكن ان تتفقا ، فإذا كان ذلك كذلك فكيف نستطيع ان نتوقع ان تظل تنشئة أحداث المسلمين على أسس غربية ، تلك التنشئة القائمة في بمجموعها على التجارب الثقافية الأوربية وعلى مقتضياتها خالصة من شوائب النفوذ المعادي للإسلام . إن التنشئة الغربية لأحداث المسلمين ستفضي حتماً إلى زعزعة إرادتهم في ان يعتقدوا أو ان ينظروا الى أنفسهم على أنهم هم ممثلو الحضارة الإلهية الخاصة التي جاء بها الاسلام ، وليس ثمة من ريب في ان العقيدة الدينية آخذة في الاضمحلال بسرعة بين المتنورين الذين نشأوا نشأة غربية » .

رابعاً : تستطيع التربية الاسلامية ومنهجها في التعليم ان تقدم للبشرية ذلك الطموح الذي طالما تطلع اليه المصاغون والطوبيون ، وهو مساهمة البشرية جمعياً في بناء المجتمع الرشيد ، وذلك عن طريق اعتناق نظرتها الى الانسان ككل موحد ، بعيداً عن محاولات تزييقه بين الحيوانية والتاليه ، وبوضفه مستخلفاً في الارض ، له إرادته الحرة وعليه مسؤوليته الكاملة ، وأمامه الضوء الكاشف الذي جاء به الوحي ليملأ نفسه بالطمأنينة والسكينة والسلام ويفتح له آفاق العمل والسعى في الحياة الدنيا خالصة الله ولإقامة الاخاء البشري بين الناس جميعاً .

وصدق الدكتور الجمالى حين قال إن اسس الاسلام في التربية والتعليم يمكن ان تفتح الطريق للكل اساس صحيح وثابت لبناء تربوي قويم يقوم على:

- (١) الاعيان بالحالق .
- (٢) العمل الصالح لخدمة الانسان والاسرة والأمة والانسانية .
- (٣) التواصي بالحق : والسعى وراء الحقيقة وتحري العلم والمعرفة الصحيحة ونشرها بين الناس .

(٤) التواصي بالصبر : ويشمل العمل على ضبط النفس والتقلب على الشهوات والاندفاعات العنيفة الموجاء ، فإن ضبط النفس يعد المفتاح لكل سلوك أخلاقي كريم وسورة «العصر» فيها تلخيص كل فلسفة تربوية صحيحة . إن كلا من الإيمان والعمل الصالح والعلم والأخلاق يجب أن تسير معاً وبصورة موحدة منسجمة .

ويقول : ومن المؤسف ان التربية الغربية قد أظهرت ضعفها في هذه النواحي سواء في التطبيق في الغرب ذاته أو ما اقتبسه العالم الاسلامي من الغرب .

خامساً : إن نظريات الغرب سواء في العلوم أو الآداب أو التربية هي مجموعة من المحاولات والفترضات التي تعرض على مجال البحث والتطبيق فتصدق أو تفشل ، فعلى المسلمين أن يتذروا إليها كذلك ولا يرونها حقائق أو مسلمات وإنما هي « التجارب البشرية الخطيرة وينصب ويتشعر ، ولا نأخذها على أنها أشياء قد بلغت نهايتها ، بل أنها مواد خاممة ونصنع منها ما نشاء وفق حالتنا وحاجتنا وتفرعها في قالبنا ونجردها مما اقتربنا بها من عوامل الإلحاد والإفساد والاستخفاف بالقيم الأخلاقية ثم نطبعها بطابع الإيمان بالله والنظر العميق » (١) .

ولعل من أخطر ما يواجه الجامعات الغربية ويخالون نقله إلى أفق التعليم الاسلامي ذلك الخلاف العميق بين الثقافتين : ثقافة العلم وثقافة الأدب . فإن العالم الغربي يعيش في صراع عميق بين جو العلم وجو الفلسفة وجو الفن وجو الأدب ويقولون : إن العلم الطبيعي والأدب قد شق الناس شقين فإذا اجتمع أحدهما بالأخر فكأنما اجتمع غريب من الناس بغرير وأهل العلم الطبيعي هم أهل الجفاف وأهل العلم الانساني هم أهل الطراوة .

---

(١) من نص المعلامة أبي الحسن الندوبي .

ونحن في أفق التعليم الاسلامي لا نخس بهذه الظاهرة الخطيرة لأن مفهومنا للحياة جامع ومتتكامل ولا يجعل بين العلم والأدب أي نوع من الصراع . أما في الغرب فكلها مخدوع ، العالم الذي يظن أنه عرف كل شيء ، وهو لم يعرف إلا تفسير ظواهر الأشياء ، والأديب الذي يحيي في أودية الأهواء والرغبات النفسية الجائحة ، لماذا لا يلتقي طرفا الصراع في منهج التربية الاسلامي الذي يجعل من العلم والأدب طرفين متتكاملين لا عدوين متعارضين .

سادساً : لا سبيل الى قيام نهضة عربية إسلامية في مجال العلم التجاربي، إلا في إطار اللغة العربية ، وكل دعوة الى قبول العلم في لغات الغرب هو تعويق لهذه النهضة ومحاولة لحجب المسلمين عن الاحراق بركب العلوم والتكنولوجيا ، وكل ما يذاع عن اهتمام اللغة العربية بالقصیر خطأً وادعاء . فإن تجربة تعلم العلوم باللغة العربية قد قامت فعلاً في اخطر الحالات وهي الطب وحققت نجاحاً كبيراً . فما زالت اللغة العربية قادرة كاؤفى لغات العالم على الاستئثار والتعریب والتصریف ، وإن تجربة دراسة الطب في جامعة دمشق أثبتت بالحجج الداممة نجاح التجربة وأوردت ما يفهمه المعارضين وما يوضح ان اللغة العربية قادرة على الاطلاع بأعباء التعليم الطبي والعلوم الأخرى <sup>(١)</sup> .

وقد سقطت تماماً الآن الحجة التي يتذرع بها خصوم العرب والمسلمين وهي مسألة المصطلحات العلمية والأسماء الجديدة فقد أوفى ما أهدى منها على أكثر من خمسين ألف مصطلح . ويجدرنا الأستاذ محمد أسد من خطير احتواهنا داخل بوققة الفكر الغربي إذا ما أردنا نقل العلم التجاريي : « وإذا كان المسلمين قد أهملوا فيما مضى البحث العلمي فإنهم لا يستطيعون ان ينتظروا إصلاح هذا الخطأ اليوم عن طريق قبول للتعليم الغربي من غير وازع ما ، إن كل تأخرنا

(١) دكتور عزة مریدن : عميد كلية طب جامعة دمشق (العربي نوفمبر ١٩٧١) .

العلمي وكل فقرنا لا يوزنان بذلك التأثير المميت الذي سيحدثه تقليدنا الأعمى لنظام التعليم الغربي في قوى الاسلام الدينية الكامنة . وإذا أردنا ان نحفظحقيقة الاسلام الدينية الكامنة على أنها عنصر ثقافي فيجب علينا ان نحترس من الجو الفكري للمدنية الغربية ؟ ذلك الجو الذي أصبح على وشك ان يتغلب على مجتمعنا وعلى ميلادنا ، وبتقليد عادات الغرب وزيه في الحياة يصبح المسلمين تدريجياً مضطرين الى الأخذ بوجهة النظر الغربية » .

ومن هنا نفهم أننا لا بد ان ننقل العلوم الى اللغة العربية اولاً ونحر كها في دائرة فكرنا .

سابعاً : إن كل محاولة لرقة الثوب الحلق بقطعة من هنا أو من هناك هي محاولة باطلة ، فلا بد من إعادة بناء منهج التربية والتعليم الاسلامي على اساس قرآنی إسلامی أصیل ، وفق مفهوم الاسلام نفسه ، وبذلك وحده يمكن تحرير التعليم من آثار مختلف المذاهب الغربية المصادية المتضاربة التي حملت على مدى المصور المختلفة والمبنيات المتباينة فوضعت داخل إطار التعليم حق لا يصل أصحابها إلا الى الاضطراب الفكري والازدواج التربوي والتمزق النفسي وحق لا يستطيع الدارس المسلم ان يجد وجهآ لرؤیة الحق او الاهتداء الى الطريق .

فهناك العقلانية والمصادية والماركسيّة والوجودية والفرويدية والبرجماتية والديوية ، كلها تتضارب وتتعاكس وتفسد كل شيء ، ويقف الاسلام منها في أصوله القليلة المنشورة هنا وهناك موقف الحيرة كأنه شيء غريب أو منبوذ . والسبيل الأصيل هو ان يكون للعلوم التجريبية منهج وللعلوم الإنسانية منهج آخر وان لا يدرس الانسان في دائرة المادة أو دائرة الحيوان .

والمسلمين قانون هو الشريعة الاسلامية وفيه نظام السياسة ونظام الاقتصاد ونظام الاجتماع ونظام الحقوق . ولم وجهات نظر في كل أمور الحياة هي

الآن بعيدة تماماً أو مستبعدة ، وكذلك فإن للمسلمين علمًا للنفس والأخلاق ومفهوماً متكاملًا يختلف عما تقدمه مدرسة التحليل النفسي ومدرسة دور كايم ومدرسة العلوم الاجتماعية ، ونظرة الإسلام للإنسان والحياة والمجتمع مختلفة أساساً مع نظرة الغرب ، فهي نظرة جامعة فيها الروح والمادة والعقل والقلب ، بينما تنشطر النظرة الغربية نحو شطر واحد هو المادة ، ونظرة الإسلام أخلاقية الجذور بينما تقوم النظرة الغربية على الحرية الأخلاقية ، ونظرة الإسلام تجمع بين الثوابت والمتغيرات بينما النظرة الغربية متغيرة مطلقة . كل هذا له أثره البعيد في ضرورة بناء منهج التربية والتعليم من جديد .

ثامناً : نحن نجد أن جميع الأمم تربط علومها بعقيدتها وترتبط تعليمها بمذهبها وتجربة الدولة الشيوعية مثال يقدم في هذا الصدد باعتبارها دولة عقائدية فهذه «روسيا» لم تأخذ ببدأ التعليم والتربية من حيث هو مبدأ إنساني عالمي وتراث بشري مشاع ، وماء صافٍ سائع ولم تسمح باستيراد منهج من مناهج التعليم خارج المعسكر الشيوعي ولا بإدخال العلوم والأداب التي نشأت في حضانة المربين البرجوازيين أو الأرستقراطيين والتي طعمت بأفكارهم ونزاعاتهم وطرق تفكيرهم ويختلف منها إضعاف العقيدة الشيوعية أو التشكيك فيها . لقد اخضعت روسيا جميع العلوم والأداب النظرية فيها والتطبيقية حتى علوم الطبيعة والجغرافيا والتاريخ لمبادئها الشيوعية ولنظارات قادتها ومؤسساتها دعوتها : ماركس وإنجلز ولينين ، وربطت بين هذه العلوم وبين أسس أولئك القادة رباطاً وثيقاً مقدساً تفار عليه غيره المؤمنين القدماء على عقائدهم وحرماتهم ، يقول جوردن العالم الطبيعي السوفياتي : «إن العلم الروسي ليس قسماً من أقسام العلم العالمي ، إنه قسم منفصل قائم بذاته يختلف عن سائر الأقسام كل الاختلاف ، فإن سمة العلم السوفياتي الأساسية أنه قائم على فلسفة واضحة متميزة ، إن التحقيقات العلمية لا تزال في حاجة إلى اساس وإن أساس علومنا الطبيعية هو «الفلسفة المادية» التي قدمها ماركس وإنجلز ولينين وستالين . إننا نريد أن نخوض وفي أيدينا هذه الفلسفة في معرك العلم

وبذلك استطاعت ان توفق بين العلوم التي احتاجت اليها ومبادئه التي  
آمنت بها وجعلت منها وحدة متناسقة ولم ترك فجوة بين الحياة التي تعيشها  
او تسعى اليها وبين المبادئ التي تؤمن بها وتدعو اليها في حماسة وبذلك  
سلمت من الاضطراب الفكري والقلق النفسي الذي يسود عالماً قتوزعه القوى  
المتلازمة ويسوده النفاق والتناقض »<sup>(١)</sup> .

و كذلك نجد في إسرائيل بعد الاتحاد السوفييتي نظرية التعليم من أجل دعم نظرية الحياة لأمة ، فهي تتمسك بمبادأ تقديم الفكرة الدينية واللغة العبرية التي تعبّر عنها رغم جميع الاتجاهات التقديمية ، ويرى المربيون اليهود أن التقاليد الدينية اليهودية هي النبراس الذي تهتدي به نظم التعليم ويحتم على المعلمين أن يكونوا تقليديين ، أي أن يحرصوا على التقاليد اليهودية الأصولية<sup>(٢)</sup> .

<sup>١ و ٢</sup> الاستاذ الندوی : نحو تربیة إسلامية حرة .

<sup>٢١٧</sup> (التربية وبناء الاجيال في الاسلام - م ١٥ )



## الفَصِيلُ الثَّالِثُ

### الثقافة الإسلامية

« الثقافة » هي الشطر الثالث من بناء الأجيال : فإذا كانت ( التربية ) لاعداد النفس والعقل الإنساني معاً للتلاقي في إطار الدين والخلق والرسالة القائمة للأمة وللفرد معاً، وإذا كان ( التعليم ) هو بناء القدرات وتكوين الأطر، وتلاقي العناصر في الكل المتكامل فإن ( الثقافة ) هي الثمرة الناتجة التي تمثل جوهر الفكر وأصلة الأمة وروح الجماعة .

ولقد كان النفوذ الغربي حريصاً على تغريب الثقافة لأنها هي الحصيلة الكبرى والنتائج الأعلى لكل معطيات التربية والتعليم ، ولذلك فقد ركز عليها تركيزاً خاصاً ، واستطاع أن يضر بها من خلال إفساد مناهج التربية والتعليم وصولاً إلى تمييعها وصهرها في بوتقة واحتواها .

ولذلك فقد جرت المحاولة إلى تزييف أجيال الثقافة بالقول بأنها نتاج عالمي لا يخضع لما تخضع له القيم القومية والوطنية ، كما جرت المحاولة لربطها بالحضارة فنودي أن من يصطنع الحضارة الغربية لا بد أن يصنع الثقافة الغربية ، وكان ذلك من محاولات تتبیع الثقافة الإسلامية للغرب في محاولة للقضاء عليها .

ولا ريب ان ثقافة اي امة من الامم تعتمد اساساً على عقائدها وقيمها الاخلاقية والاجتماعية التي تكونت عليها وسارت بها وانها تقوم في الأساس على المثل العليا للأمة ، وتنطبع بطابع ذاتيتها الخاصة . ولقد تلتقي الأمم في مجالات العلم التجريبي والمعارف العامة ولكنها تتباين تماماً في مجال الثقافة ، فان النظرة الاجتماعية والأخلاقية والتربوية في كل أمة تشكل على أساس وجدانها ومزاجها النفسي وذاتها المنبعثة من عقيدتها وقيمها .

وذلك هو أساس الخلاف بين الثقافة الإسلامية وبين الثقافات المختلفة : شرقية أو غربية ، ولا ريب ان هناك عناصر مشتركة بين الثقافات هي العناصر الإنسانية العامة ولكن اخطر ما تحاذر منه الأمم ان تحتوى في ثقافتها بمحب طابعها العقائدي أو تزييفه ، وهذا ما حاولته حركة الفرو الفكري والتغريب التي واجهها العالم الإسلامي منذ ان بدأت المعركة بينه وبين الغرب .

والحاولة الطارئة ت يريد ان تحجب الثقافة الإسلامية عن طابعها العقائدي من ناحية وان تعزلها عن تاريخها وقديها وعن تراثها ، وذلك بتصور ان الثقافة الحديثة بدأت مع الحلة الفرنسية وان كل ما سبق ذلك يدخل في عداد الماضي ، فلا يؤذن له بالسيطرة أو التأثير على التكوين الجديد للثقافة أو الفكر أو الأدب .

وقتلك نظرية مسمومة حاربتها حركة اليقظة الإسلامية بقوة وقاومتها مقاومة صامدة مريرة حتى كشفت زيفها .

ونحن نعرف أنه لا سبيل الى انتزاع أي أمة تحت اي تقسيم سياسي ، على اساس الوطنية أو القومية أو التجزئة أو الاقليمية عن ذلك الكيان الفكري والروحي والنفسي المتكامل الذي عرفه المسلمون جميعاً خلال اربعة عشر قرناً .

وإن هذه التقسيمات التي فرضها الاستعمار لن تستطيع ان تغير الحقائق  
الثابتة أو تحطم القيم الأساسية، وإن المسلمين منها قسمتهم الظروف السياسية  
إلى أقطار ودول وكيانات فإنهم لا ينفكون مرتبطين برباط وحدة الفكر  
والثقافة التي تقوم في الأساس على القرآن و تستمد وجودها من كلمة التوحيد.

وقد ارتبطت الأمم بعوائدها وترايختها وماضيها ارتباطاً عجزاً  
كل القوى عن الإدلة منه . أما المسلمون فقد قامت هذه الروابط بينهم خلال  
أربعة عشر قرناً فأصبحت هذه الأوطان «إسلامية التاريخ والسياسة والمجتمع  
والثقافة» إلى أن جاءت نظم التربية الحديثة فأرادت أن تنزع عنها هذا اللون  
المميز لها عن جميع الثقافات الأخرى .

(٣)

واجهت الثقافة الإسلامية في ظل النفوذ الأجنبي محاولة احتوائهما وفرض مفاهيم غريبة عليها بغية تدمير مقوماتها وكان ذلك جرياً مع المحاولات التي وجهت إلى التربية والتعليم ، فكان ابرز الشبهات التي أثيرت ما دعي بعالمية الثقافة ، وتفتح الثقافات والثقائهما بل وامتزاجها .

وهي دعوى باطلة لم يثبت صدقها ، بل ثبت على العكس من ذلك تصميم الباحثين عن الثقافة في كل آفاق الفكر العالمي على التمسك بذاتية الثقافة وارتباطها بالأمة وانتمائهما العقائدية والتاريخي .

فالثقافة في إجماع الباحثين هي موقف فكري وعمل من تراث البشرية وهي تحقيق للقيم الثابتة في أمة معينة ، وهي نسيج وحدة من النظم والأفكار والعقائد والأهداف والأعمال والمثل العليا . كذلك فإن لكل مجتمع ثقافةً التي يتسم بها ولكل ثقافة ميزاتها وخصائصها التي تحدد شخصيتها ، بل لقد رأى البعض أن الثقافة ليست مجموعة من الأفكار ولكنها نظرية في السلوك . وإن الحضارة والعلم ينتقلان من أمة إلى أمة لقابليتها للانتشار ، أما الثقافة فتبقى خاصة بكل أمة على حدة وإن أثرت ثقافات الأمم بعضها في بعض قليلاً أو كثيراً ، وفي نظر سينسلر ان الثقافة هي القوة الروحية المخصصة الوجود في الأمة بالصورة الحسية بمعنى ان هذه القوة الروحية المتصلة بها آثار

النشأة الدينية والعلمية مزاج يختلف عن مزاج . بل إن (تايلور) وهو باحث غربي أيضاً يقرر أن الثقافة هي الكل المركب الذي يتضمن المعارف والمقاييس والفنون والأخلاق والقوانين والعبادات وأي قدرات وخصائص يلمسها الإنسان نتيجة لوجوده كعضو في المجتمع .

كذلك فقد حاولت الشبهات أن تفصل الثقافة عن العقيدة ، بينما يؤكده الباحثون جميعاً بأن الثقافة تكاد تكون هي العقيدة نفسها . وإن الرابطة بين الثقافة والدين هي رابطة جذرية بحيث لا يمكن لأي ثقافة من الثقافات أن تظهر أو تنمو إلا إذا كانت لها صلة بدين من الأديان . وقال اليوت : إن الثقافة مظهر من مظاهر الدين ، فإذا نظرنا إلى علاقة الإسلام بالثقافة وجدنا الإسلام نظاماً اجتماعياً شاملاً يعتمد الدين جانبياً من جوانبه فقد رسم لمعتنقه أسلوب العيش وطريق الحياة . وليس من ريب في أهمية عنصر الدين في الثقافة الإسلامية من حيث إنه المأمول المسيطر على حياة المجتمع كلها حتى لقد أشار بعض الباحثين الغربيين بأنه من العسير على الغربي أن يفهم حياة الشرق الاجتماعية دون أن يفهم الإسلام وهو الدين الذي تدين به الجماعة ، ولعل من أكبر أخطاء الغربيين وقصور نظرتهم وبعدها عن الإنفاق هو النظر إلى الإسلام على أنه دين عبادي لا هوي .

وفي ضوء هذه المحاولة الخطيرة نحن في حاجة دائمة إلى الحافظة على الخصائص والمقومات الجوهرية للثقافة الإسلامية مع القدرة على الحركة والأخذ والعطاء . ولن يستثنى الثقافة الإسلامية كما يظن البعض شرقية ولن يستثنى غربية ولن يستمر كهما للثقافتين الشرقية والغربية ، ولكنها ثقافة مستقلة استمدت وجودها من منهج القرآن الكريم ومفهوم الإسلام الذي قام على التوحيد الخالص ، في إطار اللغة العربية .

وهي ثقافة تنفرد وتتميز عن ثقافات الشرق والغرب بأنها تقوم على

التكامل الجامع بين القوى المختلفة : الروح والمادة ، العقل والوجود ، الدنيا والآخرة وان توازن بين هذه القوى وقوائم بينها في اتساق عجيب يعجز عن فهمه اصحاب الثقافات الانشطارية .

وتتسم الثقافة الاسلامية بسمات تكاد تكون خصائص مميزة لها : فهي توازن بين الروحي والمادي ، وتحمل أولية « الخلقي » على الجمالي وتقرر طابع الإنسانية والشعور بكرامة الإنسان وتعمل على إقامة الأخوة الإنسانية .

وهي تطبع حركتها بطابع الأخلاق ، وتقيم منهجها على أساس الالتزام الأخلاقي في السلوك والعاطفة ، وفي ضوابط الشهوات وفي الإيثار للغير .

وهي ترمي الى إقامة العدل ، وتقسم بالنظر العقلي ، فيما البيان والوضوح بعيداً عن الغموض والرمز ، كما تقسم بالاتزان ، والإحاطة والشمول .

والثقافة الاسلامية هي ثقافة عربية من حيث الوعاء فبقدر ما دخل الإسلام من الفرس والترك والهنود فإن كل منجزات الثقافة كتبت باللغة العربية إلا القليل ، فقد جرى التفكير في دائرة الإسلام وإطاره ، وكانت اللغة العربية : لغة القرآن هي أداته ، كتب بها الفارابي التركي وابن سينا الفارسي وابن الرومي .

فهي ثقافة إسلامية المضمون عربية اللسان ، شاركت في نشأتها شعوب مختلفة الأجناس انطبع فكرها بروح الإسلام التي استعملت على المنصريات والدماء والألوان ولأن الثقافة الإسلامية قامت على التوحيد فقد تحررت تماماً من الخرافات والوثنيات والأساطير والعصبيات .

وكان لها موقفها الواضح الصريح إزاء الثقافات الشرقية والغربية التي واجهتها ، فهي لم تتصهر في هذه الثقافات ولم تصهر هذه الثقافات في بوطقتها ، بل أخذت منها ما يتفق مع روحها وطابعها ثم صهرت ما أخذت ونفت عنها كل ما عارض مقوماتها الأصلية .

وقد رفضت الثقافة الاسلامية منطق اليونان وأقامت منطق القرآن كما تجاوزت منهج النظر العقلي الى منهج التجريب العملي وفتحت الطريق أمام التقدم العلمي في مجال الطب والفلك والعلوم الطبيعية والرياضية ، فقد بدأ المفهوم العلمي عند المسلمين مستمدًا من القرآن الكريم أساساً ومن دعوته الصرىحة الى النظر في الكون والاهتمام بالعلم وآية ذلك ان كلمة علم وردت في القرآن (٨٥٠ مرة) وان أول أمر استخدم في القرآن هو كلمة « اقرأ » وان أول أداة ذكرت في القرآن هي (العلم) والاسلام هو الذي أمر معتنقيه باتباع المنهج العلمي والقرآن هو الذي أطلعهم على ان للكون سنناً وقوانين ليس فقط في مجال الطبيعة بل وفي مجال المجتمعات والحضارات .

وقد تبين للباحثين المصنفين خطأ الرأي الذي حمل لواءه (أرنست رينان) والذي ساد بين دعاة التغريب سنوات طويلة وتابعه كثير من المتعصبين واعداء الاسلام وهو القائل بأن الفلسفة الاسلامية هي فلسفة يونانية مكتوبة بمروف عربية وتأكد ان للإسلام منطلقاً إلى فلسفته هو ما قدمه الإمام الشافعي في علم أصول الفقه وثبت أنه لا منطق أرسطو ولا الفلسفة الهلينية أو الفارسية أو الهندية قد خلقت أو حولت الفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية ثمرة أصلية للتوحيد الإسلامي وأنه قد تجاوز الفكر اليوناني إلى إنشاء المذهب التجريبي الذي هو نتاج إسلامي خالص بشهادة مختلف علماء الغرب المنصفين .

( ٣ )

إن أخطر قضايا الثقافة الإسلامية هو قضية الأزدواجية :

وقد ناقش العلامة الاستاذ محمد المبارك هذه القضية في بحث ضافِ أشار فيه إلى أن الثقافة التي تكون الجيل المسلم في البلاد الإسلامية في العصر الحاضر مزدوجة المصدر ومؤدية بالنتيجة إلى عقليتين مختلفتين .

فهناك ثقافة تلقن في المدارس التي أنشأتها الحكومات في البلاد الإسلامية على نقط المدارس المنشأة في البلاد الأوروبية من ابتدائية وثانوية وعالية ، وهذه الثقافة بشكلها الحاضر وجميع ملابساتها أخذت واقتبسست من الثقافة الأجنبية وهي حاوية على مواد علمية خالصة : كالرياضيات والطبيعيات بفروعها المختلفة وعلى أفكار وعقائد ومفاهيم مأخوذة من العقائد والمفاهيم السائدة في أوروبا وكانت مادة إلحادية أم دينية وعلى أساليب للتعلم وطرائق للبحث وهي نتيجة لتجارب طويلة واختبارات متواالية ، وقد أ了些 احياناً بهذه الثقافة رقعة متميزة عندها هي ( مادة الدين ) وفيها يعلم الإسلام وأحكامه وعقائده وهي مادة في كثير من البلاد الإسلامية تختلف في طريقة عرضها وتعليمها وفي مفاهيمها ومنطلقاتها اختلافاً كبيراً عن بقية المواد الثقافية ولذلك لا يكون أثراً لها قوياً بل قد يحدث التناقض بين هذين اللذين من الثقافة نتائج سيئة في عقول الطلاب ونفوسهم .

إن هذه الثقافة المقتبسة من بلاد تختلف عن البلاد الإسلامية في عقائدها وأفكارها وفي عاداتها ونظام حياتها بقيت هي الأسس للنظام الثقافي في البلاد الإسلامية وفي جميع درجات التعليم من ابتدائي وثانوي وجامعي ولدت في أبناء المسلمين عقلية مشابهة للمقليات الأوروبية في مفاهيمها وأفكارها ونظرتها للحياة ، ولا قيمة بعد هذا لبعض المظاهر الإسلامية أو الشعائر الدينية التي قد يحافظ عليها بعضهم لأن الأساس الفكري ليس أساساً إسلامياً سليماً ولا يولد تفكيراً ولا سلوكاً إسلامياً في الحياة الفردية والاجتماعية ، ذلك لأن الجو العام لهذه الثقافة هو جو فلسفة خاصة مغايرة للإسلام ، لأن الثقافة حق في المواد العلمية الخالصة منها كالكيمياء والفيزياء شحنت بأفكار لا علاقة لها بها في الأصل ولا هي من مستلزماتها ولكنها دست فيها وختلطت نظرياتها وتجلت في تعبيرها حتى كان هنالك اقتران بين هذه العلوم التي تدرس الطبيعة والمادة والمذاهب الفلسفية الطبيعية والإلحادية التي عاشت معها وعاصرتها في أوربا .

إن هذه العلوم الطبيعية ضرورية جداً ولكن يجب تحريرها مما علق بها وصياغتها صياغة جديدة تتفق مع العقيدة الإسلامية أو لا تعارضها على الأقل . كما أن هذه الثقافة الحديثة يجب أن يستفاد مما تشتمل عليه من أساليب العرض الحسنة ومناهج البحث الصحيحة ، ففيها الكثير النافع مما وصلت إليه تجارب الإنسان في تقدمه الفكري والحضاري .

أما المصدر الثاني للثقافة في البلاد الإسلامية فهو الثقافة الإسلامية الموروثة وهي التي تعلم في حلقات العلماء والمدارس الدينية القديمة التي استمر بعضها ومعاهد العالية كالأزهر والزيتونة والقرويين .

إن هذه الثقافة إسلامية الأساس ولكن تعاقبت عليها القرون واختلطت فيها المذاهب والأراء وتشعبت بها الطرق والمسالك حتى غدت خليطاً من تعاليم الإسلام في كتاباته الكريم وسننه النبوية ، ومن طرائق المتكلمين على

اختلاف منازعهم ومذاهبهم وما شاب الكلام من الفلسفة اليونانية وافكارها ومن مذاهب الفقهاء ولا سيما في العصور التي ضعفت فيها المدارك والمحظ فيها التأليف ، وضاقت فيما مذاهب التفكير وابتعدت عن مصدرى الاسلام الأساسيةين « الكتاب والسنة » وسد باب الاجتهاد ، والتزمت فيما أقوال الشيوخ ، دون النظر الى دليل الكتاب والسنة وأقوال الصحابة وكبار الائمة المحتهدين ، أضف الى ذلك كل ما خالط الثقافة الاسلامية من علوم اخرى لا تزال قدرس كما كانت في العصور السالفة ، مع ان تقدماً كبيراً طرأ عليها وتغيرت نظرياتها وحقائقها تغيراً أساسياً : كالفلك وسائر العلوم الطبيعية وليس هي في الاصل من العقائد حق لا تتبدل او من العادات حق يتوقف عندها ، بل هي من تجارب الانسان في هذا الكون ومن علمه وتأمله فيها خلق الله ( الذي يزداد يوماً بعد يوم ) .

إن العقلية التي تكونها هذه الثقافة الاسلامية القديمة تختلف اختلافاً كبيراً عن العقلية التي تكونها الثقافة الحديثة ومن هنا ينشأ الصراع في المجتمع بين عقليتين ويظهر هذا الصراع في مجالات كثيرة في التربية والتعليم وفي المجتمع والسياسة وفي غيرها من المجالات . وهو صراع له نتائجه سواء أكانت الجبهة المنتصرة هذه أو تلك ، لأن الصراع بنى على اساس فاسد ولأنه صراع خاطئ يصور الاوضاع على غير حقيقتها ويجعل المسلمين في جبهتين وهم ليسوا كذلك ، وليس كل ما في الثقافة القديمة واجب الالتزام اسلامياً وليس كل عناصره إسلامية حق يحب الدفاع عنها وكذلك الثقافة الحديثة ليست كلها منافية للإسلام حق توضع موضع الخصومة .

ولذلك يقترح العلامة محمد المبارك وضع نظام ثقافي إسلامي موحد غير مزدوج الروح والمصدر يستهدف صبغ التعليم في جميع درجاته وألوانه بالصبغة الاسلامية أي ان يكون الجو العام للثقافة والتعليم هو جو العقيدة والمفاهيم الاسلامية مع اختيار الطرق والاساليب الصالحة المناسبة لتعليم الدين وإدخاله

في النفوس ووصل ما بين الدين والحياة بعرض المشكلات الحاضرة على اختلاف أنواعها على أساس الإسلام ونظرته وسد حاجات المجتمع الإسلامي عن طريق التعليم بمختلف تخصصاته ودرجاته .

والوقوف أمام الأنظمة الثقافية الأخرى التي غزت العالم الإسلامي بإحداث وعي إسلامي عام بحيث يكون هذا الوعي -العقلي والنفسي- وعيًا لمبادئ الإسلام وتعاليمه وقضايا الإسلام الكبرى في المصر الحاضر ووعيًا لوحدة العالم الإسلامي ومصادر قوته وما يحيط به من أخطار .

## (٤)

إن النظرة الفاحصة لوجوه الالقاء والاختلاف بين الثقافة الاسلامية والثقافات الغربية تجد محاذير كثيرة جديرة بأن تكون واضحة أمام الباحث المسلم :

(أولاً) لا ترى الثقافات الغربية ان الدين جزء اساسي من تكوين فكرها وثقافتها وترى ان المسيحية الشرقية كانت عارضاً من العوارض التي التقت بها وأصابتها بالانحراف لأنها نقلت اليها «روح النسك» الآسيوية ، ولكن الثقافة الغربية استطاعت امتصاص هذا الرافد وصهره في روحها الاساسية التي تدين للوثنية اليونانية وحضارة روما القديمة .

بينما تؤمن الثقافة الاسلامية بالدين جزءاً اساسيًّا لا ينفصل عن المجتمع.

(ثانياً) تؤمن الثقافة الغربية بأن محتواها العلمي والأدبي والفنى والصناعى إنما يهدف الى خدمة الانسان الأوروبي قبل غيره وعلى حساب غيره ، وليس الى خدمة الانسان بصفة عامة أو من حيث هو بشر .

بينما تؤمن الثقافة الاسلامية بالطبع الانساني وترى ان قيمها إنما هي لخدمة البشرية جمعياً .

(ثالثاً) تؤمن الثقافات الغربية بحلول المشاكل والقضايا على قاعدة القوة

وأسلوب الميكافيلية التي تنفصل فيه الاخلاق عن السياسة وعلى قاعدة الغاية التي تبرر الواسطة .

بينما تؤمن الثقافة الاسلامية بالحلول الأخلاقية ولا تبرر الوسيلة عندها الغاية ، بل لا بد للغايات الشريفة من وسائل شريفة .

(رابعاً) تقوم الثقافة الغربية على أساس اذفصال الضمير عن العلم وسيادة المادة على الضمير ، بينما تؤمن الثقافة الاسلامية بأن الضمير أساس العلم والحضارة .  
(خامساً) تنطلق الثقافات الغربية من نظرة تحاول ان تصور الانسان بأنه عبد لغرائزه وزواطه وان العقل الباطن هو العامل المسيطر في توجيه حياته ، وبهذه النظريات أدخلت الانسان الى حظيرة الحيوان ، وهذه المفاهيم تتعارض تماماً مع مفاهيم الثقافة الاسلامية التي ترى للانسان كرامة تعلو على الخلوقات جملة وترى له سيادة تحت حكم الله ترفعه بالعقل وتكرمه بالإيمان .

(سادساً) تعلي الثقافات الغربية المنصريات والأجناس والدماء ، وتحاول ان تجعل للبيض والغربيين امتيازاً على الأجناس الملونة . وتحاول بهذا الإعلاء ان تجعل لها حق السيطرة والقيادة .

وهذا المفهوم يختلف تماماً مع مفهوم الثقافة الاسلامية التي ترى ان الناس سواسية وإخوة ، وأنه لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل .

## هَذَا الِكِتَابُ

... ان اخطر التحديات التي واجهت المسلمين والعرب في العصر الحديث اغرا جاءت من اهال التربية والتعليم ومن سيطرة الارساليات على مناهج المدارس والجامعات على النحو الذي فرض تعليما غربيا خالصا استوعب اغلب شباب المسلمين ووجههم وجهة خطرة فيها انتهاص لتراثهم ودينهم وفيها اعلاء للغرب وابطاله فكان لا بد من دراسة هذه القضية تماما في ضوء مفاهيم الاسلام في التربية والتعليم والثقافة .